@ketab_n
Follow Me
31.7.2015

برتقال مُرّ

بسمة الخطيب

رواية

دار الآداب

بسمة الخطيب

برتقال مُـــرّ

روايـة

دار الآداب ـ بيروت

Twitter: @ketab_n

برتقال مُرّ

Twitter: @ketab_n

برتقال مُـرّ
بسمة الخطيب / كاتبة لبنانيّة
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-470-6
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

الإهداء

إلى ناجية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

الظلمة ليست قاتمة. ستارة رماديّة.

يمكنني رؤية خيالاتهنّ، النسوة اللواتي رحن يجمعن عظامي من بين شقوق الأرض بأصابع سمينة ومقشّبة، كتلك التي يجمعن بها حبّات الزيتون من بين الشوك والحصى.

سمعتُ عظامي تتكسّر فوق التراب الجافّ والمتفسّخ، وجدّتي تصرخ مذعورة: «ماتت البنية ماتت».

وطبعًا أتت تلك الموسيقى.

تلك التي لا أعرف وصفها. التي أدندنها حتى في أكثر لحظاتي بؤسًا. التي سترافقني دائمًا من خلف جدار لا أراه، ولكنّي أتكئ عليه. لأنّها على الأرجح موسيقى لا أسمعها، ولكنّي أتخيّلها عائمة حولي تحيطني كهالة، تصوّب نغماتها الحزينة نحو ظهري الذي يرتعش ويلتصق بصدري رهبةً منها، ويوقظني من كابوسي.

Twitter: @ketab_n

أستيقظُ، لكنّي لا أفتح عينيّ.

أحبّ تأمّل ظلام جفنيّ المطبقين.

أحبّ تخيّل أنّ الظلام استمرّ ولم أفتح عينيّ قطّ... وأنّ ما حدث لاحقًا هو محض كابوس في ظلمة قبر فتاة مدوّن على شاهدة التاريخ: ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥.

كان يمكن أن تنتهي الحكاية باكرًا، وأموت خفيفة وبريئة. لو أنّ الأرض لم تكن مشبعةً بأمطار اليوم السابق، لو أنّ التي كانت تتّجه نحوي كانت «عيشة» كما ظننتُ، ولم تكن جدّتي خارجةً لتنتزعني من الموت، وتمسح الوحل بتنّورتها سامحةً للهواء بالدخول من أنفي. ولو أنّ جارتنا لم تقصد طالب الطبّ الوحيد في الحيّ، ليسعفني ويرتق مزّق رقبتي. لو أنّ رائحة بنج أصابعه وبقايا عطر رجوليّ لم تستقرّ بين قُطب الجرح.. وتبقى إلى اليوم.

* * *

Twitter: @ketab_n

قلّة يعرفون أنّ في رقبتي ندبة. عليّ أن أرفع رأسي وشعري كي تظهر بوضوح. حين أخرج من البيت أتعمّد إخفاءها، ليس خجلاً بها فقط، بل استياءً من استعادة حكايتها.

تعرفها نسوة الحيّ وبعض الأقارب، وذلك أنّي أهتمّ كثيرًا بإخفاء شعري تحت المنديل المنزلي المزركش، لأجل النظافة وكرهًا في رؤية الشعر متناثرًا في البيت، والمطبخ تحديدًا، حيث كنت أشعر بعبء شعري فوق وجهي ورقبتي، لذا كنتُ أرفع رأسي وأحزم شعري تحت المنديل مرارًا، فيرى المقرّبون نُدبتي التي تُشبه أثر أفعى بعيدة فوق الرمال.

«من شو؟ وقعة؟ أو ضربة منجل؟» يسألونني.

كنتُ أحكي بإسهاب، ثم صرتُ أتألّم من التفاصيل، ويؤلمني أكثر ما لا أقوله، إخفاء شغفي بمن خاط الندبة ولامس

Twitter: @ketab_n

ما هو أعمق من جرحٍ سطحيّ.

لاحقًا، صرتُ أقول بإيجاز، كأنّ القصّة بسيطة فعلاً: كنتُ أمسك عصفورًا عند حافّة الشرفة، طار العصفور فلحقتُ به، ووقعت.. فقط.

بطريقة ما، كان هذا ما حدث حين كنتُ صغيرةً بما يكفي لتشفق عليّ الملائكة، وتزرع لي جناحين.

كنتُ أمسكُ العصفور بيد، وبالأخرى أحاولُ ربط قائمته بخيط.

لذتُ بأقصى الشرفة المتهالكة وأنا أشعر بخطوِ عيْشة يقترب.

ستسلبني إيّاه! ستخنقه!

حاولتُ ربطه بسرعة، لكنّ الخطوات اقتربت، فارتعش قلبي كعصفوري، ولم تعرف السماء أيّنا كان الأكثر خوفًا وضعفًا، وأيّنا الأكثر توقًا إلى الفرار.

عيشة تلاحقني، ستخنقه كما خنقت جميع عصافيري... العصافير التي يجلبها أبي حيّة، وأجدها نافقة في الصباح التالي.

زعق ونفض جناحيه في وجهي. أوجعني فأفلتّه.

أردتُ اللحاق به، كان الخيط لا يزال في يدي، لكنّني لم أكن عند حافّة الشرفة.

صرتُ في الهواء. عمتُ فيه زمنًا لا أقدّره، لأنّني شُغلت بالبحث عن عصفوري.

Twitter: @ketab_n

عمتُ في الهواء وشممتُ رائحةَ البحر البعيد، التي اختلطت بروائح وحل الساقية وبراز الدجاج والقرفة المنبعثة من مطبخ قريب.

نفخ الهواء في فستاني الكتّانيّ فصار كبالون. لم أتذكّر كيف أتنفّس. ملأ الهواء الثقيل صدري وأنفي وفمي.

حين ارتطمتُ بالأرض بحثتُ في السماء عن عصفوري، لكنّي لم أره.

لم أرَ السماء أو الغيوم، فقط وجه جدّتي التي أطلّت من فوق حديد الشرفة، ونادتني بسرعة البرق. أومض اسمي واختفى. حرفان. عدد يساوي صفرًا في عالم الأسماء. كأنّني من دون اسم. ولن يحدث فرقٌ إذا متّ.

«ماتت البنيّة.. ماتت».

لم أكن أعرف ما الموت! لم أسمع إلّا عن غيلان وذئاب تموت في حكايات جدّتي ـ التي لن تحكي لاحقًا حكايات أخوالي المُجهَضين ـ لذلك لم أخَفْ وأنا أسقط، وجدّتي تولول.

حتى بعد هدم سور الشرفة الحديدي الصدئ وبناء سور أمتن، وحين صارت تعرف بـ «برندة» وليست «ترسينة»[1]، بقيتُ أقف في الموقع نفسه، أحاول قياس المسافة وزمن السقوط.

أرمي ثمرة نارنج أو «كلّة»، وأحسب زمن وقوعها، فأعرف

(١) شرفة قديمة.

Twitter: @ketab_n

أنّه قليل جدًّا، ثوانٍ قليلة. لكنّي أستبعد الحسابات لتيقّني أنّ لحظة وقوعي طالت زمنًا، سمعتُ خلاله أغانيَ تغصّ بالدموع، وشممتُ روائح غير منسجمة، ورأيت وجوهًا بينها وجه جدّتي ووجه طالب الطبّ الشابّ الذي أسعفني.

ـ شو اسمك؟

ـ . .

ـ قدّيش عمرك؟

ـ . .

ـ طب قدّيش هودي؟

وجّه شيئًا نحو عينيّ لكنّي لم أره. كانت حواسّي معطّلة، لم تبقَ إلّا أقواها: الشمّ.

لم أردّ على الأسئلة. لم أتذكّر سوى عصفوري.

حاولتُ أن أصرخ فلم أقدر. أردتُ أن أبكي لكنّي لم أشعر بعينيّ. شعرتُ بأنّني ربّما ما زلتُ أهوي، في تلك المساحة بين الشرفة والساقية، وبأنّني في طريقي الآن إلى الوادي والساقية التي تحفر بطنه، وربّما لن تكون التربة رخوة هذه المرّة، ويكون المطر قد هجرها منذ شتاء بعيد.

* * *

Twitter: @ketab_n

تتجمّع نقاط العرق الزاحفة من خلف أذني اليسرى في شقّ الندبة المتماوج.

ظهيرة مؤلمة! عبثًا أحاول النوم. الوقت في هذه المدينة أطول من الوقت في قريتي.

عليّ أن أنام جيّدًا. هكذا نصحتني سهى، مقلّمة الأظافر، كي ترتاح بشرتي ليوم الحفلة.

لم أخبرها أنّها ليست حفلة، خفتُ أن تكشف أمري إن نطقتُ. السخرية من لهجتي علّمتني الصمت وليس الهدوء. بدليل أنّ سهى طلبت منّي الاسترخاء بين دقيقة وأخرى. استحيتُ أن أخبرها أنّها المرّة الأولى التي أنظّف فيها أظافري في صالون تجميل، وأترك شخصًا يدعك قدميّ ويحفّهما ويمرّر أصابعه بين أصابعي!

Twitter: @ketab_n

«بليز ريلاكس... ريلاكس»، توسّلت إليّ، ولم أفهم كيف يمكنني أن أسترخي.

أردتُ الاعتذار عن مظهر أصابعي التي لم تعتد الدلال والاهتمام، وإخبارها أنّني منذ طفولتي أرهقها في أعمال الطبخ والحقول. لكنّي استحيتُ أيضًا من تبرير نفسي. ثم فكّرتُ في أن أعتذر عن حيائي... كانت دوّامة متّصلة، أشعرتني بصداع الظهيرة المعتاد.

أتجوّل في المطبخ كي أحفظه جيّدًا.

أتناول حبّة مسكّن ثالثة.

الثلّاجة تكاد تنفجر. أفسح للحمّص المبلول مكانًا قرب الدجاج المنقوع في تتبيلة إكليل الجبل والثوم والصعتر الأخضر. لا يمكن المخاطرة بترك أيّ شيء حيث الحرارة تتجاوز ٣٥ درجة مئويّة. الخضروات واللحوم وكلّ ما أحضرتُه محشور في الثلّاجة.

يجب أن تكون المأدبة ناجحة. إن أغفلتُ أيّ تفصيل سأهلك.

ألمسُ الندبة.

لا تزال مكانها. لم تغمرها كثبان الأرق.

أشعر بأنّها تورّمت من الحرّ والحماسة.

يثير حماستي أنّني انتقلتُ إلى بيروت لأجلك، وأنّك لا تعرف بوجودي وبخطّتي، وأنّني سأقابلك بعد سنوات طويلة من

Twitter: @ketab_n

انتظار هذا اللقاء. ينهش الشوق والخوف قلبي، فيتعاظم تعبي، وتنبض الندبة بألمٍ مضاعف.

أندسّ تحت الدوش للمرّة الثانية. تأتي مياهه من السطح ساخنة، ولا يعود لها الأثر المرتجى. أُغلق صنبور المياه، وأبقى جالسةً في «البانيو» المشقّق، أراقبُ آخر نقاط الماء تغادره إلى المصرف. تسقطُ في الظلام كما أسقطُ كلّما نمتُ على قلق. أتركُ شعري يجفّ ويبرّد تبخّر مياهه ظهري. أمسكُ خصلاته وأسائل نفسي كيف ستبدو في الغد، حين أعودُ من عند الكوافير؟

ثقيلةٌ الخصل المبلّلة، ثقيلةٌ بالذكريات والخوف.

* * *

Twitter: @ketab_n

كنتُ في الخامسة، لا أذهب إلى المدرسة، لأنّها لم تنتبه لعمري، لم يكن عليّ تمشيط شعري في الصباح، ولكن، في وقت ما من اليوم، كانت تناديني وتجلسني تحت هامتها لتمشّطني.

طمرتُ في التراب المشط الذي تغطّه في المياه قبل أن تغرسه في شعري. طمرتُ الكثير من الأمشاط، فوضعتني بين ركبتيها القويّتين كحجري صوّان، وأمسكَتْ الخصلَ الغزيرة المتشابكة، وراحتْ تقصّها من فوق فروة الرأس مباشرة، حتى شعرتُ ببرودة معدن المقصّ يحرث شعري.

ـ «. . . بيكفّيش بتضلّي ساخنة! يا ممروضة! كمان شعراتك جايين عبايا وخشنين ليعزّبوني. كلّ شي فيكي قاهرني!! بس خلص، إسه بتشوفي، راح ارتاح من كبّاشك بالمرّة، فرجيني وين راح تخبّي المشط».

Twitter: @ketab_n

تجمّعَ الجيرانُ على صراخي، تتقدّمهم زوجة عمّي، نبيهة.

بدت الصدمة على وجوههم. طفلة بحلاقة سجناء ووجه مجرمين تلهث نحو أوّل منقذ.

غير ندبة رقبتي بانت نُدب رأسي من مشاغبات سنوات طفولتي الخمس، وبدا حاجباي أكثر كثافة. أخذتني زوجة عمّي إلى أقرب حلّاق رجّالي، لينقذ ما يستطيع إنقاذه. لم تكن لنساء القرية صالونات حلاقة حينها.

تهكّم الحلّاق عليّ وعلى عيْشة، وسبّها. أجلسني قبالة مرآة صدئة. أغمضتُ عينيّ كي لا أرى كيف تحوّلتُ إلى كائن مخيف. لكنّي بقيت أرى نقاط الصدأ ترصّع جدار جفنيّ.

حين عادت أخواتي من المدرسة ورأينني، أُصِبن بعدوى الضحك. أحضرتْ أختي «زلفة» منديلاً، وربطت رأسي كي لا ترى منظره المنفّر. من دون أن تقصد، ساعدتني على تخفيف خوفي من نفسي واتّقاء برد الشتاء المؤذي.

ثم أتى أبي. سبقَته رائحة دماء العصافير الطازجة وريشها المرتعش.

أتى ليتناول الغداء. تتدلّى من خاصرته العصافير التي قتلها مرّتين، مرّة بالخردق ومرّة ذبحًا، والتي لم أعرف تقديرها يومًا. وضع «بارودة الحبّة» على «الصوفا» المرقّعة.

سارعتْ أخواتي إلى تحضير غدائه، بينما هو يغسل أصابعه من دماء العصافير وريشها. جلس يأكل بصمت ولم يعلّق على ما

Twitter: @ketab_n

بي. حين شبع وتجشّأ، سحب ورقة «سحبة» من حيث يخبّئ الأوراق التي يجلبها من بيروت. قبل أن يغادر سألني بوجه هادئ:

ـ «شو عاملة بحالك؟»

ـ «إمّي قصّت لها شعرها لأنّها مقمّلة»، قالت سعدى.

ـ «لا مش مقمّلة، قصّتو لأنو معربس»، صحّحت منال.

ـ «يلا! قد ما تمنّت تخلّف صبي الله بعتلها واحد، بس بلا حوايج!!»، قال بصوت متكاسل، ومضى بالسحبة والعصافير.

لم تكن «السحبة» تفارقه. مهنته ولقبه وملخّص حياته... ووفاته أيضًا.

يدخل إلى «القهوة» أو يجلس عند بابها، فيتقدّم الرجال منه، أو ينادونه ويعطونه نقودًا قليلة، لقاء اسم من الأسماء المدوّنة في ورقة «السحبة». حين تُشرى الأسماء يأتي وقت السحب، يقطع الورقة المغلّفة ليعرف أيّ اسم خلفها، وتكون العصافير من نصيبه.

لم تكن جائزة بسيطة، التهام العصافير شيء يقدّره معظم روّاد المقهى والعابرين به، وحتى الغرباء الذين يقصدوننا لأجل زيت الزيتون والصابون وماء الزهر...

لم يحاول يومًا التخلّص من «السحبة»، فهو يعرف أنّ اللقب سيبقى ملتصقًا به. ورثه عن أبيه، وأنا ورثته عنهما.

Twitter: @ketab_n

في كلّ مكان يعرفونني بـ «بنت السحبة»، وتُنادى عيْشة «مرت[1] السحبة» وأخواتي الخمس أيضًا «بنيّات السحبة».

أنا ابنة «السحبة» لقبًا وشكلاً. يعرفون هذا من وجهي وحاجبيّ الكثّين. ومع قصّة الشعر تلك صرت ابنه، لا ابنته فقط.

حين رأتني جدّتي في ذلك المنظر الرهيب، أشفقت لحالي. ابتعدَت عن موقد الغسيل، وسحبت بأصابعها المشحّرة بالحطب المحترق جزدانها الصغير المقشّر من «عُبّها»، وأعطتني ربع ليرة.

كانت تلك فرصة سنوات عمري الخمس.

لم تُغرني السكاكر أو الشوكولا أو المقرمشات المالحة. كانت أحلامي في مكان آخر.

المكتبة.

أمسكتُ الرُبع بوضوح وأنا أدخل إلى المكتبة، كي لا يطردني عن عتبتها كما اعتاد أن يفعل.

كنتُ أتوقّف كلّ يوم عند واجهة مكتبته، وأتأمّل الأقلام الملوّنة والقصص المصوّرة، حكايات ليلى والذئب وسندريلا والأميرة النائمة... وكان ينهرني ويطردني لأنّي أطيل الوقوف، وأحجب الرؤية عن زبائن محتملين.

لم تكن العناوين تعنيني، لأنّني لم أكن أعرف القراءة. لكنّ الأغلفة كانت كفيلة بأن تسحرني، رسوم البنات الجميلات

---

(١) زوجة.

Twitter: @ketab_n

بالفساتين الخلّابة ذات «الجيبون» الواسع والطويل، شعرهنّ الأصفر الطويل الناعم، الأمير الوسيم والقصور والمساحات الخضراء... كان حلمي شراء تلك القصص أو إحداها على الأقلّ.

اخترتُ واحدةً تتصدّرها صورةُ فتاة شقراء بفستانٍ لؤلؤي جميل، تقف فوق رأسها جنّيّة مع عصا سحريّة، تُمطرها بالزهور والنجوم!

رفعتُ الرُّبع ليرة، وسألتُ عن ثمن القصّة، لكنّ هذا لم يشفع لي.

من دون كلمة، تقدّم وصفعني. وقع الربع من يدي، أظلمت المكتبة ووجه الأميرة وانطفأ فستانها اللامع. لم أرَ رُبع الليرة برغم محاولتي البحث عنه.

ركضتُ ووقعتُ مرّات لم أُحصِها. كان شيء مجهول يؤلمني وسيؤلمني حتى اليوم. كان ذلك قبحي الذي لا يُغتفر.

لو أنّ لي مسحةً من جمالها!! كنتُ أتحسّر وأنا أراها تتهادى أمام المرآة لتتحقّق، للمرّة المليون، أنّها تشبه هند رستم، كما يقول كثيرون لها. حين تحكي لي جدّتي في حكاياتها عن الحوريّة الرائعة الجمال، لا يسعني تخيّلها إلّا نسخة عن خالتي فاطمة. كان لي تفسيري الخاصّ لجمالها. لقد «توحّمت» جدّتي على حوريّات حكايات والدها، الحكواتي النزق الخيال.

فاطمة لم تكتفِ بعلمها بجمالها، بل كانت تصدّقه كيقين وتحبّه كخلاص.

Twitter: @ketab_n

جمالها الذي تألّق وبلغ ذروته ذات يوم ربيعي لن نعرف مثل فرحته أبدًا.

كانت عيْشة وأخواتي قد استحببن جزّ شعري تسهيلاً لتسريحه، وكنتُ في طريقي إلى بيت جدّتي لأساعدها في قطف زهور النارنج مقابل قروش قليلة. عند منتصف الزقاق سمعتُ زغرودة. اقتربتُ من الباب، وأوّل ما رأيته كان وجه خالتي فاطمة المبهر والمتورّد خلف كتفيْ رجلٍ يرتدي قميصًا أزرق، ويمسك يدها ليضع خاتمًا في إصبعها. عيناها الجميلتان بدتا أجمل من أيّ يوم. اتّسعتا وبرقتا وهما تكادان تلتهمان الخاتم ويديْ صاحب القميص الأزرق.

بدت زرقة عينيها أوضح وأصفى بسبب انعكاس لون قميص الرجل عليهما، زرقة لم تتكرّر لاحقًا، وما رأيتها إلّا في لون البحر، ذات أيّام نادرة من أواخر نيسان. إلى اليوم لم تشحب تلك اللوحة الجميلة في ذاكرتي، برغم ما أعقبها من آلام ودموع.

ظهرت نسوة الحيّ فجأة بملابس البيت ومناديلهنّ غير المرتّبة.

«مبروووووك... مبروك يا حكيم... مبروك يا فاطمو... يا إمّ شبل... الله الله يا فطومو ريتك ما تبلي»...

أحطن بجدّتي التي بعد زغرودة يتيمة وقفت ساكتة، كأنّ حلم عمرها تحقّق. فاطمة خرست أيضًا، وزّعت الابتسامات المرتجفة، ولامست مرارًا قماش فستانها «الكلوش».

Twitter: @ketab_n

أنا لم أهتمّ بفستانها الذي بدا كأنّه هبط من سماء أخرى، بل بصاحب القميص ذي لون مكعّب «النيل» الذي تضعه جدّتي في الغسيل. اللون الذي يشبه آخر البحر. آخر ما يصل إليه نظري وشوقي.

اقتربتُ منه، ورأيتُه من بين أقدام الموجودين. رأيت وجهه وعينيه وشاربه الخفيف المشذّب وشممت عطره الأليف. التفت إليّ برغم ضآلتي. كان أروع ما حدث لي تلك اللفتة منه!

ترك يد عروسه الفاتنة بشعرها المتماوج بالذهب والنحاس ونزل، طاويًا ركبتيه، إلى طفلة قصيرة الشعر وقبيحة...

ـ «هيدي إنتِ يا مشاغبة؟ عم توقّعي عن الترسينة بغيابي؟»

بحث عن الندبة ليرى صنيعه. ابتسم برضا وعاد إلى خطيبته.

إنّه هو، فلا أحد يُعرف بالحكيم سواه. ولا أحد يملك هذا اللطف سواه، ولا أحد يستحقّ خالتي الجميلة سواه.

أوسم شباب القرية وأكثرهم تعلّمًا. سيصبح طبيبًا «قدّ الدنيا» بعد سنوات قليلة، كما تقول أمّه، ابنة العزّ التي يُحكى عن أنّها، بما ورثته عن أبيها، اشترت قبل عقود زوجها الوسيم. تهامست النسوة عن تغيّبها، لكنّي لم أفهم، ولم أكترث.

جلستُ متسمّرة فوق إسمنت أرض الغرفة أراقب العروسين. وزّعت جدّتي الملبّس والبقلاوة التي أحضرها والد العريس معه.

كنت أتذوّق البقلاوة للمرّة الأولى، وأشهد أوّل خطبة، وأرى ـ بوضوح ـ للمرّة الأولى الرجل الذي خاط جرحي، وأنقذني من

Twitter: @ketab_n

الموت، وترك رائحته بين غُرز عنقي.

كانت خالتي، أيّام قدوم الحكيم من روسيا، في الإجازات الصيفيّة والأعياد الطويلة، تقصد يوميًّا بيت تهاني صديقتها اللدود، لأنّ شرفة بيت تهاني مطلّة على مدخل بيت الحكيم، بعكس شرفتنا المطلّة على البحر.

لم تحبّ الصبايا التجمّع قبالة البحر حيث النسائم عليلة والمنظر خلّاب، بل كنّ يهوين شرفة تهاني، وهي كانت برغم غيظها وغيرتها تتقبّل زياراتهنّ، وتستغلّها لتبقى على الشرفة من دون أن تلفت ريبة أهلها.

تقلب تهاني شريط الكاسيت ليكرّر عبد الحليم نحيبه على حبيب ما، وتتمايل الصبايا متأثّرات بكلّ آه يقولها أو يكتمها.

راحت فاطمة تحكي لهنّ كيف أسعف الحكيم ابنة أختها، وكيف راح يأمرها بإحضار كذا وكذا، وتعقيم يديها، وتهدئة الطفلة... كنّ يسمعن ويتحسّرن لأنّهنّ لم يكنّ معها، أو مكانها، حتى إنّ إحداهنّ ضربت أخاها الصغير ـ الذي يرافقها كظلّها بتحريض من والديها ـ قائلةً له:

ـ «بيسواش توقعلك شي وقعة تفكّ رقبتك ونجيب لك الحكيم!!».

انفجرن ضاحكات، بينما الغيرة تتّقد في قلوبهنّ من فاطمة، فقد كنّ يعرفن أنّ أجملهنّ لا تنافسها، وكنّ يأملن، كلّما أتى خطيب لفاطمة، أن تقبله كي تذهب عقبة كبيرة من طريق زواجهنّ.

Twitter: @ketab_n

أبو محمود ـ والد الحكيم ـ كان له الرأي نفسه، وهو الذي أبرق لولده كي يقطع دراسته ويأتي ليشبك فاطمة بخاتم وليرة ذهب.

كان ينصب فخًّا للخُلد في تربة حديقته، عند منتصف الزقاق المفضي إلى بيت جدّتي، حين رأى أبا كامل يتقدّم حشدًا من أقاربه لطلب يد فاطمة لبكره، كامل.

لم يكن كامل مهندسًا فقط، بل كان وسيمًا أيضًا، ويملك بيتًا، ولوالده تجارة. عدّه أبو محمود منافِسًا قويًّا. هرع إلى زوجته التي كانت تعارض رغبة زوجها في مصاهرة جدّتي «غسّالة الشراشف»، كما تسمّيها، وأخبرها أنّ ابنها قد يتزوّج فتاة روسيّة «ما بنعرف قرعة راس بيْها منيْن» إذا لم نخطب له فتاة أجمل من الروسيّات، طيّبة الخُلق، ونعرفها منذ الصغر.

كانت الصفات تنطبق على خالتي.

رضيت أمّ الحكيم، لكنّها اشترطت ألّا تدوس بيت العروس أبدًا.

لا نعرف حتى اليوم إن كان «الحكيم» قد أحبّ فاطمة كما أحبّها والده وافتتن بها!

يكفي أن ترين فستان الخطبة الذي اشتراه أبو محمود لها لتعرفن هذا، بقيتُ أقولُ للجارات في سنوات لاحقة، كانت جدّتي ترفض تلميحاتي قائلة: «كان يحبّ هند رستم كتير ألله يرحمو... ليش فكرك سمّى بنتو هند؟».

Twitter: @ketab_n

أيُّ رجلٍ لم يحبّ هند رستم! معظمهم فعلوا. ولكن والد الحكيم تمنّى لنفسه عروسًا مثل التي خطبها لولده. دمامة زوجته الثريّة دليل قاطع على شكوكي. كما أنّ السرّ كلّه في الفستان «الكلوش»، كان يناسب جسد فاطمة كأنّه صُمّم لها. كيف تمكّن أبو محمود من تخمين قياس فاطمة بهذه الدقّة!

حين غادر مع العريس شيّعتُهما بنفسي، لا فقط ببصري، كما فعلتْ خالتي، التي كانت تبذل جهدًا كبيرًا كي تضبط انفعالاتها وفرحتها الكبيرة، وكي تحافظ على الصورة المكابرة التي بنَتها لنفسها أمام الجميع.

مشيتُ مع أطفال آخرين تشاجروا على حبّات «الملبّس»، ولحقوا بالعريس، علّهم يحظون بالحلوى مجدّدًا. لكنّ بيت العريس لم يوزّع الحلوى. بقي نظري معلّقًا بالقميص الأزرق حتى ابتلَعته البوّابة وثمار الأكّيدنيا المنتفخة.

دخل الحكيم مع والده وأخيه وأغلقوا بابهم، ثم علت بعض الصرخات، وشيء من الشجار، قبل أن تمرّ جدّتي قاصدة السوق لشراء ما تحتاج إليه لغداء الغد، الذي دعت عريس ابنتها إليه.

نادتني كي أرافقها وأحمل الأغراض معها.

كانت خطبة مفاجئة، لذلك لم تحضر عيْشة أو أيّ من أقاربنا. لكن خبر الخطبة سبق جدّتي إلى القرية، وليس السوق فقط. تلقّت عشرات التهاني، وحكت لكلّ من سأل حكايةَ الخطبة المستعجلة بسبب سفر العريس... كان شيء في حنجرتها يزقزق وهي تتكلّم.

Twitter: @ketab_n

اشترينا اللحم والخضر والبهارات والمكسّرات... ثم مررنا ببائعة لبن الماعز لأجل «الشُشبراك»، وكان موسمه لحسن الحظّ، والربيع موسم الطيّبات والفاكهة اللذيذة والأخرى الحامضة. كانت شجرة البرتقال المرّ التي زرعتها جدّتي أمام البيت، تتوهّج بياضًا، وعطرها يهيم في الحيّ كلّه. جميع الأشجار كانت في عرسها السنوي، كما خالتي، التي لم تجدّد مرّة موسمها، والتي، لسبب لا يزال يشغل القرية كلّها، لم تُزفّ إلى الحكيم.

* * *

Twitter: @ketab_n

أقف أمام المرآة وقد جفّ جلدي ومعظم شعري. لا أستطيع بسهولة الربط بيني وبين صورتي في المرآة. ليس وجهًا أليفًا ما أراه. قالت سهى وهي تنظّف حاجبيّ بملقط شعر رفيع وخيط، إنّ المسألة بسيطة: نرفع الحاجبين فتكبر العينان وتتّسعان، واستهجنتْ جهلي بأنّ عينيّ واسعتان!

أمسح بخار الماء عن مرآة الحمّام. أرى أنّني ما عدتُ أشبه أبي كثيرًا، وبقدر ما كنت أتمنّى هذا في فترة سابقة، إلّا أنّه يؤلمني اليوم، لأنّ أحدًا لن يذكر أبي إذا لم يره في وجهي.

كانوا يطلبون له الرحمة حين يلمسون الشبه بيننا. يقولون عنه كلمات طيّبة تكسر صمت عيْشة. لكنّي لا ألومها، بل أشعر بأنّه تعمّد ألّا يترك أثرًا خلفه، فلم أعثر له، برغم محاولاتي الكثيرة، إلّا على صورة شمسيّة مترهّلة، أحتفظُ بها في دفتر ما، وتحتفظ

Twitter: @ketab_n

هي بملامح رجلٍ هاربٍ من نفسه.

أتذكّر العصافير التي كان يُحضرها لي حيّة، لتسعدني وتشفي صحّتي المعتلّة، والتي كنتُ أجد معظمها نافقًا في الصباح. كنتُ أتّهم عيْشة من دون أدلّة. قلبي كان دليلي، تمامًا كما تقول ليلى مراد، التي تنبعث أغانيها من تلفاز صغير في دكّان عيْشة، الذي كنت مجبرةً على المكوث فيه أيّام الشتاء.

كان المطر يرقص الفالس في الخارج. كأنّ ليلى تراقص رجلاً من مطر. كنتُ أظنّ أنّ من يراقصها خلف القناع هو أبي. لم تكن للدكّان نافذة أو حتى كوّة عالية، كبقيّة المباني القديمة. لم تعرف عيْشة أنّ الدكّان هو سبب مرضي، ولستُ أنا السبب. لا ذنب لي في شيء. لا ذنب لي في نوع شعري، في صوتي المبحوح، في حاجبيّ الكثّين. لا ذنب لي في اعتلال جسمي، وفي أنّني أشبه والدي الذي تكره أن تراه أو تتذكّره، لسبب نسيَته، لأنّ أحدًا لم يسألها عنه يومًا، كأنّهم يوافقونها على كرهها ويشجّعونها عليه.

في غير الأيّام الماطرة، كنتُ أجمع الحصى الفريدة في محيط الدكّان، يقودني شغفي بلمعان رخامها بعيدًا. الحصى التي تُصدر طقطقةً رنّانة كانت تُشعرني بمرحٍ قصير. وهناك، اختبرتُ شرّ البشر المجّانيّ لأوّل مرّة، حين اقترب ولد يكبرني بثلاث سنوات وقال لي: «مسكينة، ما عندك خيّ ولا بيّ... طيّب شوفي، أنا راح فرجيكي شي ولا مرّة شفتيه». أنزل «شورته» المترهّل، فصعقتُ من الرائحة التي اجتاحتني قبل المنظر، وقبل

Twitter: @ketab_n

أن أقوم بأيّ ردّ فعل رأيتُ يدًا كبيرة تأخذ الحصى من قربي وترشق الولد بها.

كان شخصًا عابرًا، أمسكني من يدي وأعادني إلى أمّي، لم يخبرها تفاصيل ما حدث، لكنّه نهرها وأمرها ألّا تتركني وحدي.

تمنّيت لو أنّ ثمّة القليل من الودّ بيني وبين عيْشة لأسألها عن ذلك الرجل. إلى اليوم لم أعرف. حتى حين مرضَت وصارت ضعيفة لم أسألها.

لاحقًا، صرتُ أحدس باقتراب الأشرار. أشعر أنّني أشمّهم كما تشمّ القطّة رائحة سمك السردين. كانت تفوح منهم تلك الرائحة التي لا يخطئها أنفي، رائحةُ ما بين فخذيّ الطفل ذي «الشورت» المترهّل.

* * *

Twitter: @ketab_n

أدهن جسمي بزيت اللوز وأنا أعرف أنّه سيزيد تعرّقي.

أحاول تشغيل المكيّف، وأصلّي كي يعمل وإن لنصف ساعة، ريثما يأتي عامل الصيانة. لكنّه لا يعمل بالتوسّلات. أكتفي بالمروحة، وأرتمي على السرير، محتضنةً وسادتي. أشعر بغربة ووحشة. دمعة واحدة يمتصّها قطن وسادتي الأليفة. جلبتُها معي وأنا على يقين من أنّ ساعات أرقي ستكون طويلة في بيروت. حين أطمئنّ إلى ملمسها ورائحتها أتكوّر كجنين، وأقول الجملة التي اعتدتُ قولها قبل النوم:

ـ «ستّي... حكيلي حكاية».

يأتيني صوتها من خلف جدران تطهوها شمس ناقمة.

«كان يا ما كان، يا مستمعين الكلام، إسّا بنحكي وبعد شويّة بننام، كان فيه ببيت بعيييد باآآخر الضيعة هونيك واحدة ما كان

Twitter: @ketab_n

يجيها ولاد، عايشة لحالها وما عندا لا ولد ولا تلد. وبليلة القدر دعت وقالت:

ـ يا رب بعتلي ولد ربّيه وافرح فيه. بعتلي أي شي ولو دجاجة!

قام الله تقبّل منها ولاقت الصبح عبابها دجاجة حمرة! كلّ يوم بتتفرّج عالصبايا رايحين يسلّقوا[1] من الحقالي وبتتحسّر لأنّو بنتا دجاجة مش صبيّة متلن... وهونيك يوم، حملت الدجاجة سكّينة وكيس ولحقت الصبايا لتسلّق معهم. ولمّا رجعت كانت حاملة أكبر كيس وجايبة هالسلق والبقيلة والزعتر والخبّيزة... أكتر من كلّ الصبايا!! صارت كلّ يوم تروح تسلّق وترجع مبسوطة، بس بيوم من الأيّام وصلت الدجاجة عجنينة الملك، وهونيك شلجت توب الدجاج وضهرت منّو حوريّة ما شافت عين بحسنا وجمالا... الدجاجة مخبّاية بتيابها متل ما بيقولو،أتاريها أميرة جنّيّة ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ من بنات ملك الجان. كان وِجها متل فلقة القمر وشعرا ذهب وياسمين وأصابيعها متل الملبن، وكانت لابسة عشر خواتم، بكلّ إصبع خاتم شكل، وحصّو شكل، شلحتهم وحطّتهم عحفّة البركة، وغطست، وبعد شي ساعة طلعت، صارت تلبس الخواتم... بسّ لاقتهم ناقصين خاتم، صارت تعدّ أصابيعها: هيدا إلو وهيدا إلو وهيدا إلو.. بسّ هيدا ليه ما إلو؟».. رجعت تعدّ من جديد، وضلّ إصبع واحد ما إلو خاتم. سمعت حركة، لبست توب الدجاج وحملت

(١) جمع السِلق، أي ما يؤكل من نبات.

Twitter: @ketab_n

كيسها وسكّينتها ورجعت لعند إمّها... كان في حدا شايفها عند البركة وعم يراقبها وهوّي اللي أخدلها الخاتم وهوي مين؟».

أسبق جدّتي إلى الإجابة، وأنا أنظر إليها برغم العتمة: «الأمير».

لاحقًا، يحرق الأمير ثوب الدجاجة كي تبقى على صورتها الآدميّة ويتزوّجها. تمامًا كما يقتل القطّ جراء القطّة كي تتزاوج معه.

تتابع جدّتي الحكاية وتنهيها بعبارة حزينة: «قعدت ع حفّة البركة وحطّت ولادها بحضنها، وقالت لجوزها الأمير: وهلّق بخاطرك، وغطست بالمي». ولأنّها لا تنتهي بالسعادة والنعيم، أطلب حكايةً أخرى. تزجرني وتأمرني أن أردّد خلفها: «نام يا عبد الله الاتّكالُ ع الله»، فأردّد: «نام يا عبد الله اتّكالُو ع الله».

هكذا كنتُ أفهم الجملة، وأتخيّل أنّنا نطلب من الطفل الذي يُسمّى عبد الله أن ينام متّكلاً على الله. لم أعرف حينها أنّ عبد الله هو أنا، وهو جدّتي نفسها.

أنام بسرعة في فراشها. شعرها الخفيف الذي يفوح برائحة صابون الزيت والقطران، وملابسها المعطّرة بالصعتر والسمّاق والحبق، تُشعرني بالأمان، فأغفو بسرعة قبل أن تهاجمني تهديدات عيْشة وأدعيتها عليّ:

ـ «ريتني أقبرك، ريتك تعمي، عمى بقلبك».

العمى والموت، لم أعرف أيّهما أفظع. كانا شيئًا واحدًا.

يتردّد الدعاء في الوادي الصغير والساقية الجافّة طيلة الليل،

Twitter: @ketab_n

مع عواء الكلاب الضالّة وبنات آوى التي تغزو كلّ خمّ دجاج في أطراف القرية.

أسمعها تكرّر كلّما تحدّثت لأحد عنّي: «ريتها تعمى قلتلها تجيب الخبزات... بس ريتها تعمى طلعت نامت وما جابهتن... يعمي عيونها شو قاهرتني»...

لكنّ شيئًا ينتشلني من الكابوس. هل لي ملاك حارس؟ قرينة؟ عرّافة؟ أم أنا ابنة الغول، الفتاة التي ترميها أختاها في بئر الغول ليأكلها، لكنّه يتبنّاها ويُغطّسها في البركة المسحورة، فتخرج رائعة الجمال، تلمع في الشمس كقرص ذهب، ثم تتزوّج الأمير وتلدُ منه، وترث الغول بعد وفاته. تنال كلّ شيء في النهاية، حتى ما لم تكن تتمنّاه.

أنا بطلة كلّ حكاية ترويها لي جدّتي، بقيتُ أؤمن بأنّها ألّفتها لأجلي وعلى مقياسي لتواسيني، إلى أن قالت يومًا إنّها حفظت الحكايات عن والدها ـ حكواتي الحارة.

كانت تحاول أن تبرّر لأمّ حسن الفلسطينيّة الأهزوجة التي كان يردّدها أجدادها، في جنائز رجال القرية المقتولين في فلسطين، في ثلاثينيّات القرن العشرين، بدافع السرقة، والتي تقول: «يا فلسطين تنهدّي وتبقى رجالك مسودّة». كانوا معذورين في غضبهم، لأنّ خيرة رجالهم قُتلوا في فلسطين وهم يبيعون القماش، الذي ازدهرت صناعته وحياكته في القرية والشوف اللبناني ككلّ.

كانوا يحملونه من القرية إلى فلسطين والشام والأردن، ويجنون

Twitter: @ketab_n

منه ليرات ذهبيّة مؤونةَ الشتاء. والدها أيضًا حمل «البضاعة» ـ أي أثواب القماش ـ وسافر إلى فلسطين، ولكنّه نجا من قطّاع الطرق، بل هو عاد بنسخة من كتاب «ألف ليلة»، وبرغم أنّه لم يكن يجيد القراءة، قبِل الهديّة من الرجل الفلسطيني الذي لمس فيه موهبة سرد الحكايات، وهو بدوره أعطى الكتاب لأحد أقاربه المتعلّمين، ليقرأه عليه، وحفظ أبرز قصصه من القراءة الأولى.

حفظتْ جدّتي القصص عن ظهر قلب، لأنّها كانت كلّ ما منحها والدها إيّاه. حتى إنّها لم ترث أكثر ما كان يميّزه وأخوتها: طول عظام الفخذين والذراعين، من دون تناسق مع الظهر والقدمين. لاحظتُ هذا بمراقبة سلالة تلك العائلة من ذكور وإناث. طالما تصوّرت أنّ خالي «شبل» لو عاش إلى اليوم كان سيشبه إخوة جدّتي الذكور. تلك الجينة القويّة ـ العظام الطويلة ـ حملها معظم ذكور العائلة. وهي، عند أخيها الصغير تحديدًا، تُبديه غريب الشكل، إذ يبدو طول ذراعيه غير متناسق مع قامته ووسطه، تتدلّى يداه أسفل جذعه بشكل منفّر.

كنتُ أخاف منه بسبب شكله. لم أكن ـ كما اتّهمتني خالتي ـ أحدّق إليه بقلّة حياء حين يزورنا، بل كانت تخيفني عظامه الطويلة ويداه الضخمتان. كيف لم تلاحظ خالتي هذا؟ كيف لم تره يهوي بكفّه على البيضة المقليّة، ويأكل «صفارها» بلقمة واحدة؟

لو وُلِد لنا أخٌ كان سيشبه والد جدّتي وأخاها. تلك أمنية لا يتحسّر قلبي عليها لأسباب أخرى كثيرة.

* * *

Twitter: @ketab_n

طالما آمنتُ بأنّ جدّتي لا تفعل شيئًا سوى أن تحكي لي حكاياتي التي نسيتُها حين عبرتُ من زمن إلى آخر.

لحظة يُحرق الأميرُ ثوب الدجاجة يتحوّل قدره هو، وليس قدرها. فهي حوريّة مسحورة، وستستعيد خواتمها العشرة، وثوب الريش، وستجلس عند البركة نفسها، وتضع طفليها في حضنها، وتختفي في ومضة. آمنتُ طويلاً بأنّ تلك الدجاجة هي أنا، وبأنّني لا شكّ سأتحوّل إلى حوريّة ذات يوم، وسأغطس نحو عالم آخر أفضل وأرحب، وإلّا لن تكون عدالة في هذا العالم، ولن تكون جدوى للحياة نفسها.

غدًا، حين أذهب إلى مصفّف الشعر، وأرتدي الفستان الجديد، هل سأتحوّل من الدجاجة التي كنتُها طيلة ثلاثين سنة، إلى الحوريّة التي ستجلس قبالتك على المائدة، وتقدّم لك خواتمها العشرة.

Twitter: @ketab_n

غدًا ستزول لعنة رافقتني منذ الولادة، وستُشفى جروح الماضي التي لم يداوها الزمن، بل قيّحها تأجيل لقائنا واستحالته.

إن أتيتَ وحدث هذا اللقاء، هل سيكون عندي ما أعيش لأجله؟

ألستُ أغشّك إذ أخفي ماضيّ وقبحي؟ أليست خدعة حقيرة أن تراني هكذا، بينما لم أكن يومًا هذه الفتاة التي تقف في المرآة الآن.

ليس الخداع في نيّتي، ما أريده هو أن أخرج من جلدي، أن أكون شخصًا آخر، أتكلّم بطريقة جديدة وأمشي بطريقة مختلفة.

أنتعلُ «الصندل» الأبيض العالي لأكسب الطول ورشاقة القامة.

أمشي في الغرفة متخيّلة قدومك. أفتح الباب وأفسح لك لتدخل. أتعثّر ويرميني حذائي الجديد. زيت اللوز جعل تزحلقي هيّنًا.

أقع على وجهي. تمامًا كما وقعتُ في غرفتك ذات يوم بعيد، وصرت أجيد أن أحلم.

أتّصل بعامل الصيانة الذي أخذتُ رقمه من حارس العمارة، يقول إنّه سيأتي في وقت متقدّم من المساء، أو في الصباح الباكر، لأنّ لديه «كوارث» في عيادات وحضانات للأطفال، تبريره يُسكتني مع أنّه على الأرجح يكذب.

Twitter: @ketab_n

أمور كثيرة تهجس في صدري، لكنّني لا أملك سوى التحمّل.

سأسلّي نفسي بحكايات لا تقلّ قسوةً عن هذا الحرّ، من حكايتي إلى حكايات جدّتي إلى حكاية أنت بطلها. وأفكّر في أنّه الوقت المناسب لإعداد «المغلي».

* * *

Twitter: @ketab_n

لماذا لا أشعر بالراحة؟

أدور حول نفسي مرّتين، أبحث عمّا ينقصني، ثم أتذكّر.

«القمطة»[1]. لا أكون على حرّيّتي في المنزل من دونها.

بصبر المرأة القرويّة القديرة واعتدادها بما تملك، علّمتني جدّتي كيف أضع القمطة. آخذُ مربّع القماش الناعم وأطويه من وسطه، فيتحوّل إلى مثلّث، أضع قاعدته فوق جبيني، ثم أجمع طرفيه فوق رقبتي، وأعقده مرّتين. لا يمكنني تصوّر نفسي في البيت من دون هذا المنديل الصغير. يُشعرني بالراحة والطمأنينة، وبأنّني حرّة في التنقّل بين الأطباق والأطعمة، لا خوف من تساقط شعري فيها، وأنّني حفيدة بارعة، رشيقة و«ضربتي ضربة»، لا أُعيد الأمر ولا أخطئ لأصحّح. قرصُ الكبّة يستوي بين

(١) منديل صغير تقمط به المرأة شعرها.

Twitter: @ketab_n

أصابعي في أقلّ من دقيقة، و«كلّ قرص أخو التاني»، كانت تقول نسوة الحيّ متعجّبات، لا يميّزن بينها، كأنّها مسكوبة في قالب.

يسألنني كيف أفعل هذا، وكيف تعلّمت، فلا أملك إجابة، لأنّني لا أعرف القواعد.

تقول جدّتي مفاخرةً: «تعلّمت لوحدا». لكنّ الصحيح أنّهنّ علّمنني. كنت أراقبهنّ وأقلّدهنّ. أغرز المنقرة في حبّة الكوسا وبدورة واحدة أنتزع أحشاءها، تاركةً طبقةً كافية لتحمّل الأرزّ الذي سينضج داخلها. أمرّ بالسكين على الخُضَر، فأشعر بأنّها تخضع لرغبتي، وتصير ما أريدها عليه، صاغرة راضية. تقصدني بعض الجارات لأفرم لهنّ خُضَر التبّولة تحديدًا ـ يجب أن تكون ناعمة جدًّا وفي أسرع وقت ـ وهذا ما تفعله سكّيني برأيهنّ. يطلبن اقتراضها، لكنّها لا تعمل معهنّ كما تعمل معي، بل يتعجّبن كيف أشتغل بها!! نحن منسجمتان وتعرف كلّ منّا كيف تسعد الأخرى. لا أعمل إلّا بها، ولا تعمل إلّا معي.

رشاقتي في الطهو لم تأتِ بالفطرة فقط، بل تمرّنت عليها.

في ساعات هروبي من المدرسة ـ حيث تعرّضتُ لاضطهاد كاد يقودني إلى البله ـ ولأنّ بنتًا لا تقبل اللعب معي، كنتُ ألعب «بيت بيوت» وحدي، بعدما أقلعتُ عن هواية جمع الحصى للأبد. أدّعي أنّني ربّة البيت وكلّ البيوت في اللعبة. ألعب كلّ الأدوار، دوري ودور صديقات لم أحظَ بهنّ يومًا. الشيء الوحيد الذي يسلّي في لعبة البيت هذه هو الطبخ. التنظيف والكنس والمسح ليست أشياء مسلّية ولا يحدث في خلالها شيء. لا

Twitter: @ketab_n

تتجوّل مادّة إلى أخرى كما في الطبخ. كان الأمر يُذهلني وما زال. أن أرى موادَّ تُضاف تباعًا، بتوقيت معيّن وبشروط معيّنة، إلى بعض الماء والزيت وفوق بعض النار، وتتحوّل إلى إنجاز!

كنتُ أحشو أوراق التوت بالطين لأتمرّن على لفّ ورق العنب، تُسعفني أصابعي النحيلة في تحقيق رقم قياسي. أعجن الرمل وأكوّمه على شكل أقراص عجين، ثم أضغط عليها لتصير فطائر، أصنع من الطين الرخو حبّات كالباذنجان وأضعها في الشمس، حين تجفّ، أسرق منقرة جدّتي وأروح أحفرها بسرعة، لأكون أسرع واحدة في الحيّ.

أغرتني السرعة لأنّها أقرب طريق إلى قلوب النسوة. كنّ يتسابقن في إنهاء الأعمال المنزليّة، برغم أنّ شيئًا مهمًّا لا ينتظرهنّ بقيّة النهار. أردتُ أن يتحدّثن عنّي، فلا أبقى نكرة كما كنتُ بالنسبة إلى أخواتي وعيشة ومعلّمات «مدرسة البنات» والبنات كلّهنّ، حتى سلام، التي أصبحت لاحقًا رفيقتي من دون أن تصبح صديقتي.

لم أحصل على صديقة يومًا، ليس لأنّني كنت أكبر البنات في صفّي وأجلس في المقعد الأخير، وليس لأنّني فقيرة، بل لأنّني متشقّقة اليدين والقدمين، يقرفن من لمسي.

يسألنني هازئات: «معك قنّينة ماء زهر؟ بقدّيه الصابون اليوم؟».

يسخرن منّي لأنّني أجول بين البيوت، أبيع مع جدّتي ما نصنعه ونجنيه.

Twitter: @ketab_n

أدّعي عدم الاكتراث، لكنّي، حين أعود إلى البيت، أتشاجر مع جدّتي، وأحمّلها مسؤوليّة شقائي.

لكنّ الطفولة كانت أسهل ممّا تلاها. بل لعلّها كانت نزهة بالنسبة إلى سجن الأشغال الشاقّة الذي يسمّونه: «مراهقة».

حين تبقّع سروالي ومريولي بدماء دورتي الشهريّة، سدّت البنات أنوفهنّ وادّعين الغثيان. طردتني المعلّمة من الصفّ. قالت اذهبي إلى الناظرة، لكنّني لم أجرؤ.

وقفتُ عند باب المدرسة. لم أعرف كيف سأخرج هكذا.

كان المطر يتلاشى ثم يهدأ، قبل أن يعود ويشتدّ. كنتُ بائسة إلى درجة أنّي لم أكترث لآلام الحيض التي تفتك بظهري وبطني.

هل يمكنني تناسي الألم والركض قبل استئناف المطر؟

الجوّ بارد والأرض موحلة وأنا مبقّعة بالأحمر. بقيتُ أرتجف بردًا وخزيًا حتى رأتني الناظرة، وأقرضتني قميصًا طويلاً.

عدتُ إلى المدرسة بعد أسبوع من التغيّب، آملةً أن يكنّ قد نسين ما جرى. لكنّه كان شيئًا لا يُنسى.

حاولتُ التركيز والاجتهاد لأغيظهنّ، وكي لا أبقى في صفّي، وتأتي بنات أصغر منّي يعاملنني كجرثومة.

لكنّني رسبت للسنة الثانية. لم أستطع التركيز. الآن أربط الخيوط، وأفهم أنّ تبدّلات جسدي أثّرت في نفسيّتي وتركيزي، نزفي المستمرّ وبلل ملابسي وفراشي بدماء الدورة، بكائي وأنا عالقة في «بيت ألماء» أفكّر كيف أتدبّر لنفسي فوطة نظيفة... ثم

Twitter: @ketab_n

الانفجار بيني وبين عيْشة ومعركتنا الفاصلة.

لم أكن غبيّة، بل كنت أستغرق وقتًا أطول من باقي التلميذات. أرى الأمور بطريقة مختلفة.

ما كان يغيظ المعلّمات أنّني لم أتجاوز أخطائي الأولى، وبقيتُ سنة بعد سنة أخلط بين الـ ١٣ والـ ٣١، بين اليسار واليمين، بين ٢ و٦... كنّ يقلن إنّني «متنّحة» وغبيّة، وأنّني أتعمّد هذا.

الشيء الوحيد الذي كان يخفّف من ملاحقتهنّ لي هو أنّني دميمة. لا حضور لي في ساحة التنافس على جذب الإعجاب والثناء.

وحدها جدّتي لم ترني دميمة. لم تقل إنّي جميلة ولكنّها نفت أن أكون عكس ذلك.

ـ ستّي» ليش أنا هيك؟

ـ شو يعني هيك؟

ـ هيك.. وحيشة[1]..

ـ يي! ليش إنتي وحيشة؟ منين جايبة هالكلمة؟

ـ كلّن بيقولو... وأني بعرف حالي وحيشة... بس ليش ما حدا بيحبّني؟

ـ تعوا اسمعوا! يا صباح الشوم! مين بيكرهك؟

(١) قبيحة.

Twitter: @ketab_n

ـ بيكفّي بنتك بتكرهني.

ـ «بنتي؟ بنتي حمارة مش عارفة الله وين حاططها، بيكفي قاعدة بهالدكّان والزبونات بيغلبطوها وبتضلّ مكسورة... إذا بدّها تغسل بتقعد كلّ النهار بالغسلة وإذا طبخت بتحرق الطناجر... من يومها إذا بدّها تقشّر حبّة البطاطا بتشيل نصّها، وبتضلّ تنقّ، بتعتلم الواحد... الله ريّحو لبيّك لمّا أخدو لعندو... ما تردّي عليها، خليكي نايمة عندي الليلة...».

أبقى عندها، وأنام في فراشها. لا أكمل الحكاية، ليس لأنّني أحفظها، بل لأنّني متعبة من ثقل التفكير في أمّي المجهولة، التي رمتني عند باب المسجد، كما سمعتُ إحدى البنات تقول لأخواتي مرّة: «ها البنيّة مش كإنّها أختكن! من وين جايبينها؟ لاقيتوها ع باب الجامع؟»... أمّا هنّ فيقلن حين لا أخدمهنّ، إنّ متسوّلةً رمتني عند عتبة البيت، لم يستعملن كلمة لقيطة، لجهلهنّ بها، لكنّني عرفتها لاحقًا من التلفزيون.

لاحقًا أيضًا عرفتُ كم أنّي شرّيرة.

اكتشفتُ شرّ قلبي العارم يوم تعمّدتُ إحباط خطّة جارتنا زينب، التي أرادت بعد سنوات من فسخ الخطبة، الجمع بين خالتي والحكيم في لقاء يبدو لهما مصادفة. كانت زينب الوحيدة التي جرؤت على إعادة الخيوط المقطوعة، شكرانًا منها لجدّتي، «مكسورة الخاطر»، كما كانت تصفها.

بطريقة ما كسرتُ خاطر جدّتي عن آخره.

* * *

Twitter: @ketab_n

«تستمرّ موجة الحرّ المفاجئة في السيطرة على منطقة شرق حوض المتوسّط مع توقّعات بارتفاع طفيف في الساعات المقبلة... هذا ونذكّر بالخبر العاجل الذي أوردناه منذ قليل عن وقوع حرائق في عدد من الأحراج...».

قد يكون الغد أسوأ من اليوم. ربّما تمنعكَ الحرارة المرتفعة والشمس الملتهبة من الخروج من فندقك أو شقّة صديقك، ربّما يذوب الموعد ويتسرّب من ذاكرتك. أو لعلّك ذهبتَ إلى منتجع في الجبل، أو تقضي يومك في مياه البحر.

مَشاهد مرتادي شاطئ البحر في التلفاز مخيفة، كما يصف أهلنا ومعلّمات دروس الدين يوم الحشر، أشخاص كثيرون عراة... هل أنت بينهم؟

في هذا الوقت المبكر من نيسان، خرجتْ الأجسام البيضاء

Twitter: @ketab_n

إلى الشمس، واحتدمت مباراة التعرّي. مايوهات متقشّفة، تجاهر بما تحمله، وسراويل بصعوبةٍ تُخفي العانات. أغيّر القناة لأنّني أخجل حتى وأنا أشاهد وحدي، كما أخجل وأنا أمرّ أمام واجهات متاجر الملابس الداخليّة، ويحيّرني من تأتيه الجرأة ليصنع «مانيكان» عارية ويضع نقطة وسط كلّ نهد! أمضي مرتبكة في الشارع، أتعثّر بأصغر حصاة، وأسائل نفسي: «ما الفائدة من حلمة النهد للمانيكان البلاستيكيّة؟ وكيف يكون البائع رجلاً في هذه المتاجر، كيف تجرؤ امرأة على سؤاله عن ثمن سروال داخلي أو صدريّة؟ وكيف يسألها عن مقياس نهديها وتجيبه؟»...

شراء الملابس الداخليّة بقي حتى الأمس القريب محرجًا لي، لا أدخل متاجرها إلّا إذا كانت البائعة امرأة. وما كنتُ لأشتري حاجتي براحة لو لم تقُم نبيهة بتلك الفكرة العبقريّة، وتفتح محلًّا صغيرًا للملابس الداخليّة، معتمدة على فكرتي نفسها وفكرة نساء القرية وبناتها بالراحة للبائعة، كما صرن يفضّلن الطبيبات النسائيّات ومزيّنات الشعر وحتى طبيبات الأسنان.

يوم تمدّدتُ تحت سيطرة طبيب الأسنان، شعرتُ بسكّين في قلبي.

يا لهذه الورطة! فكّرتُ وأنا أحبس أنفاسي. كيف أسمح لرجل بأن يقترب منّي إلى هذا الحدّ، وتعبث أصابعه بحلقي، ويبثّ أنفاسه في جوفي! متى ستنتهي جلسة التعذيب هذه؟ هو اعتقد أنّي متشنّجة بسبب الألم، ولكن ألمي كان من نوع آخر، يصعب أن يدركه أحد.

Twitter: @ketab_n

تمنّيت يومئذٍ لو أنّ سميرة ـ كنّة أمّ نجيب ـ لم تسافر. بسفرها خسر الحيّ قالعة أسنان الحليب المجّانيّة، وخسر معارك الكنّة والحماة المشهورة بشراستها.

لم يكن هناك ما يزعج أمّ نجيب في كنّتها أكثر من سوء طبخها. في إحدى جلسات غسل الدماغ، وقبل سفر نجيب بسنة تقريبًا، لامته قائلة: «بيطلعش عبالك تاكل تبخه مش محروقة شي يوم؟ ترجع من الشغل وتلاقي الشوربة مش سايطة؟»... تهرّبَ منها مردّدًا مثلاً شعبيًّا: «ع قولة جدّي شو ما تبخِتْ العمشة جوزها بيتعشّى». اغتاظت أمّ نجيب لأنّ نجيبًا غادر ولم يسمع ردّها المفحم: «هيديك ع أيّام جدّك، كانت النسوان تعمّش بالليل. بس هلّق بسلامة الكهربا!».

لم تطُل فصول شجارات أمّ نجيب وابنها، فقد سافر إلى ألمانيا، وأرسل في طلب عائلته لاحقًا، حارمًا أجيالاً من قلع الأضراس المجّانيّ.

زوج عمّتي ضرب طبيب أسنان القرية، الذي ورث المهنة عن والده، مطهّر القرية. اشتكت عمّتي إلى زوجها أنّ طبيب الأسنان قرص خدّها، فذهب الزوج وكسر يد الطبيب. هكذا سُوّيت المسألة.

أشفقت نسوة حيّنا على الطبيب، وشهدن له «بالآدميّة» والأخلاق العالية. لكنّني لم أتعاطف مع رجل يومًا. حتى أنت، حين أتيتَ بعد وفاة والدك، ونُقل عنك أنّك حضنت صورته وبكيت متندّمًا، لأنّه مات في غيابك، لم أشفق عليك. هذا ما

Twitter: @ketab_n

أردتَه، الابتعاد عن الجميع وتحديدًا من هم بحاجة إليك.

أذكر جيّدًا ما هم عليه الرجال حين أرى بطّيخة أو أشمّ رائحتها. حين كنتُ، ذات أمسية صيفيّة قائظة، أحصّل نقودًا لجدّتي عند إحدى العائلات التي تسكن في المربّع الأقدم من القرية. أحضرَت فريدة، ابنة العائلة الكبرى بطّيخة مستطيلة، وشقّتها إلى نصفين، أو لعلّها غرزت السكّين فقط، إذ بدا لي أنّ البطّيخة انشقّت وحدها. راحت تقطع «شوابير» البطّيخ متعمّدة ألّا تقرب قلب البطّيخة، وهو بقي في النهاية وحده، كأنّه قلبُ زهرة فقدت تويجاتها. حينئذٍ نادت والدها: «بيّي تعا كول بتّيخ».

أتى الوالد ولم يعرني اهتمامًا، انحنى فوق قلب البطّيخة، وراح يأكلها غير آبه لعصيرها وهو يسيل من كوعيه.

ذاك والدٌ يحبّ قلب البطّيخة ولا يأكل غيره، وعلى عائلته ترك القلب السكّري واللذيذ له من دون سؤال. ربّما لاحظت فريدة نظراتي المستهجنة، فأعطتني المال و«شابورة» لأنصرف.

* * *

Twitter: @ketab_n

جدول درجات الحرارة على شاشة التلفاز يشير إلى ٣٩ القصوى في الغد. حرارة تُسجّل للمرّة الأولى منذ عقود في مثل هذا الوقت من السنة.

غدًا ٣٩.

غدًا. «أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غدي/ يا لشوقي واحتراقي/ في انتظار الموعدِ». . . أرفع صوت «سومة»، بينما أعدّ لك العشاء، الذي سيخبرك من أنا، وما حكايتي وفيما أمضيتُ عمري.

سأحكي من دون كلمة، بل سأترك سرد حكايتي لبضعة أطباق، هي الشيء الوحيد الذي أتقنته في حياتي.

يتردّد رنين الهاتف الجوّال للمرّة الأولى في هذه الشقّة.

من قد يكون؟

Twitter: @ketab_n

الناطور أم مصلِّح المكيّف؟ أم أنت؟

أنظر إلى الشاشة المضيئة فأرى رقمًا لم أتمنّ يومًا رؤيته. رقم أختي سعدى. أعرف أنّ عيْشة تقيم عندها منذ مرضَتْ، وأعرف أنّ الاتّصال لأجل شيء تريده عيْشة. أحاول التهرّب. أبتعد عن الهاتف، ولكنّ الرنين لا يتوقّف، بل يصبح عواءً يرعبني. أُخفي الهاتف تحت وسائد الصالة، ليس جُبنًا، بل لأنّني ادّعيت السفر إلى الشام، فكيف أردّ والمفروض ألّا يكون عندي إرسال.

يختفي الرنين. فتهدأ خفقات قلبي. ثم تصل رسالة. أفهم أنّ سعدى يئست من الاتّصال فتركت رسالة.

أنتشل الهاتف من تحت الوسائد وأفتح الرسالة.

...

هذا تحديدًا ما خفتُ منه. اقتلاعي من واحة سعادتي. شطرُ قلبي كبطّيخة طازجة. لم يتطلّب الأمر سوى غرزة سكّين بيد سعدى.

عيشة تحتضر وطلبت أن تراني. كم هو سخيف الوحش الذي يتحوّل شابًّا رومانسيًّا رقيقًا في سرير الموت.

يجب أن تُجرى لها عمليّة لاستئصال الورم الخبيث اليوم، وفرص النجاة أقلّ من فرص الموت. عليّ أن أذهب حالاًّ إلى مستشفى في صيدا، حيث سيتقرّر إن كانت عيْشة ستستيقظ ثانية، أم ستنام إلى الأبد، وتأخذ معها ماضينا المؤلم. عليّ أن أذهب

Twitter: @ketab_n

لألقي نظرة الوداع، أو لتلقي هي كلمات انتظرَت ٣٠ عامًا لتقولها.

لا لا لا. أنفض الأفكار من رأسي.

لن أسمح للحظة عابرة أن تمحو عمري. هذا ليس عادلاً. لن تطلب عيْشة منّي الغفران ولن أسامحها. هذا ليس خيارًا أو شيئًا يمكنني منحه.

ستموت.

ألا أشعر بالحزن؟

لا أعرف.

مؤكّد أنّي لست سعيدة. لم أفرح يومًا بمرضها منذ اكتشفناه قبل سنتين. ولكنّني أشعر بغيظ حارق. انتظرتْ سنتين حتى تعكّر صفو أهمّ لحظة في حياتي. تعمّدتْ إفساد احتمال سعادتي.

هل سأتركها تموت وحدها؟ ألن أشعر بالندم؟

ألا يمكن تأجيل هذه الوليمة إلى وقت آخر؟ لا تموت الأمّ سوى مرّة واحدة. وقد اختارت عيْشة موعدًا مصيريًّا لتموت، اختارت الموعد نفسه الذي اخترتُه أنا لأعيش.

لا عجب، فنحن لم نلتقِ على شيء يومًا!

* * *

Twitter: @ketab_n

أنظر إلى المزيج القرفيّ اللون وهو يغلي، وأبحث عن ذاك المشهد الذي يحاول دومًا الفرار منّي. إنّه طوق نجاتي، فلماذا يتعمّد الغرق؟ لماذا يريدني أن أنساه، ألهثُ خلفه وألتقطه.

إنّه بلسم ضميري الوحيد.

أرتاح حين أذكّر نفسي أنّ اللقاء بين فاطمة والحكيم حدث بعد خطّة زينب التي أجهضتُها أنا عمدًا.

كنتُ عند سلام، أجلسُ في نافذة المطبخ، وأحرّك «المفتّقة» التي تغلي فوق موقد الغاز. كان يومًا ربيعيًّا مزعجًا، وغبار الطلع يثقل هواء الزقاق، ويسبّب العطس للأنوف والحكاك للبشرات الرقيقة.

ظهر الحكيم في الزقاق، فسقطت المغرفة من يدي.

مشى نحو بيت أهله. في الاتّجاه المعاكس ظهرت خالتي.

Twitter: @ketab_n

توقّفا. مثلهما توقّف قلبي.

بدت تلك اللحظة دهرًا من الحبّ والحقد والألم.

مدّ يده نحوها، فانتفضت كأنّها تلقّت صعقة كهربائيّة.

اندفعَتْ في طريقها بخطوات حانقة. تركت خلفها رجلاً من الماضي لتتعثّر برجل آخر سيقذفها نحو مستقبل معتم.

قدّرتُ لاحقًا تلك اللحظة، لأنّها كانت الوحيدة التي تجمعنا وحدنا، نحن الثلاثة. وبينما كان لهما أن يظنّا أنّها لحظتهما الفريدة والتراجيديّة معًا، كنتُ أنا هناك، أعكّر صفو هذه الفكرة عليهما.

حاولتُ إراحة ضميري. لو كان للقائهما أن يصلح بينهما لفعل ذاك اليوم، وليس بالضرورة عند زينب. ولكن، أيّ طفل كان له أن يصدّق هذا الافتراض الواهن؟

احترق قعر طنجرة «المفتّقة» يومذاك. ندبت أمّ سلام حظّها مردّدة: «جبنا الأقرع ليونّسنا!!!» وتقصدني أنا بالأقرع.

كانت أشياء أخرى تحترق ذاك اليوم. بقيتُ أشمّ رائحة حريق الأرزّ والكركم كلّما استسلمتْ خالتي لشرودها، أو قطعَت صمتها قشعريرةٌ أو ارتعاشة، ورائحة شواء قلبٍ رمى نفسه في موقدٍ متّقد.

* * *

Twitter: @ketab_n

أُعيد دهن جسمي بزيت اللوز، أحمل عصارة اللوز لأبلّل بها عطش مسامّي، وأدلّل بها جلدي الجافّ. أريدك أن تعثر على كلّ الحنان الذي أدّخره لك حين تصافحني.

ملمس جلدي مريح، يذكّرني بلحظة السعادة التي تغمرني كلّما نزعتُ وبرَهُ بحلاوة السكّر، ليس بسبب السكّر فقط بل نقاط الليمون التي نُضيفها إلى الحلاوة.

حين صنعتُها أمس، شعرتُ بأنّني نسيتُ المقادير. منذ وصولي إلى بيروت وأنا مرتبكة. لا أملك ذكرياتٍ هنا، ولن أملك أحلامًا. حتى إنّي نسيتُ مشيتي. حاولتُ أن أخترع لنفسي مشيةً جديدة توحي بالثقة، لكنّ النتيجة أتت عكسيّة، صرتُ أتعثّر بغبار الأرصفة.

كانت تلك المرّة المليون التي أصنع فيها الحلاوة. لكنّني ارتبكتُ.

Twitter: @ketab_n

ارتبكتُ كما لم أرتبك أوّل مرّة صنعتها، برغم حضور نسوة الحيّ.

المرّة الأولى لا تُنسى. في كلّ شيء، حتى صنع حلاوة من السكّر والماء وقطرتَي ليمون وقليل من اللُعاب.

كانت حفيدة أمّ نجيب قد أفسدت الحلاوة، وفاحت رائحة السكّر المحروق في المكان. ضحكَتْ النسوةُ منها وشاركتُهنّ، أعجبني أن أكون الساخرة. شعرتُ بأنّي أُشبه بنات المدرسة الساخرات منّي، حتى إنّي مشيتُ مثلهنّ بشرٍّ وثقة، وقمتُ بنشاط لم يبدُ أنّني أخزّنه في جلستي الصامتة، لأصلح الحلاوة.

كنتُ في العاشرة من عمري. ذاع خبر براعتي في صُنع الحلاوة، وصارت نساء الحيّ يقصدنني لأصنعها لهنّ. كنّ يفردنها فوق أرجلهنّ وأذرعهنّ بإعجاب وسعادة، يقلن إنّها تمامًا كما يجب أن تكون، شقراء تلمع، طريّة من دون أن تلتصق بالجلد أو تذوب بسرعة.

عشيّة عيدَي الأضحى والفطر والأعراس، كنتُ أفرحُ لأنّ كثيرات سيحتجن إليّ، ويطلبن ذهابي إليهنّ. لم أكن أحبّ بيوت الآخرين، لكنّي كنتُ أحبّ أن تحتاج النسوة إليّ ويطلبن أن أصنع لهنّ الحلاوة.

لبّيتُ الدعوة كيفما كانت الظروف، حتى إنّي تشاجرتُ مع جدّتي مرّة، حين صادف عيد الأضحى يومًا عاصفًا. نصحتني ألّا أخرج، وحين لم أستجب صاحت بي: «اللي قابر إمّو وبيّو ما بيضهر بها الطقس... شو طالعلك من العئيدة[1]؟ إذا سختني مين

(١) الحلاوة.

Twitter: @ketab_n

بدّو يقوم فيكي؟ أني ضهري بيوجعني ومش قدّ المستشفايات!!».

لكنّني خرجتُ، وطبختُ الحلاوة لبنات الحاجّة حمدة، وسمعتُ ثرثرتهنّ وتعليقاتهنّ الملغومة بكلمات السرّ. عدتُ ببعض الحلوى وفستان استغنَتْ الحاجّة عنه. لم أتبيّن لونَه الأصلي، مرور الوقت حوّله إلى رمادي. كان قماشه خفيفًا وله رائحة النفتالين. لم أعتب لأنّها أعطتني فستانًا صيفيًّا في عزّ الشتاء، بل لأنّها قالت وهي ترميه في حضني: «خدي هاد... كان بدّي كبّو».

برغم ألمي، لم أجرؤ على ترك الفستان، بل خرجت به.

رميتُه أمام عتبة بيت جدّتي، وجفّفت قدميّ به، ثم دخلت. أجزم أنّي لو لم أفعل هذا لما تمكّنت من النوم تلك الليلة.

في الصباح التالي، فضفضتُ لجدّتي. لم تعلّق على حقارة الحاجّة حمدة، بل كان بالها في مكان آخر: «هيدي ما بتطلع عن شعر طيزا!! كيف عطتك فستان؟! هاتيه، أني بغسلو وبلبسو، وإذا حطّيتيه ع العتبة؟؟ شو بيساير! بعكّو ع إيدي زوم وبلبسو».

ابتسمتُ لطرافتها ولفكرةٍ شرّيرة عنّت لي. في المرّة التالية، حين سأصنع لبنات الحجّة حمدة الحلاوة، سأبصقُ فيها سرًّا، وأضحك في قلبي وأنا أراهنّ يمضغنها بعد إضافة السمسم، ويمدحن «السمسميّة» التي أصنعُها.

لم يمض شهر حتى صارت فكرتي واقعًا. وصارت تنتابني نوبات ضحك كلّما رأيت جدّتي مرتديةً ذاك الفستان.

* * *

Twitter: @ketab_n

فلتعذرني مقلّمة الأظافر، لكنّني لا أُجيد العمل بالقفّاز، ولتذهب الأظافر المطليّة إلى الجحيم، وإن كانت على الطريقة الفرنسيّة.

«فرنش؟» سألتني، لم أفهم لكنّني هززت رأسي بالإيجاب، وانتظرتُ معرفة ما هو «الفرنش». تبيّن أنّه الأكثر أناقة ورهافة. أحببته لأنّه تطلّب دقّة ووقتًا أطول، كالطبخة القديرة.

يغرق «الفرنش» الأبيض في التربة الحمراء، وأنا أسوّيها حول جذوع نبتات الحبق والنعناع التي سأقطف بعض أوراقها للكبّة النيئة غدًا، أرويها كلّ ساعتين كي لا تذبل.

فكرةُ نقلها من الشرفة إلى الصالة كانت مذهلة، إذ فاحت روائحها في المكان. تعمّدتُ تغيير رائحة الشقّة، فنثرتُ بعض الصعتر في مناديل وزّعتها في الزوايا، وفناجين وضعتُ فيها

Twitter: @ketab_n

«المازهر». أردتُ التخلّص من رائحة البيت التي كانت لبشرٍ لا أعرفهم، علّني آلف هذا المكان الذي سيستقبلك غدًا. غدًا. آه يا سومة! لو أنّ الغد لا يأتي كي أبقى أحلم بقدومه!

* * *

Twitter: @ketab_n

«لو أنّ الغد لا يأتي كي أبقى أحلم بقدومه»، دوّنت في دفتري الخاصّ الذي أضعه دومًا في المطبخ.

كنت أؤمن بأنّ أفكارًا عظيمة تأتيني وأنا أطبخ.

كلّما خطرت لي فكرة وعدتُ نفسي بتدوينها حين أنتهي. لكنّها سرعان ما تتبخّر من رأسي! لذلك قرّرتُ إبقاء دفتر وقلم في المطبخ كمسوّدة، على أن أنقل أفكاري إلى دفتر نظيف ومرتّب لاحقًا. ليس عجبًا أنّني لم أنقل من هذا الدفتر المبقّع بالزيت والصلصة جملةً واحدة مفيدة، فلو كانت تلك الأفكار عظيمة فعلاً لما نسيتُها.

في الثالثة عشرة من عمري، كتبتُ أوّل قصيدة في المطبخ، ودوّنتها قبل تجفيف يديّ: نعم أحبّك نعم... أحبّك بنهم ولا أخجل من قول نعم، نعم أحبّك نعم.

Twitter: @ketab_n

طبعًا أخجل الآن من ذاك الهراء، لكنّه شِعرُ مراهقة على كلّ حال. أخجل من أشياء كثيرة، ربّما من كلّ شيء، من ذاك الكائن الذي كان يعبر من الطفولة إلى المراهقة بذعر وخزي. لا أملك حبس دموعي حين أذكر مراهقتي. وبعد مرور سنوات، أجزم أنّك الشيء الوحيد الجميل الذي حدث لي في المراهقة، واتّضح أنّه ليس محض طيش ونزق، لأنّه عاش حتى الساعة، وبفضله اتّخذت أصعب قرار، ورميت خلف ظهري كلّ ما تربّيت على الخوف منه، من نار جهنّم ونيران القبر إلى جمر الخيانة.

* * *

Twitter: @ketab_n

سيهبط الليل قريبًا، اللحظة التي تسبقه تُشعرني بالرهبة. أتوجّس من شرّ قادم.

منذ تعلّمت الكلام، علّموني المعوّذتين، أقرأهما قبل مغيب الشمس.

لم يخيفونا من الليل إلّا لأنّه كان في هواجسهم مسرح المحرّمات. هذا قبل أن تتكشّف فضائح أخلاقيّة حدثت في وضح النهار، ليس أقلّها زنى المحارم والشذوذ وجرائم القتل... من عرفوا بها أخفوها وتناسوها كي تصبح خرافة. لكنّ هذا لم ينجح يومًا. معظم القصص الصادمة، التي تتباهى القنوات التلفزيونيّة بكشف غرابتها، لها قصص شبيهة هنا. تحدث الآن كما حدثت منذ زمن بعيد.

كانت «عيشة» تمنع أخواتي من الخروج ليلاً، حتى لرمي

Twitter: @ketab_n

القمامة، تتعلّل بقول رائج: «رمي الزبالة بالليل بيقطع الرزقة من البيت». عرفتُ أنّها تتعلّل، لأنّ بيتنا كان مجرّدًا من أيّ «رزقة». وكانت جدّتي تحكي عن بُنيّة أكلها الذئب وجدّتها لأنّها في مشوارها ـ من دون مرافق كبير ـ خالفت أوامر أهلها بتجنّب الكلام مع الغرباء الأشرار. ويحكي العجائز عن الجنّيات اللواتي يسرحن في الليل، يغنّين ويرقصن ويلاحقن الرجال ليغرموا بهنّ.

وقتُ الغروب هو وقتُ انطلاق الجان من مساكنهم الخفيّة.

كان ابن أختي يبكي بهستيريّة كلّ غروب وهو بعد في شهره الثاني، ذُعرَتْ واستنجدَت بجدّتي، فطمأنَتها إلى أنّ الأمر طبيعي، فهذا وقت مرور الجان «بسم الله الرحمٰن الرحيم». يخرجون مع بدء الليل، لأنّهم أسياده، ونحن علينا تركه لهم.

محظور علينا، نحن البنات، الخروج وحيدات، لأنّ وحشًا منتصبًا على قائمتين سيلتهمنا، أو لأنّ الجان سيمسّوننا. التربية المسيحيّة أرحم، فقد أخبرتني زميلة مسيحيّة في الاستهلاكيّة، أنّ ذروة نشاط الشياطين والأرواح عندهم هي الثالثة فجرًا. مازحتُها: «يعني فيكي ترجعي الساعة تنين عالبيت وما حدا بيقلّك كلمة». ضحكَت سعيدة بهذه الرفاهيّة.

في ليالي مبيتي مع عيْشة لم أكن أنام. كنت أخشى الكابوس، ولم تكن هنا كحكايات تُنعسني.

حين تسطع الشمس وتستيقظ أخواتي، أدير ظهري للجميع وأحدّق إلى الحائط الكلسيّ، وأنا أتمنّى أن تخرج عيْشة إلى الدكّان من دون أن أراها، كأنّني مذنبة تخشى المحاكمة.

Twitter: @ketab_n

الآن أعرف ذنبي: الكراهيّة.

لم تكن تنظر في عينيّ وهي تكلّمني. تبحث عن أيّ شيء تنظر إليه بدلاً منّي.

حين نكون متجاورتين، تنظر إليّ من طرف عينها، تراقبني، تتفحّصني، تنتظر أقلّ هفوة أو حركة لتهاجمني.

أتذرّع بالطهو. أشعل النار وأعدّ أوّل طبخة تخطر لي. أشعر حين يجمعنا مكان واحد بثقل الهواء وموت الوقت، أتخيّل أشخاصًا كثيرين يتشاجرون ويتعاركون في الفراغ الذي يحيط بنا، وفي الهواء المثقل بالكلمات البذيئة التي يتقاذفونها. لذلك أتحاشى أن أكون معها في مكان واحد.

أسرح في النار التي تُنضج الطعام وأسأل نفسي: لماذا لا تنظر في عينيّ؟ ولماذا تتمنّى لي العمى؟

للسؤالين إجابة واحدة، أو أنّ أحدهما إجابة الآخر:

تمنّت لي العمى كي لا أنظر في عينيها. كانت تُخفي شيئًا فيهما، شيئًا فظيعًا، ربّما تريد اليوم الاعتراف به!

تؤلم النار عينيّ فأغمضهما.

برغم محاولات ترهيبنا بالنار كأقصى عقاب، إلّا أنّني لم أكرهها يومًا.

أحبّ النار وهي تحوّل ما في الطنجرة إلى شيء يساوي السعادة.

Twitter: @ketab_n

يُشعل البشر النار ويدورون حولها ويحتفلون، لكنّهم ما وضعوا أبدًا قالب ثلج وداروا حوله أو ابتسموا له، حتى في قيظ الصيف. الثلج لا قلب له. لكنّ الأمر بسيط، ولا نحتاج قراءة الكتب لفهمه.

قرأتُ الكثير من الكتب لأفهم أنّ الأنبياء الذين وُجدوا في الصحاري صوّروا جهنّم على صورة النار، ولو ظهرت تلك الديانات في القُطب المتجمّد لصوّرت الجحيم على شكل جليد وثلج.

قبل قراءة تلك الكتب، كنت أسائل نفسي لمَ على الله أن يخنقنا ويشوينا؟ ألا يرأف بنا فلا يشوينا ونحن أحياء؟ أم يخنقنا تارة ويحيينا ثم يشوينا؟ سألتُ معلّمة الدين مرّة، فقالت إنّ الاحتمال الثاني هو الصحيح، إنّ الله يعطينا جلودًا جديدة كلّما ذابت جلودنا، لنحترق مرّة بعد مرّة إلى أبد الآبدين.

صحيح أنّني لم أنمْ ليلتين بعد حديث المعلّمة ذاك، وما عدتُ أسألها عن الأمر، لكنّ جدّتي قالت إنّني إذا استغفرتُ الله سيسامحني لأنّه غفور رحيم.

هذا كلّ ما تعرفه جدّتي عن العقاب والثواب، وكلّ ما تحتاج إلى معرفته عن الله. الغفران والرحمة. لكن، برغم طمأنتها لي، لم تكن تتردّد في تهديدي إثر أقلّ خطأ أرتكبه: «الله بيخنقك».

«الله بيخنقك إذا رميتي الخبز، الله بيخنقك إذا قلبتي الصرماية، الله بيخنقك إذا لعبتي مع الصبيان، الله بيخنقك إذا وسّختي العجين... الله بيخنقك إذا رميتي الخبز بالزبالة». كان

Twitter: @ketab_n

علينا أكل الخبز حتى لو كان جافًّا، أمّا إذا تعفّن فعلينا إعطاؤه للدجاجات بعد تقبيله ورفعه إلى جباهنا مرارًا واستغفارًا. رميه في القمامة كان كُفرًا بالنعمة.

في الليل، حين يتردّد صوت بنات آوى، أخشى أن تمتدّ يد الله وتخنقني. أُخفي رقبتي بين كتفيّ، وأشعر أنّني أختنق، فأتمنّى لو يمهلني دقيقةً لأقول له: ليس بيدك يا الله... ليس بيدك... لا تخنقني بيدك... إنّي أموت خوفًا من فكرة خنقك لي، دعني، وأنا سأموت من خوفي منك... دعني وسأموت وحدي، ولا تعميني كما تطلب منك عيْشة، لأنّني أخاف من العتمة.

حين وقعتْ بنتُ الغول في البئر لم ترَ خيال إصبعها. تلمّستْ الجدران الرطبة، وكاد يُغمى عليها. كما حدث معي حين وقعتُ في غرفتك التي يُقال إنّها بُنيت فوق بئر بيتكم، وهذه ليست مصادفة، بل دليلاً على أنّنا كنّا معًا في نسخة ما من تلك الحكاية. وصلتْ إلى قصر الغول، واختبأتْ رُعبًا منه، لكنّه حين عطس أفزعها، صاحت: «يا بيّي!!»، فظنّ أنّه رُزق ابنةً. تبنّاها وأعطاها مفاتيح تسعٍ وتسعين غرفة من غرف قصره المئة.

تغيّرت حياة الغول، فالغيلان أيضًا تتوق إلى سببٍ تستيقظ لأجله. صار يذهب في رحلات صيده نشيطًا، ويعود حاملاً على كتفه بقرة منتفخة الضرع، أو شجرة بجذورها، يقدّمها هديّة لابنته، التي نبتت كالكمأة من برق السماء المرتعبة لوصوله. أمّا هدف «بنت الغول» فكانت لك الغرفة المحظورة. بعد صراع مرّ قرّرت دخولها... ودخلت. رأت ما لم تتوقّعه. بركة ليس لأفقها

Twitter: @ketab_n

حدّ أو لعمقها بُعد. غطّست سبّابتها في مياهها الذهبيّة، فتحوّلت إلى قطعة ذهب قاسية. وحين عرف الغول لم يغضب، بل غطّس ابنته في البركة. فصارت حين تغزل الصوف في الشرفة تستحي الشمس منها، وتسارع إلى الاختباء خلف أقرب غيمة...

* * *

Twitter: @ketab_n

أجلسُ على المجلى لأحرّك خلطة الأرزّ الناعم والسكّر بالقرفة والكراوية، والتي تستغرق أربع ساعات كاملة، ليتحوّل هذا المزيج إلى شيء نادر في جنّة المذاقات.

أربع ساعات من الغلي أعطت هذا الطبق اسمه: المغلي. رفيق خصوبة النساء وإحدى حميميّات عالمهنّ.

أربع ساعات هي شيء في العمر، ليست ساعة ونصف ساعة، إنّها مدّة لا بأس بها، ثلث النهار، وبالنسبة إلى من يطهو هي عمل مضنٍ لا يفوقه سوى «المفتّقة»، التي تستغرق ستّ ساعات، وتقول جدّتي ـ التي لم تحبّها يومًا ـ إنّها سُمّيت بهذا الاسم لأنّها تفتق الضلوع لكثرة التحريك، لكنّي رأيت أنّ السبب في الطبق نفسه، فقد كان خليط المفتّقة في مراحله الأخيرة يتفتّق عن بعضه كأنّه قُطب قماش، وكان هذا دلالة نضجها التامّ.

Twitter: @ketab_n

سلني لماذا اخترعت النسوة هذه الطبخات الطويلة. سلْ لأجيبك.

لو أنّك معي الآن كنت لأخبرك التالي:

لم يخترعنها لأنّهنّ ـ كما يروّج الرجال ـ كنّ يملكن كلّ الوقت، بل كنّ مشغولات كلّ الوقت، يقمن بكلّ شيء بأنفسهنّ، من الخبز إلى الخياطة إلى تربية الدواجن إلى تجفيف المأكولات... وكنّ يلِدن كثيرًا ويعتنين بالكثير من الأبناء.

لم يقُمن بهذا لأنهنّ كنّ مرتاحات، بل ليُثبتن عبرها حبّهنّ لمن سيأكل ومن يزوره، للمرأة التي ولدَت توًّا، ولمهنّئيها.

عرفن منذ أزمنة أنّ القرفة والمكسّرات مثاليّة لدرّ الحليب.

«القرفة بتحنّن الصدر»، كانت جدّتي تقول لإحدى أخواتي التي تأخّر حليب صدرها. القرفة تجعل الثدي يفيض بالحليب، وتداوي الرحم بعد معاناته. وجبة مثاليّة لتستعيد المرأة الخارجة بسلامة من بين يدي الله قوّتها، وتستعيد الرحم مكانها الأوّل وحجمها الطبيعي، وتستعدّ لتعشّش بويضة جديدة فيها.

لمَ لا؟! ألم تكن النسوة وبعد فترة قليلة على إنجاب واحدة منهنّ يسألنها: «مش حبلى ع راسو؟».

كان فعل حبّ مواربًا. يتركن حلاوة المذاق والإسراف في المكسّرات الثمينة يوصلان رسائل قلوبهنّ، لأنّهنّ تربّين على إخفاء مشاعرهنّ وإنكار غرائزهنّ، حتى إنّهنّ حُرِمن القراءةَ زمنًا كي لا يكتبن رسائل الغرام لعشّاقهنّ المتوقّعين.

Twitter: @ketab_n

ليس الرجال وحدهم من حرموا البنات التعليم لأجل هذا السبب، بل الأمّهات والجدّات أيضًا. خسارة أنّ النساء تعلّمن لاحقًا وكتبن الرسائل! كنّ ليبتكرنّ طرقًا فريدة للبوح، ويطوّرن الطبخ والحلويات، ويلهمنني بطرق فريدة لبثّ لواعج حبّي في هذه اللحظة الصعبة التي أعيشها. لا عجب من أنّ مطبخنا بقي حيث هو، وأنّ أطباقنا بقيت نفسها من الأجداد إلى الأحفاد... وصولاً إليّ.

ترنّ كلمتا «بيتسا» و«همبورغر» في أذنيّ كلّما نطقَتها امرأة. ستبقى الوجبتان جديدتين، بل دخيلتين على عالمهنّ. لا يبذلن جهدًا لتصحيح لفظهما.

أستعيد رفض جدّتي لهما بكلمات مثل: «شو هالإختراع!!»، فأخفّف عنها: «البيتزا منقوشة بجبنة، بس زايدين عليها زيتون وبندورة وخضرة، والهمبرغر سندويشة لحمة مدوّرة. هاي كلّ القصّة... لا إختراع ولا شي».

«طيّب دوّقيني شويّة لشوف». تتذوّق فتعجبها البيتزا، ولكنّها تبقى متحفّظة: «ما في متل أكلنا، شو بدّي بالحكي!».

عاش الفلسطينيّون معنا دهرًا، لكن ملوخيّتهم لم تدخل بيوتنا، بل بقينا نسمّيها بتعفّف «سايطة»، ولم نستعذب «المسخّن» بحجّة أنّه يهدر مؤونتنا من السمّاق! ساكنّاهم وصاهرناهم، لكنّ الطبخ شيء آخر. ليس الأمر تعاليًا أو عنصريّة، بل لعلّه مسألة توقيت. فقد ساكنونا أواسط القرن العشرين، وذاك زمن تكاسلنا عن الاجتهاد والتطوير. ربّما دخلت النكسات والهزائم إلى

Twitter: @ketab_n

المطابخ، وجعلت التفنّن في الطبخ رفاهية لا تجرؤ النسوة عليها. وأكيد أنّ الحرب قتلت شهيّة الابتكار وسنّة التجديد، فحاول المهاجرون منّا موازنة المسألة، واهتمّوا في مهاجرهم بطبخات الوطن المحترق.

كانت ماري ـ حين تزور جدّتي ـ تُرينا صور عائلتها وابنتها كارين وصهرها الأسترالي، وهي بمعظمها أُخذت حول موائد وأطباق لبنانيّة. تعلّق ماري أنّ صهرها يعشق الأكل اللبناني الذي تعدّه، ويتحوّل إلى طفل شره وهو يلوّث أصابعه بزيت ورق العنب.

ماري استهجنت أن تزوّج أختُ جدّتي ابنتها لشابٍّ فلسطيني. ليس لأنّها مسيحيّة، فكثيرون من المسلمين استهجنوا، بل لأنّ أطفال تلك الفتاة سيصبحون فلسطينيين في بلد لا يمنحهم حقوقًا مدنيّة. لكن، حتى هذا السبب المصيري، لم يمنع مصاهرات كهذه في قريتنا المتسامحة مع الغرباء وعابري الطريق، ربّما لأنّ أجدادنا كانوا باعةً متجوّلين، ويعرفون ماذا يعني «عبور السبل»، وربّما لأنّهم باكرًا جدًّا عرفوا أنّهم حتى في بيوتهم وأراضيهم ليسوا سوى ضيوفٍ وزائرين.

تعود ماري إلى إطراء سرعتي في لفّ السلق الذي ستأخذه معها إلى أستراليا.

أفكّر وأنا أصفّ الأرزّ والبندورة والبقدونس والبصل في منتصف ورقة السلق أنّ ماري لا تذكر حلوى «أولا لا» ولا تلفزيون لبنان، تؤكّد أفكاري حين تتحدّث عن برامج «أل بي سي»

Twitter: @ketab_n

التي تفتنها، تحديدًا المسلسلات المكسيكيّة.

اعتقدتُ أنّ أصابعي الطويلة بشعة، من امتدحها امتدح براعتها وسرعتها وليس جمالها. لكنّ ماري أثنت عليها قائلةً: «كنتِ بتطلعي عازفة بيانو... لو»...

لم تكمل. لو ماذا؟

لم أعرف أنّ أصابعي قد تثير اهتمام امرأة مثل ماري. نساء حيّنا كنّ يمتدحن رشاقتي في لفّ ورق العنب ومحشي الملفوف والسلق... إلّا أنّهنّ لم يربطن يومًا بينها وبين البيانو. ما كان للبيانو أن يخطر ببالهنّ أو تمرّ سيرته في زقاقنا. لولا أغنيات الأفلام مثل «قلبي ومفتاحو» و«أهواك»، ما كان لنا أن نعلم بوجود البيانو.

الماء والملح والثوم ومساحيق التنظيف وأعمال الحقول والعمل في المصنع جعلت أصابعي تقسو. حين أكتب أشعر بها تخدش الورق. جميع رسائلي مجروحة ببشرةٍ آلمتها الأيّام.

كما كانت أصابعي تبقى مرّة المذاق أيّامًا طويلة، في الربيع موسم قطاف زهور النرنج، وحتى حين توقّفت عن قطفها وصُنع ماء الزهر، بقيت المرارة تزور أصابعي كلّ موسم.

ما كنت سأنتبه لتبدّل أصابعي لو لم أكتب الرسائل، وما كنتُ سأكتب الرسائل لولاك.

أفتحُ دفتري حيث أطوي الرسائل، وآخذ الرسالة الأولى التي كتبتُها إليك. كتبتُ أنّني سأرحل إليك، ولن أعيش إلّا حيث

Twitter: @ketab_n

أنت، وأنّني أنتظرك... الكثير من الأخطاء بخطّ مرتبك، وفجأة تُمحى الحروف في مساحة دائرة، فأعرف أنّها دمعة. كنتُ أبكي وأنا أكتب، بل كنتُ أكتب لأنّني كنت أبكي. هذا ما حصل لاحقًا واستمرّ إلى اليوم.

كنتُ أعرف أنّني لن أرسل تلك الرسائل. والآن تتملّكني رغبة بالتحرّر منها.

لن تقرأها.

يجب ألّا يعرف أحد أنّ من أطهو له الآن هو نفسه خطيب خالتي اللئيم، الذي سبّب لي أكثر من ندبة ولها أكثر من إهانة. يجب أن يبقى متروكًا في الزقاق، مادًّا يده في الفراغ الثقيل، في العدم المؤلم.

لن أُخبرك أنّني عرفتكَ سابقًا، أنّني حضرتُ حفل خطوبتك السريعة، وشهدتُ دموع الشابّة التي تركتَها من دون مبرّر، وعشتُ في بيت يكرهك بقدر ما أحبّك قلبي.

سأتركك تحدس، سأختبر غريزة الطبيب فيك. فإن أرشدك قلبك وعرفتني،أو تذكّرت فقط اسمي لا يكون ما مضى من عمري قد ذهب هباء.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢

عصرُ المدينة مُقبض، يجعل صوت البومة يتردّد في رأسي.

هذا موعدها. ربّما أتت إلى الخرّوبة، فها هو الربيع، وهذه أيّامها.

«بومة الخرّوبة» الجميع يعرفها، لا داعي لأحكي لك حكاياتها الموسميّة. كلّ فرد في الحيّ يدّعي أنّها استهدفته. حتى الذين لا تطلّ بيوتهم على الساقية، ولا يلمحون الخرّوبة من سطوحهم، لهم حكاية معها.

لن أذكرها على العشاء. لكن في غيابك عشنا فصولاً مأساويّة معها.

أطلقوا النار عليها، فغابت موسمين كاملين، حتى ظنّ أهل الحيّ أنّها قُتلت. لكنّها عادت. خالتي فاطمة قالت إنّها ليست البومة نفسها بل ابنتها، ولكنّني لسبب ما كنت أشعر بأنّها هي،

Twitter: @ketab_n

وبأنّها لم تُصب بالرصاص الذي انهمر على الخرّوبة تلك الليلة الربيعيّة، لأنّني صلّيت ألّا تُصاب بأذى، وأن ترحل فقط.

كانت ليلةً جميلة دافئة بعد شهور الشتاء العصيبة. ارتفعت أصوات الضفادع منبّئةً بارتفاع حرارة مقبل. كنتُ أبتهج بنقيق الضفادع لأنّني أكره البرد. ولم أكن أكره البومة، إلّا أنّني لم أقوَ يومًا على البوح بهذا، لأنّ كلمة بومة بذاتها كانت ترسم إشاراتِ الاشمئزاز والامتعاض على وجوه الجميع.

حين كنتُ صغيرة قلتُ لسلام إنّ البومة مصابةٌ بالفواق فصدّقتني، وكنتُ أتعجّب كيف تصدّق سلام كلّ ما أقوله، وأرتاح لأنّها أغبى منّي. لكنّني أندم الآن، فسلام إلى اليوم رفيقتي الوحيدة، والمأساة التي حلّت بها بعد زواجها آلمتني كأنّها مأساتي.

لم تكن الخرّوبة ذات فائدة كبيرة. كانت تسكنها الخفافيش والحشرات المؤذية، وكائنات أخرى لا يُفصَح عنها أمام الأطفال.

باكرًا جدًّا حذّرتني جدّتي من الاقتراب من الخرّوبة ليلاً. قالت إنّ «بسم الله الرحمٰن الرحيم» يسكنونها.

لم أفهم من عساهم يكونون، لكنّي فهمت أنّهم خطيرون ومخيفون، وكنت حين أمرّ نهارًا قرب الخرّوبة أرتعد. أَلهذا السبب كانت خالتي تؤيّد قطعها، أم بسبب صوت البومة الذي يُنذر بالشؤم؟

Twitter: @ketab_n

لم تُقلع خالتي عن فكرة التخلّص من الشجرة، إلّا حين قالت جدّتي، وهي تقلّب حبّات الكستنة في «الكانون» الصغير: «يضلّوا بالخرّوبة أحسن ما ينقلوا ع محلّ تاني».

غاب عقل خالتي بعيدًا، بينما بقي عقلي مع حبّات الكستنة وأصابع جدّتي المتجعّدة، التي راحت تقلّب الحبّات المشويّة من دون حاجة إلى ملقط، ومن دون أن تمسّها الحرارة بسوء، بسبب خشونة جلدها. لم تمسّ حرارةُ الجمر سوى رائحة «المازهر» الساكنة بين مسامّ جدّتي، ففاحت بنعومة في المكان.

حتى حين أعجزَتها الأمراضُ المتراكمة، بقي دمها يفوح بالروائح الزكيّة، التي صارت مع الزمن جزءًا منها.

حين كنتُ أجفّفها وألبسها الملابس القطنيّة كانت رائحة صابون الزيت والخزامى و«المازهر» تفوح من شراييها، كأنّها طالما سكنت فيها.

كنتُ أكرّر عرض الطعام عليها. أخشى أن تجوع في الليل، ولا تتمكّن من إخباري، أو أن يخطفها الموت وهي جائعة.

ذاك كان كابوسي: أن يخطفها الموت قبل أن يطلع الصباح، وأطعمها حلوى «ليالي لبنان» التي تعلّمتها لأجلها.

لم أعرف كيف أقول لها إنّني أحبّها وكيف أعتذر، لأنّني أتركها منذ سنوات تنام وحدها، وأنام في غرفة نوم مستحدثة على سطح المنزل. كيف أتبرّأ من ترفّعي عنها وتهرّبي من شخيرها وتأفّفي... كيف أخبرها أنّني أكره نفسي الجاحدة التي يئست من

Twitter: @ketab_n

مرور أيّام لا يحدث فيها شيء، ولا أعثر فيها على إجابات، ولا حتى أرغب في الطبخ لأحد؟

«بس دوقي من كلّ صحن لقمة، بس دوقي طعمتهن»...

كانت تتهرّب سائلةً: «بدّكش أحكيلك حكاية؟ أو مفكّرتيني كبرت ونسيت؟».

لم تخشَ الموت جائعة، بل الموت من دون ذاكرة.

تروح تحكي الحكاية بتشتّت، وتخلطها بحكايات أخرى وتغيّر أقدار الأبطال، ثم تستنجد بي، وهي تعرف أنّني أجاملها ولا أصحّح لها.

أحكي الحكاية لتتذكّرها. يكون الظلام شديدًا فلا أرى دمعتها، لكنّني أعرف أنّها متجمّعة في حافّة عينها.

أبكي أنا أيضًا بين جملة وجملة، وأحبس شهقتي حتى يعيش أبطال الحكاية في ثبات ونبات.

منذ عقدين ونصف العقد كانت هي تغسلني وتُلبسني وتضعني في الفراش، اليوم لا أردّ لها الجميل، لأنّها لم تطلب مقابلاً أبدًا، ولا أشعر بأنّني أفي بدين، بل أكفّر عن ذنب سأشعر به.

حين قالت عن أمّها قبل عقد ونصف العقد بأسف: «مضيّعة»، وكانت تقصد أنّها أضاعت جزءًا من ذاكرتها وإحساسها بالزمان والمكان، جلست تبكيها كأنّها ماتت فعلاً. هوّنت عليها الجارات، ولكنّها بقيت تردّد «المضيّع تلات ترباع ميّت».

Twitter: @ketab_n

عرفَتْ هذا يقينًا من عِشرتها للعَجَزة. لم تتحدّث عن انفعال أو غباوة.

أتذكّر العجزة الذين كانت تغسل أغطية أسرّتهم وملابسهم. كانت تجنّبني زيارتهم، لم تصحبني معها إلّا للضرورة القصوى، ولم تتحدّث عنهم أمامي إلّا بكلمات قليلة، لم تخلُ من غصّة تُخفي الكثير، ما جعلني أتخيّلهم يبكون كالأطفال لأنّ أحدًا من أقاربهم لا يزورهم، ولأنّهم يتغوّطون في أسِرّة ليست أسرّتهم، ولأنّ عظامهم تتآكل في البَرد والوحشة.

حين كنتُ أرافقها إلى دار العجزة، كنتُ أقف بعيدًا، أخاف الاقتراب منهم، لأنّهم كانوا مجعّدي الجلد، كجلود سلاحف الحقل، ويتحرّكون ببطء مثلها.

لم أقل لها إنّها لن تموت الآن، كنت أذكّرها بأهلها وإخوتها الذين بلغوا جميعًا العقد الثامن.

كنتُ مطمئنّةً إلى أنّها لن تموت قبل بلوغ الثمانين. لكنّ الحياة سخرت منّي.

كنت أجلس فوق عتبة البيت أشحذ دفء شمس آخر الشتاء، حين سمعتُها تندبُ جدّي في فراشها وتنشد «ردّات» الموتى، عرفتُ أنّها تُحتضر. خفتُ وقمتُ إلى المطبخ أسلق عظام الغنم والقمح لأجل الهريسة التي تحبّها كثيرًا.

* * *

Twitter: @ketab_n

أشتهي الهريسة فجأة.

كيف لم أفكّر فيها؟ كيف غابت عن بالي!! إنّها أكلة فرح أيضًا، وهي الأكلة الرئيسة في أعراسنا التي لم ترَ واحدًا منها منذ عقدين. برغم أنّ الهريسة بحقيقتها أكلة فقر وتقشّف أو ربّما تحايل، فهي من أزهد الأطعمة ـ القمح والعظام ـ لكن شحم ودهن العظام واللحم القليل الذي يكسوها كان تعويضًا للفقراء العاجزين عن شراء الهبرة. هكذا اخترعت جدّاتنا حلولاً لجوع أبنائهنّ، واشتهائهم للّحم والزفَر.

لا تعتبْ على تحايلي، هناك الكثير من التحايل في عالم الطبخ، كاستعمال منتج رخيص بدلاً من آخر ثمين، وتحديدًا في الأعراس التي كانت تُطعَم قريةً بأكملها.

ليس الغد عرس أحد سوى عينيّ اللتين ستُزفّان إلى وجهك

Twitter: @ketab_n

وقامتك. أريد أن أتفرّس طويلاً فيك. هذا لم يحدث يومًا. حتى في أحلامي التي تستحضرك، كنتَ تختفي بسرعة كومضةٍ بخيلة. وحين أستيقظ تبدو ذكرى وجهك لي أبعد حتى من ذكرياتي في الرحم، حين كنت أغفو في مياه مضطربة.

كيف نسيتُ الهريسة؟ هل لأنّها مرتبطة بالمآتم في القرى الجنوبيّة المجاورة لنا؟

هل سبق أن أكلتها في عاشوراء كما فعلت أمّ نجيب وكرّرت لنا حكايتها؟

حين أكلَت النسوة الهريسة وشبعن، وضعَت أمّ نجيب ذيل تنّورتها بين بطّتي رجليها، ولفّت إحداهما فوق الأخرى، وقالت بلهجة من سيدلي ببيان هامّ على المستمعين الجهلاء، أي نحن: «المتاولة بيعملو هريسة بعاشورا وبيوزّعوا للجيران والقرايب، قال عن روح الحُسين».

هنا تعقدُ النسوة حواجبهنّ متعجّبات.

تريحهنّ أم نجيب: «شو عليه؟ الفاتحة ع روحو... ما هوّي حفيد سيّدنا محمّد، يعني بالوراثة سنّي! آخر مرّة رحت لعند أهل سلفتي ـ إمّها متوالية ـ إجت واحدة قرابتهم وما بتعرفني فكّرتني من ملّتهم، مدري كيف إجت سيرتنا علسانها! قالت نحنا مش نضاف، ما بنزرزق مي عالغسيل لمّا ننشر... قال لازم يزرزقوا، بيمسكو بريق المي وبيكبّو الميّ عحبل الغسيل رايح جاية!»

Twitter: @ketab_n

استُفزّت الحاضرات، وكرّرن الأسطوانة نفسها: «نحنا النضاف وهنّي مخالفين بكلّ شي... قال نزرزق قال!!! من هيك بيضلّ الوحل حولهم وحواليهم!»...

تضحك أمّ نجيب وتمسك حافّتي ضحكتها بالإبهام والسبّابة وتقول: «أني قلتلّها لسلفتي... قدّروا الديّة إللّي بدكم ياها خلّينا ندفعها ونخلص من هالطار البايت».

* * *

Twitter: @ketab_n

بدأ الخليط البنّي يتماسك، ولكنّها البداية، والنهاية ليست قريبة، لذلك كانت النسوة يتحلّقن حول قدر المغلي أو الهريسة، يساعدن أصحاب المناسبة في فعل الفرح هذا، يشاركنهم في فرحتهم وتعبهم، فيتبادلن التحريك وتتنقّل «المغرفة» الخشبيّة الكبيرة بين أيديهنّ كما تتناقل ألسنتهن كلّ الأخبار، من أخبار القرية إلى الحيّ إلى أخصّ أسرارهنّ... ما آلمهنّ في الصباح، ما أزعجهنّ في المنام، ما أقلقهنّ في الليل، ما أفزعهنّ وهنّ يتوضّأن فجرًا... يقلن فوق القدر، وقد صارت مركز عالمهنّ، كلّ شيء، حتى شجاراتهنّ مع أزواجهنّ. يساعدهنّ النظر إلى القدر على البوح، يحرّرهنّ من مشقّة النظر إلى بعضهنّ، أو خجل تقابل نظراتهنّ وهنّ يشكين ما يوجع أرواحهن.

تدعو واحدة على زوج أمّها لما يسبّبه لها ولإخوتها من أذى وتقتير، فتواسيها أخرى شاكيةً زوجها لأنّه يحرم أولاده المصروفَ

Twitter: @ketab_n

ليلعب «السبق والقمار»، وثالثة تهوّن عليهما شاكية ابنها الذي يسمع لزوجته ويخاصمها منذ سنوات، ثم تسكتهنّ جدّتي باستعادة آخر حوار بينها وبين جدّي: «. . . أخد إسوارة الدهب من إيدي ليبيعها، وقال لي طول ما أنّي عايش ما تعتلي همّ. . . (مستهجنة) قالها السبت ومات التنين!! طول ما هو عايش!». . .

تستقطع «تقليب المواجع» أسئلة ساذجة وأخرى مضحكة، كسؤال سلام وهي في الثانية عشرة من العمر: «في سؤال محيّرني! مش عبد الحليم ميّت؟ كيف بيغنيّ بالراديو؟»

يضحكن قبل استئناف تلاوة حكاياتهنّ.

لكنّي هنا وحدي، والمكان غريب وكئيب!

لم آلف تقسيم الشقّة ووجود غرفة طعام قبالة المطبخ، وهذا المطبخ غريب جدًّا، واسع وثلّاجته عملاقة! لست معتادةً على هذه الرفاهيّة، وأن تكون هناك نافذة في المطبخ، والدليل أنّني جالسة أحرّك المغلي بـ «شلحتي»، فمطبخ جدّتي الذي أمضيت قسمًا كبيرًا من عمري فيه كان في قلب المنزل، ولم تكن ثمّة نافذة تكشفه على الخارج، وكان يمكن إعداد الطعام بأقلّ ملابس ممكنة.

أقفز عن المجلى وأنظر إلى «شلحتي»، ثم أهرع إلى غرفة النوم وأفتح الخزانة.

. . جميع ملابسي شتويّة. حين نقلتها إلى هنا لم أتوقّع هذا الهجير المباغت.

Twitter: @ketab_n

ما العمل؟ فقط الفستان الذي اشتريته لأجل عشائنا صيفيّ، لكنّني لن أخاطر وأرتديه، فقد يتّسخ أو يحترق. ماذا لو حضر شخص ما الآن؟

ولكن من عساه يأتي؟ لا يعرفني أحد في الجوار، ولا يعرف أيّ من معارفي أنّني هنا.

عليّ الذهاب إلى السوق في الحال لشراء قطعة صيفيّة. لكنّني لا أستطيع ترك المغلي، ستفسد الطبخة وسيكون عليّ البدء من جديد ورمي هذه في القمامة. أكره رمي الطعام، التخلّي عنه إهانة له ولي.

صوتُ جرس الباب!!!

* * *

Twitter: @ketab_n

أقف بـ «الشلحة» أمام خزانة فيها «جينز» وكنزتان شتويّتان، أرتدي أيّ شيء وأخرج لأفتح الباب، وقبل الردّ على تحيّة عامل الصيانة أركض إلى المطبخ، لأنّ المغلي على وشك أن يلتصق بالطنجرة.

يشتعل جسمي وأنا أنادي العامل كي يدخل، وأعتذر لأنّ طبختي ستحترق. يطلّ من باب المطبخ، هزيلاً وأشبه بعرق نعناع أخضر في كوب شاي ساخن. أخبره أنّ في البيت مكيّفين، واحدًا في غرفة النوم وآخر في الصالة، وأنّي أريد نقل مكيّف غرفة النوم إلى المطبخ، فتتّسع عيناه لأنّ هذا برأيه يستغرق وقتًا طويلاً، ولأنّني لم أخبره هذا على الهاتف.

راح يثرثر وأنا أتصبّب عرقًا بالكنزة الشتويّة، هل أخلعها وليحصل ما يحصل؟ هل سيهاجمني إذا فعلت؟ كيف أدافع عن نفسي حينئذ؟

Twitter: @ketab_n

تصوّرت نفسي أرمي الطنجرة عليه وهو «يشوي ويقلي». لكن فكرة أفضل خطرت لي.

«إنت بتشتغل بالساعة؟» سألته، فلم يردّ لأنّه لم يفهم سبب السؤال. «طيّب تعا... امسك المرغفة وخلّيك عم تحرّك، هيدي شغلة أسهل من نقل المكيّف، خلّيك عم تحرّك لأرجع».

دفعته نحو موقد الطعام ووضعت المغرفة في يده وهو مصدوم. راح يحرّك تلقائيًّا، ثم سألني: «لوين رايحة يا عمّي... شو هالعلقة؟!».

من عند الباب أخبرته أنّني سأجلب دواءً مهمًّا لي وأعود بسرعة البرق.

في أقرب متجر، لم تكن هناك سوى فساتين، لا تختلف عن «شلحتي» التي كدت أستقبل بها عامل الصيانة. لم أملك وقتًا للبحث عن متجرٍ آخر، فاشتريت بلوزةً صيفيّةً ولبستُها في الحال، وفستانًا خفيفًا لأذهب به غدًا إلى مصفّف الشعر.

حين فتحتُ الباب، اكتشفتُ أنّني أغلقتُه بالمفتاح على عامل الصيانة، «طربون النعنع الذابل». كم شعرتُ بأنّني غبيّة ومؤذية! ماذا لو شبّ حريق في الشقّة، أو حصل تماس كهربائي، وأراد النجاة بحياته؟ أيرمي نفسه من الطابق الخامس؟

وجدتُ حقيبته حيث كانت، وشممت رائحة القرفة لا الحريق. دخلتُ المطبخ ببلوزتي الجديدة، ورأيت نظراته تتوقّف عند رقبتي وصدري.

Twitter: @ketab_n

حاولتُ تصحيح الموقف: «يسلمو. ممنونتك. الله يخلّيك... شو اسمك؟»

«كريم».

«ههه... كنت راح اسألك شو الاسم الكريم».

«ما كان تغيّر شي.. راح ضلّ كريم».

واضح أنّه لا يستلطفني. سارعتُ وأخذت المغرفة، وطلبت منه أن يُصلح المكيّفين، ويبدأ نقل مكيّف غرفة النوم إلى المطبخ، لأنّني سأنام الليلة في المطبخ!

هذا زاد الطين بلّة، إذ بدا كريم متأكّدًا من جنوني، وخطر لي أنّه سيخرج من الشقّة أو يطلب النجدة.

لكنّه باشر عمله.

ثم حدّثني من حيث هو في الصالة المطلّة على المطبخ ـ وبدا لي شعره المبلّل بالعرق دليلاً أكيدًا على تشبيهي الأوّل له ـ قال: «أنا فهمت.. إنتِ رحتِ اشتريتِ هاي البلوزة مش دوا».

ضحكت: «إيه صحّ.. كيف عرفت؟»

«ما بدا نباهة.. واضحة.. سلامة فهمك».

«إذا عندك مشوار لهون بعد شي تلات ساعات مرّ لأعطيك كاسة مغلي».

تفكير قرويّ بامتياز! سيكشف أمري، ويعرف أنّي قرويّة ساذجة، ويستفرد بي. قرّبت سكّين المطبخ منّي.

Twitter: @ketab_n

«مغلي... أنا قلت هيدا مغلي، بس مش شكلك مولّدة، ولا في حسّ ولاد بالبيت».

«هيدا مغلي من دون ولادة، هيك.. توحيمه».

«توحيمه بهالشوب! هيدا حامي.. أحسنلك تعملي جلو أو حتى آيس كريم..».

إنّه محقّ بشكل ما. ولكن كيف أُفهمه ما تعنيه هذه الوجبة في قاموس الحبّ والحنان؟

أأخبره أنّ نساءً كثيرات من معارفي كنّ يطلبن منّي إعداد المغلي لهنّ بعد ولادتهنّ، لأنّ المغلي الذي أصنعه وفق قولهنّ هو الأطيب؟ أأخبره كيف أنّ آلاف الكاسات التي أعددتُها، لم تُترك فيها لقمة واحدة؟ كنَّ يأكلنها حتى آخر لحسة، ويتلمّظن متعجّبات من أنّ من صنعت هذا المغلي شابّة، وليست امرأة عجوزًا، أمضت عمرها في هذه الصنعة!

«بتعرفي... أنا خفت أتركلك الطبخة، وقلت لمّا تجي إنتي من الباب، راح فلّ من الشباك... بس...».

«ليش غيّرت رأيك؟»

صمت برهة ثم قال: «البلوزة لابقتلك».

اهتزّت المغرفة في يدي، بل اهتزّ جسدي كلّه. هل يغازلني هذا الرجل؟ اليوم؟ هل هذه أوّل عبارة غزل صريحة أتلقّاها في حياتي؟ في هذا المكان الغريب وهذا الهجير؟ وأنا وحدي مع رجل لا أعرفه، وأراه لأوّل مرّة؟

Twitter: @ketab_n

هل يغازلني بينما عيْشة تموت، وهي التي أمضت عمرها تؤكّد للناس ولي أنّ أحدًا لن يكرّر النظر إليّ.

خفت.

كيف لعبارة غزل أن تخيفني وتُخرسني هكذا.

لاحظ كريم صمتي، فأطلّ برأسه من باب المطبخ، وهنا فقط رأيتُ وجهه بوضوح، لم أكن قد تمعّنت فيه.

ابتسم معتذرًا: «عفوًا.. ما تفهميني غلط.. قصدي إنّها لابقتلك.. مبروكة».

اقتربتُ من نافذة المطبخ المطلّة على الشارع. إذا هاجمني سأصرخ، وسيُنجدني المارّة.

بدا لطيفًا وطيّب القلب. مسكين، ليس من أولئك المستلقين على الشواطئ، بل يعمل تحت وطأة هذا الحرّ الرهيب. إنّه مثلي، يكافح مهما جارت السماء عليه، وربّما يعيش منتظرًا منها العلامات كما أفعل.

أعجبه ما اشتريت. ماذا قد يقول في فستان الغد؟ هل أسأله؟

تراودني الفكرة وتغريني. ولكنّني أعود إلى عهدي الغيابي لك: أن تكون أنت أوّل من يرى الفستان عليّ.

* * *

Twitter: @ketab_n

كان قلبي يرتجف وأنا أتنقّل بين شوارع صيدا، أبحث عن فستان للّقاء الموعود.

فكرة أنّني على وشك شراء الفستان الذي ستراني به وأراك وأنا أرتديه كانت مدوّخة.

كيف أبدو كأميرة الأحلام وطبيعيّة في الوقت نفسه؟ هل أختار شيئًا مبهرًا أم بسيطًا كي أُخفي رعونتي وجنوني؟ أيّ لون تحبّ وأيّ لون تكره؟ ما أكثر لون يناسبني؟

اللون المناسب، هذا ما أردتُ معرفته.

الاعتماد على بائعي المتاجر لم يكن مفيدًا، فكلّ ما يرتديه الزبون يعجبهم، لأنّهم يريدون أن يبيعوا ولا يهمّهم ما يناسبه، أو أن يكون على وشك لقاء حبيب العمر.

الأسود؟ الأبيض؟ الأحمر؟ البنّي؟ الأخضر؟ الأزرق...

Twitter: @ketab_n

كنت متيقّنة بشيء واحد: أنّك تحبّ الأزرق، وقد اخترتَه ليوم خطبتك.

لكن، كان ذلك منذ أكثر من عقدين. يُقال إنّ الخيارات تتغيّر مع الأعوام. أنا لا أصدّق كثيرًا هذه المقولة، فما زلتُ مخلصةً لخياري الجنوني بإغراق نفسي في عالمك، أو بالأحرى في ماضيك، الذي أدرتَ ظهرك له ومضيت، هاربًا من خطيبة، أو ذنب، أو جريمة... لا أحد يعرف بالتحديد.

أنا أعرف شيئًا مهمًّا، وهو أنّك لو كنت نادمًا الآن، ولديك حنين لما كنت عليه فستجده فيّ.

ستجده في معدّل الحلاوة في «المغلي»، وتوازن الكراوية والقرفة، وتوافق اللون مع المذاق. ستجده في نداوة الكزبرة وفرح النعناع...

أعرفُ أنّك إن كنت تفتقد ذكرياتك ستجدها بين أصابعي، وكلّ ما يخرج من بين يديَّ، ستجدها فوق طرف لساني الذي أتذوّق به ما أطهوه.

ألمس أقمشة الفساتين المعروضة، وأسائل نفسي كيف ستبدو الحياة إذا ـ بخطوة عفويّة ـ لمستَ فستاني؟

هل اخترعوا قماشًا يهدّئ روع النفس، ويكون بردًا وسلامًا على القلب المحترق؟ قماشًا يخفّف ألم المعدة الذي بدأ يشتدّ وأنا أخطو نحو لقائنا المرتقب؟

لماذا تؤلمنا معدتنا حين نحبّ؟ طالما حيّرني السؤال. في كُتب الفلسفة قرأتُ أنّ المعدة بيتُ اللذّة والضعف أيضًا، إنّها

Twitter: @ketab_n

القسم السفلي والحقير في الإنسان، بينما العقل هو الأعلى والأرقى، وهو يسيطر على ما دونه ومن دونه... دقّات القلب المتسارعة تترافق مع ألم في المعدة، وانقباضات تتوزّع في البدن من دون خريطة واضحة. ينقبض قلبي ثم معدتي، أوعيتي الدمويّة ثم خاصرتي ثم معدتي مجدّدًا، رحمي ثم قصبتي الهوائيّة... وكأنّني حقل ألغام تتفجّر لغمًا تلو الآخر.

لن أنجو.

في متجر لملابس السهرة، كانت شابّة تقيس فستانًا قصيرًا، فقال صاحب المتجر لها:

ـ «يا عروس، الفستان القصير بيقصّر الجسم، الأحسن تاخدي طويل، بيعطيكي طول وبيشلبن جسمك».

معلومة في وقتها. أزرق طويل إذًا. هذا ما أعرفه عن فستان الأحلام.

تذكّرت معلومة شبيهة قرأتُها في مجلّة فنّيّة، مفادها أنّ الشَعر الطويل يعطي قامة المرأة طولاً وهميًّا. لم أكن أعرف هذا حين قرّرتُ وأنا طفلة ألّا أقصّ شعري، بل كنتُ أتحدّى عيْشة بصمت، وأحلم أنّ هذا الشعر المشعّث والخشن سيتحوّل ذات يوم إلى شعر متماوج كشعر خالتي وأخواتي.

خالتي كانت مخيفة كأختها عيْشة، لكنّها لم تركّز غضبها عليّ.

فهمتُ لاحقًا أنّ الوصف المناسب لها هو أنّها «نمرودة»، كما وصفتها جدّتي في أحد شجاراتهما، حين رفضت أن تلبس ملابس ماري المستعملة، والتي لا أذكر منها سوى عطرها.

Twitter: @ketab_n

كانت تعرف أنّها محقّة في غرورها، فهي جميلة، و«الناس» الذين تذكرهم في معظم كلامها ـ من دون تحديد من هم ـ يحبّون البنات المعتزّات بأنفسهنّ، المغزورات والرصينات.

نعم، كانت رائعة الجمال، وأنا أكثر من كانت تدرك هذا. لأنّني كنت أتفحّصها بيأس طيلة الوقت لأعرف ما ينقصني لأصبح مثلها أو قريبة منها. لكنّني لم أجد قطّ ما يمكن أن يجعلني أقتنع بأنّها خالتي، أو آمل أن أصير مثلها يومًا، بعكس أخواتي الخمس. تقاسمن جمال خالتهنّ الخلّاب. واحدة لها العينان الواسعتان، وأخرى لها زرقتهما الدكناء، وأخرى لها الشعر الحائر بين درجتي الذهبي والنحاسي، وأخرى لها القوام البديع...

أختي سعاد ورثت القدر الأكبر من جمال فاطمة، كانتا تبدوان كأختين حين تمشيان معًا، ومثلها حاولت سعاد إخفاء إحساسها بالنقص وبعار الفقر واليتم، لكن مرورهما بأيّ شخص يحدّق إليهما كان يجعل جدران التعالي تنهار. عرفتا ما تعرفه كلّ فتاة في القرية، أنّها حين تمرّ في الشارع المرصوف بالعيون الفضوليّة والنهمة إلى العيوب تكون عرضة لكلّ شيء، حتى اختراق عقلها وقراءة أفكارها وتاريخ عائلتها.

من أين أتت فاطمة بهذا الجمال الذي لا تملكه أمّها أو خالاتها؟

اسمها هو مفتاح السرّ.

حين وُلِدَتْ بعد سلسلة من مآسي إجهاض الأجنّة الذكور، ونجاة ذكر واحد عاش شهرًا وأنثى عاشت حتى اليوم، رفض

Twitter: @ketab_n

جدّي النظر إليها، لم يهنّئ زوجته بل قال لها: «حمد الله عسلامتك»، وخرج من البيت قبل أن يسمع ردّها.

شعر بالندم منذ تخطّت قدمه العتبة، لكنّه لم يعد ليرى ابنته.

بعد أسبوع، حمل الطفلة، ولم يكن قد أطلق عليها اسمًا بعد، كانت تُسمّى «البنيّة» فقط، ولم تجرؤ الأمّ على سؤال زوجها: «شو بدّك تسمّيها؟».

حين حملها ارتعشت ملامح وجهه، لمح في طفلته وجهًا محبّبًا طالما افتقده، وجه جدّته فاطمة التي اشتهرت بجمال مبهر لم تورّثه أيًّا من أبنائها. رأى النور يشعّ تحت جلدها، وتنبّأ بالشعر النحاسي، والعينين القاتمتي الزرقة... لذلك سمّاها فاطمة، على اسم جدّته، من دون مراعاة خاطر حماته التي أمَلتْ أن يكرّمها صهرُها، بعدما سمّى ابنته الكبرى على اسم أمّه ـ عيْشة.

لم تحزن جدّتي لأنّه تجاهل اسم أمّها، كانت منكسرة الخاطر لأنّها أنجبت ابنة عفيّة سليمة، بينما أجهضت الذكور، وتلك حالة معروفة بعبارة «ما بيعيش لها صبيان»، والتي صارت أحد ألقابها المتداولة في غيابها.

لكنّ جدّي لم يغضب، بل تعلّق قلبه بفاطمة أكثر ممّا تعلّق بالولد الذي عاش شهرًا بسبب تعويذة ريفيّة لا تخطئ، هي تسميته باسم حيوان مفترس. سمّاه شبلاً، وحين صار عمره أسبوعًا تفاءل وامتلأ قلبه بالفرح، لكنّ الطفل راح يحتضر أمام عينيّ والديه. لم يحمِه اسمُ الحيوان المفترس كما تقول التعويذة. لم يمنع عنه ملاك الموت الذي يتجنّب عادةً الاقتراب من أطفالٍ يحملون

Twitter: @ketab_n

أسماء حيوانات مفترسة.

كأنّ ملاك الموت يهاب أسماء مثل أسد وشبل ونمر، ولا يهاب أسماء مثل أحمد وعلي وبلال... لكنّ التميمة لم تكن تخطئ، واستمرّ البشر في اتّباعها لإنقاذ ذكورهم سريعي العطب. لم تخطئ إلّا مع جدّتي.

ما شغل بالي هو عدم اختراع تميمة مماثلة لإنقاذ البنات. توقّف البشر عن وأدهنّ، لكنّهم لم ينقذوهنّ بأسماء مثل: شبلة ولبوة ونمرة... لا أعرف بنات لهنّ هذه الأسماء. ولا نسمع عن امرأة تُجهض الإناث. هل هناك نسوة يجهضن الإناث؟ لماذا لا نسمع عنهنّ؟ أَلأنّ الأمر ليس سيّئًا، أم لأنّ الإناث يعشن بمجرّد أن تحبل النساء بهنّ؟

لم تنجح التميمة، لكن نبوءة جدّي صدقت.

مات بعد أسبوعين من ولادة فاطمة، ولم يرَ كيف تحوّلت قطعة اللحم البيضاء تلك إلى أجمل صبيّة في القرية، إلى الحلم الذي راود كلّ شابّ ورجل رآها، أو وُصِف له جمالها من دون رؤيتها حتى. لم يرَ إن كانت فعلاً كجدّته، أم أجمل منها، وأجمل ممّا تحتمل أمّ أرملة فقيرة ووحيدة.

جمال فاطمة جلب وجع الرأس لجدّتي كما تقول. كثرة الخطّاب وتمنّعها عنهم، غرورها وعصبيّتها وخجلها من عمل أمّها الحقير الذي سيحرمها زوجًا غنيًّا، كانت تؤمن أنّها تستحقّه.. أمورٌ عكّرت حياتنا.

* * *

Twitter: @ketab_n

يعمل كريم بجدّ، بينما أنظرُ إلى المزيج وهو يتماسك ويمغّط، وتُلهِب حرارتُه المطبخ أكثر وأكثر. لكنّه يلزم الصمت، كأنّه يتعمّد الإنصات إلى شيء ما، صوت المغرفة أم حركاتي أم أنفاسي حتى.

الشبّاك خلف الموقد مشرَّع، إن اقترب منّي سأصرخ بأعلى صوتي. لكنّه لا يقترب. ليس ذئب الحكاية المتربّص بليلى في الغابة الخطرة. الذئب الذي جسّدته خالتي فاطمة في كلّ رجال العالم، والغابة التي أطلقت لقبها على بيروت.

كانت كلّما قلتُ إنّي أريد الذهاب إلى بيروت، بيّنت لي فداحة قولي، وخطر خياري. بيروت غابة، وهي خبِرتها بنفسها حين عملتْ في مصنع البسكويت.

تدبّر لها خالها العمل هناك بصفته كبير العمّال. وافقت جدّتي بعدما أقنعتها نسوة الحيّ بأنّ عمل فاطمة وخروجها من

Twitter: @ketab_n

المنزل سيساعدانها في التعافي من نكبة فسخ خطبتها، وأنّها قد تلتقي بعريس أفضل. ووافقت خالتي لأنّها توهّمت أنّ خالها سيتدبّر لها وظيفة جيّدة لأنّه مسؤول و«له كلمة» في المصنع.

ما انتهت إليه تلك النصيحة كان كرهًا وليس حبًّا أو زواجًا. كرِهت المدينة وذُعرت من زواريبها المزروعة بالوحوش، وأرادت نقل هذا لي.

ـ ستّي! ليش إمّها لليلى ما راحت معها؟ أو وصّلتها؟

ـ شو بيعرّفني؟ يمكن كانت مشغولة!

ـ في شغل أهمّ من بنتها؟ وهي عارفة إنو في زئب بالغابة!

ـ هاه؟ يلّا نامي بلا هالأسئلة... حكاية وبدّا تصير!

ـ طيّب ليش الزئب ما أكل ليلى بالغابة لمّا شافها؟ ليش نطر لتجي ع بيت ستّها؟

ـ يي ع هالليلة! أَنِي شو بيعرّفني؟ أَنِي كنت معهن؟ حكاية وبدّا تصير! يلّا اقري الفاتحة وتعوّزبي ونامي. أعوز بالله من الشيطان الرجين...».

أكرّر بعدها، ولكنّي لا أنام إلّا حين أركن إلى إجابة تقنعني: ليلى تلك كانت قبيحة، جعداء الشعر، تعذّب أمّها في أثناء تسريحه، لذا أرسلتها إلى جدّتها بحجّة ما، لكنّها قصدت إرسالها إلى الغابة من دون حماية. الأمّهات قد يفعلن أشياء أفظع ببناتهنّ الدميمات!

* * *

Twitter: @ketab_n

اندفع تيّار هواء بارد في المطبخ ولسع عرقي، فارتجفتُ واستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم. قال كريم إنّ كلّ شيء على ما يرام الآن. المكيّفان يعملان.

نقدتُه أجرتُه وأجرة إضافيّة للدقائق التي حرّك خلالها المغلي.

من نافذة المطبخ رأيته يغادر على الدرّاجة الناريّة.

كان صوت المكيّفات يأتي من كلّ مكان حولي. أقفلتُ النوافذ والأبواب لأستمع إلى صوت مكيّفي فقط، وإلى عتاب عبد الوهاب الذي علّمتني أن أحبّه.

«بفكّر في اللي ناسيني وبنسى إللي فاكرني..» لكنّها لم تكن أغنيتي المفضّلة، لأنّ شقّها الثاني لا يناسبني، فأنا لم يكن هناك من «يفتكرني» أو يفكّر فيّ. لم يحبّني رجل، حتى أبي. لم يكن

Twitter: @ketab_n

هناك وقتٌ لأعرف إن كان أحبّني، أو ربّما لم تمهله رصاصة صيد طائشة وقتًا ليحبّني.

لكلّ فتاة وامرأة عرفتها أغنيتها، أغنية عمرها، باستثنائي. لم أجد أغنيتي بعد.

قد تكون «أغدًا ألقاك» أغنية هذا الأسبوع، لكنّها ليست أغنية العمر.

ما تستحقّ أن تكون أغنيتي هي أغنية عن حبّ من طرف واحد، بين شخصين لا ماضي مشتركًا لهما، ولم يجمعهما مكان أو زمان يخوّلان أن يعبّر العاشق للمعشوق عن مشاعره. لا شكّ في أنّها إن وُجدت فستكون أغنيةً حزينة جدًّا، أتعس من أن يفكّر أيّ شاعر في تأليفها.

للرجال أيضًا أغانيهم. نعرف بعضها من حبيباتهم وزوجاتهم، وأعرف بعضها الآخر من كوّة المقهى.

* * *

Twitter: @ketab_n

كنت أتجسّس على الرجال، في معقلهم الأشهر ـ المقهى.

كانت في القرية ثلاثة مقاهٍ. عددٌ كبير نسبةً إلى السكّان، لكنّ الرجال كانوا يدمنونها، بين عاطلين من العمل وكسالى ومدمني «شَدّة»[1].

كانت للمقاهي علّيات ونوافذ عالية للتهوئة، تنبعث منها موسيقى الراديو والتلفزيون ودخان السجائر الرخيصة.

كنتُ نحيلة وصغيرة، أتنقّل كجرذ في أزقّة القرية وزواريبها. ليس هذا ما أعطاني الشجاعة للتسلّل إلى إحدى فتحات التهوئة، بل يقيني أنْ لا أحد يلحظني في المقهى أو خارجه.

كنت أسترق السمع إلى أحاديثهم وأغاني أمّ كلثوم وفايزة

(١) ورق الكوتشينة.

Twitter: @ketab_n

أحمد، ووردة التي يسمّونها «ورضة». لكنّ السُباب كان الأعلى.

كان الدخان يغطّي المكان، ويتكاثف في السقف ويضطرّني أحيانًا إلى الفرار، قبل أن أسعل ويُكشف أمري.

كانوا يفعلون بحرّيّة كلّ ما هو مقزّز، يُدخلون أصابعهم في أنوفهم ويمسحون القذارة بالطاولات والكراسي، يحكّون أعضاءهم الجنسيّة علنًا، يضرطون ويتجشّأون...

لم أندم لأنّي لم أعش مع أبي أو جدّي، ولأنّه لم يعشْ لجدّتي ابن يكون لي خالاً، ولأنّ عمّي كان يعمل في الكويت. كان لأيّ رجل في العائلة أن يكون واحدًا منهم، جالسًا يلعب الورق معهم، يضرط ويحكّ أسفله ويقامر ويكفر عشر مرّات في الدقيقة مزدريًا الله كما يفعلون، كأنّ الأمر علكة يمضغونها بعفويّة.

يأتي رجل بطيء الخطوات، على خصره ثلّة عصافير ميتة، وبيده ورقة طويلة، ويروح يدور بين زبائن المقهى ويخبرهم بالأسماء ليختاروا: جواد الليل ـ غضنفر ـ فرناس ـ بلقيس ـ أبو زيد ـ عنتر ـ الستّ بدور... من يريد الاشتراك يختار اسمًا ويدفع قطعة معدنيّة، في النهاية وبعد شراء الأسماء يفتح الخانة الأخيرة ليرى أيّ اسم ربح: الستّ بدور!

ـ «ما هيديك المرّة كانت بدور خرا كلاب! كلّ مرّة بدور... ما في بدري شي مرّة ولا عرص!!».

يثرثر الخاسرون، وينال من اختار الستّ بدور الجائزة وهي ثلّة العصافير.

Twitter: @ketab_n

نوع بدائي من المقامرة التي يدمنونها كالليخة والترنيب والبيلوت والأربعميّة... كثيرون منهم يلعبون «بالسبق»، يراهنون على الخيول ويخسرون، وآخرون يدمنون القمار. يقصدون بيروت للعب القمار والسبق. أعرف بنات بعضهم في المدرسة، لا يملكن الكتب أو الأقلام ولا حتى الجوارب.

مرّةً، رأيت أحدهم يغشّ ويُخرج من كمّه ورقة! كدت أصيح، لكنّ رجلاً آخر كشفه، وانتهى الأمر بشجار مضحك، يُشبه شجارات إسماعيل ياسين وتوفيق الدّقن.

اجتمع الناس من كلّ صوب لمشاهدة المعركة. نزلتُ ودخلتُ المقهى مع عددٍ من الأولاد نبتوا كالفطر. لم أخفْ من الإصابة، أردتُ أن أدوس أرض المقهى، وأنظر إلى فتحات التهوئة.

طردوا الأطفال، فهربنا كالجرذان دالفين إلى أقرب مخبأ. سارعتُ إلى جدّتي أحكي لها ما حصل. كانت تستمع مبتسمة، بينما أتت خالتي من خلفي وأمسكتني من أذني: «شو ودّاكي عالقهوة ولي مقصوفة العمر!».

علقتُ.

منذ ذلك اليوم، ما عدتُ أقربُ المقهى، لظنّي أنّ خالتي ستخبر النسوة، وهنّ سيخبرن أزواجهنّ الذين قد يوقعون بي ويضربونني.

* * *

Twitter: @ketab_n

حين أكاد أختنق بدموعي في ليالي بؤسي، أخرج إلى الشرفة التي كانت «ترسينة» خطرة، وأجلس قبالة البحر حالمةً أن ألمس يومًا مصابيح المراكب والسفن التي تلمع فيه. أتمنّى لو أنّني لم أنجُ حين ولدتُ، ولم أنجُ حين وقعتُ من هنا.

لكنّ نبوءة أمّ نجيب صدقَت. البناتُ يرفسن الموت.

أمّ نجيب نفسها قذفَتْ كرةَ الموتِ من مرماها إلى مرمى زوجها العفيّ، الذي لم يشكُ شيئًا طيلة عمره، حتّى صُداعًا.

كانت تُنازع في فراشها، بينما هو في السوق يشتري حاجات المنزل، ويقول لكلّ من يسأله عن زوجته بيأس: «ع الله».

في الصباح التالي نعاه شيخ الجامع.

ظنّ أهل القرية أنّ الشيخ مخطئ، وأنّ أمّ نجيب هي المعنيّة وليس زوجها. لكنّه كان هو.

Twitter: @ketab_n

مات في كامل صحّته واطمئنانه.

في عزائه، حسدتُه لأنّه لم يتألّم. مات هانئًا.

المعزّيات ندبنه وقلن إنّ الموت غدر به، لكن هذا لم يؤلمني، مسموح للموت بأن يغدر بنا، لأنّه لا يترك لنا فرصة العتاب واللوم أو حتى الندم.

بعد موته توقّفت أمّ نجيب عن ذكر مساوئه، من ضربه لها إلى زواجه بامرأة حلبيّة، التقاها حين كان يبيع القماش في سوريا.

ما عادت حين تذكره تكرّر مثلها الأثير: «شو بدّي أذكرك يا سفرجلة، كلّ نتشة بغصّة». «بو نجيب» كان السفرجلة، قاسية وجافّة وتعلق في الحلق، لكنّه صار قطعة «حلقوم». صارت تسمّيه «المرحوم بونجيب الله يرحمو». تقولها بأسى وإحساس بالذنب، لأنّها جلبت عزرائيل إلى البيت فأخطأ الفراش.

* * *

Twitter: @ketab_n

كانت جدّتي قدَ تعافَت قليلاً ذاك الصباح، فانتعشَ أملي أن يكون ما حلّ بها مجرّد كبوةٍ عابرة.

أطعمتُها وغسّلتُها وألبستُها ملابس نظيفة. نامَت فانتهزتُ الفرصة لأنعم بإغفاءة قصيرة.

لكنّني صحوت مذعورة بعدما رأيت في منامي الساعة تدقّ الثانية عشرة. كانت لدقّاتها خفقات قلب مذعور. شعرت أنّ ما حلمت به هو ساعة موتها.

نظرتُ إلى أقرب ساعة فوجدتُ أنّها العاشرة.

نظرتُ إلى جدّتي، ووضعتُ إصبعي تحت فتحة منخريها. كانت تتنفّس.

قمت أصنع لنفسي كوب يانسون علّه يهدّئني. لكنّه لم يُجدِ.

Twitter: @ketab_n

جلستُ أراقبها. أعدّ أنفاسها ونبضها.

الثانية عشرة ودقيقة، ودقيقتان، وعشر دقائق.

نبضها دافئ وناشط.

تنفّستُ الصعداء، وقرّرتُ نسيان هذا الكابوس. لكنّه لم يمنحني الوقت. عشتُه بعد ١٢ ساعة أخرى.

. . . . . .

كيف خدعتني العقاربُ؟ كيف غفلتُ عن أنّ في اليوم أكثر من ١٢ واحدة؟!

١٢ ظهرًا و١٢ ليلاً.

* * *

Twitter: @ketab_n

أبلّل قطنة بـ «المازهر» وأمسح وجهي، ثم أضعها فوق عروق معصميّ. طالما فعلت هذا لتهدئة روع نفسي. لا أعرف ممّن تعلّمت هذه الطريقة، أو إن كنت تعلّمتها أم ابتكرتها. لكنّني أذكر أنّ إحدى خبيرات التجميل كانت تتحدّث مرّة في التلفزيون وتوصي برشّ العطر على العروق، لأنّ هذا يجعلها تتفاعل جيّدًا مع الجسم، ويجعل رائحة العطر تدوم أكثر.

«المازهر» لا يدوم أكثر إن لامس العروق، بل هو يسكن في الروح. طالما آمنّا بأنّه يردّ الروح. ليس بفعل سحر، بل لأنّه روح بنفسه.

روح زهور البرتقال المرّ.

لكنّها للمفارقة روح حلوة وقويّة إلى درجة إنعاش الغائبين عن الوعي، وإعادتهم إلى الحياة!

Twitter: @ketab_n

أرأيتَ يومًا كيف تتحوّل الروح إلى ماء؟ ليست معجزة أو خيالاً، بل علمًا. الروح أقرب إلى البخار في مخيّلة البشر، والبخار بدوره يصطدم بشيء بارد فيتحوّل ماءً، لا بدّ من صدمة كي تقوم بعمل خارق كهذا. وهو ليس أمرًا نادرًا، لكنّ قليلين يعرفونه أو يهتمّون به، لأنّهم يخشون الأرواح والموت.

لا شكّ في أنّك قرأت رواية «العطر» التي أذهلتني وأرقدتني في الفراش ذعرًا من ذاك المجرم المعتوه.

لم أجدها في مكتبتك، بل اقترضتها من طالبة جامعيّة كانت تمرّ بالاستهلاكيّة أسبوعيًّا، وقد أعجبني العنوان فسألتها عن الرواية. أبدت حماسةً كبيرةً لسؤالي، كأنّها على وشك ترويض الريفيّة الجاهلة لتدخل عالم النور والثقافة. أعارتني الرواية، وقالت إنّها ستمرّ الأسبوع المقبل لتستعيدها، وتمنّت عليّ أن أنهيها في أسبوع. لم أخبرها أنّني أنهيتها في ليلتين متتاليتين، لأنّ إثارة إعجابها لم تكن في حسابي. لقد كنت أنا نفسي في دهشة عارمة، أفقدتني توازني عدّة أيّام.

مجنون يبحث عن ذاك السرّ، ويروح يذوّب الأشياء كي تنفث بخارها، ويتحوّل البخار إلى قطرات هي روحها الصافية المقطّرة النقيّة والطاهرة. جدّتي لم تعرف بطلاً لرواية، وما كانت لتصدّق حكايته، برغم أنّها ليست أغرب من حكايات غيلانها وجنّيّاتها، وما كانت ستعرف كيف تنطق اسم زوسكيند، وإن كانت تشترك معه في تقطير روح زهر البرتقال المرّ لتحصل على ما يُسمّى «المَازَهر»، الذي تبيع معظمه بربح ضئيل لكنّه يرضيها.

Twitter: @ketab_n

كنت أساعدها في قطاف الزهور.

نقصد كلّ شجرة برتقال من نوع «بوسفير» وأحبّ تسميتها نارنج، كما تُعرف في الكتب. هي الوحيدة التي تنفع صناعتنا تلك، وذلك لخير الشجرة، ففي النهاية ثمارها مُرّة ولا تؤكل ما يهدّد بقاءها، لهذا أوحت للبشر بأنّها ستكون نافعة لو قطّروا روحها كي لا يقطعوا نسلها، في صراع البقاء الذي علّمنيه داروين في مكتبتك ووجدتُ تفسيراتِه في تسكّعاتي.

دافعتْ شجرة النارنج عن بقائها ووجودها بأن تكون صالحة لصنع «ماءالزهر». كنّا نقصد كلّ شجرة يتيمة لا يهتمّ أصحابها بقطف زهورها. نستأذن أحيانًا ونقطفها حتى آخر زهرة، فوجًا بعد آخر، أسبوعًا بعد أسبوع... نجمعها ونقصد قرى أخرى، وتحديدًا الساحليّة، حيث بساتين الحمضيّات، قبل أن يهجرها أهلها وتموت خيراتها.

* * *

Twitter: @ketab_n

أغسل الفاكهة.

ثمار الأكيدنيا والتوت نضجت باكرًا.

اشتريتها من «المونوبري»! لم أشعر بالألفة هناك، برغم الساعات الطويلة التي أمضيها بين رفوف المعلّبات والزيوت والسكاكر والمناديل الورقيّة والمنظّفات... ذاك «المونوبري» كان شيئًا مخيفًا أشعرني بضآلتي وتيهي. سألتُ نفسي وأنا أرى أصنافًا لم أتخيّل وجودها: «ما الذي أتى بي إلى هنا؟»

كان الأمر أشبه بوحشة أوّل أيّام العام الدراسي. كنتُ أبكي أوّل يوم. لم يقتصر هذا على السنوات الأولى، بل حتى آخر عام لي. العام الذي لم أكمله. حين اكتشفتُ أنّ مكتبتك تكفيني، وأنّ أفضل معلّمة في تلك المدرسة لم تقرأ نصف كتاب من أصغر كتبك.

Twitter: @ketab_n

ما الذي أتى بي إلى بيروت؟ إنّها مكان قاحل. هواؤها أثقل ممّا تحتمل رئتاي. أمشي في الشارع ولا أعثر على شجرة أتفيّأ بظلّها. أرى عمارات أكلها الغبار والتلوّث، ومساكن من ألواح التوتياء، تعجّ بأطفال يشبهون متسوّلي صيدا وأوتوستراد خلدة.

كنتُ أراهم كلّ يوم عمل. يتجمّعون في محطّات الباصات، ويلاحقون الجميع بالعلكة والقدّاحات... أو بأيدٍ عارية. كانوا افتتاحيّة رحلتي اليوميّة الشاقّة، ومقدّمة أسوأ محطّاتها: عبور الأوتوستراد.

أقف مهزومة وأنا أراقب المركبات السيّارة العابرة بأحجامها المختلفة، مهزومة قبل دخول المعركة.

كيف أعبر؟ ومتى؟ وماذا يقول الموجودون في المركبات وهم يرون تردّدي وخجلي وبؤس نظراتي. حين أرى أشخاصًا يعبرون الأوتوستراد، أبحث عن تلك الملامح الغريبة التي تُظهر خوفهم من الموت وتشبّثهم بالحياة ـ برغم إذلالها لهم ـ يبدون كديوك زراعيّة يمسكها بائع الدجاج استعدادًا لنحرها، لكنّه يقرّر إفلاتها ومنحها أيّامًا معدودة من الحياة، لأنّ الزبائن ليسوا متطلّبين كفاية اليوم.

صور عديدة تتزاحم في رأسي وأنا أعبر الأوتوستراد. صور تختصر حياتي بالأبيض والأسود. لحظات قطع الأوتوستراد المفزعة كانت «نيجاتيف» حياتي التي طالما حسبتها مديدة، برغم أنّها ليست سوى ثلاثة عقود!

أعرف أنّ كثيرين ماتوا هنا. قذفتهم الحافلات عشرات

Twitter: @ketab_n

ومئات الأمتار، وفي جميع الاتّجاهات، لذا لا أخمّن في أيّ اتّجاه سترميني السيّارة أو الشاحنة التي ستنهي حياةً ما عدتُ أحبّ شيئًا فيها، حتى حكايات جدّتي ورغيف الخبز الساخن الذي آكله من فوق الصاج، والعمارات الكبيرة المتناثرة على جنبي الأوتوستراد.

كنتُ قد أغرمت بتلك العمارات من النظرة الأولى. كان لبعضها واجهات رخام وأخرى زجاج وأخرى ألومينيوم. اختلفت ألوانها وأشكال شرفاتها... لم أكن أشبع من النظر إليها.

حين توظّفتُ لاحقًا في الاستهلاكيّة، وصار مشوار خلدة إلزاميًّا، امتلكتُ الوقت الكافي لأحفظ كلًّا منها وأختار الأجمل بتأنٍّ شديد. كنتُ أسائل نفسي كيف يمكن للقدر أن يدور وأدخل إحداها. أوّل فكرة خطرت لي هي زواج إحدى أخواتي برجلٍ مقتدر، يُسكنها شقّة في خلدة! لم أفكّر في أن أكون العروس، ولم يكن أحد يتوقّع الزواج لي، أو يظنّ أنّي أفكّر في الزواج. حتى أيّام إلحاحي وشجاراتي الصاخبة مع جدّتي لتعطيني المال الكافي لشراء ليرة ذهب بجنزيرها، لم تشكّ في أنّي أريدها للفت نظر عريس يطمع بمالي، كما تُتّهم كثيرات من طالبات الزواج.

أذكر جيّدًا حين وقعَتْ وعجزتْ عن مغادرة فراشها، فطلبت معونة أختها الصغرى، التي تمنّعت متعلّلة بالعناية بأولادها. قالت جدّتي التي لم تنطلِ الكذبة عليها: «قال مشغولة بولادها قال... هي تجوّزت بشطارتها وجمالها مفكّرة! لولا الستّة سحب[1] بإيدها

(١) ستّ أساور ذهب متطابقة.

Twitter: @ketab_n

مين كان بدو يخلّي ابن العيّوق ياخدها؟ أَنِي قلت لها اشتري دهب، كان بدّي يّاها تلحق حالها أحسن ما تبوظ متل عمّتها... كانت طيزا كبيرة متلها... إسّه ما بدها تخدمني وأَنِي اللي خدمتها لمّا صمّدت لها مصاري السقي[1] ونزلت معها ع صيدا اشترينا الستّة سحب».

تعيد جدّتي حكاية «السقي» كأنّها حدثت أمس، وليس منذ خمسة عقود. كان زوج خالتها يجلب من بيروت لفافات الورق الأسمر الكبيرة والصمغ لبنات الحيّ كي يصنعن أكياسًا ورقيّة مختلفة الأحجام، وكان ينقدهنّ أجورهنّ وفق وزن ما أنجزنه. يسقين الورق بالغراء، ومن هنا أتى الإسم.

كانت البنات ينتظرنه عند الشارع. يخفن أن يُعطي البضاعة لغيرهنّ.

بثمن «السقي» اشترت بناتنا الفقيرات الذهب، ودخلت رنّة الأسوار الذهبيّة حيّنا، تقول جدّتي، فلا معنى لشراء الذهب إن لم تهزّ المرأة يدها ليسمع رنّاته الجميع. الرنّة التي طرب لها «ابن العيّوق»، فطمع بالأساور الستّ وبمزيد منها، وتورّط في عقد قرانه قبل شهور قليلة من انقطاع مورد الرزق الاستثنائي ذاك، وافتتاح مصانع للأكياس الورقيّة.

ادّخرتُ ثلاث سنوات، ولكنّ الحصيلة لم تكن لتشتري لي خاتمًا. كنتُ أعرف أنّ جدّتي تدّخر بدورها منذ سنوات. لم

(١) الطريقة اليدويّة لصنع أكياس الورق.

Twitter: @ketab_n

أخمّن المبلغ لكنّني طمعتُ به، ورحت أفتعل الشجار معها كلّ يوم، كي أشتري الليرة الذهبيّة وجنزيرها.

«كلّ البنات لابسين دهب، إلّا أني، لأنّي يتيمة وما حدا بيتطلّع فيي... وإنتي طول عمرك تشغّليني وتعتّلي عليي، وتضحكي عليي بشويّة قروش الشحّادة ما بتقبلهن».

وأخيرًا، أذعنت جدّتي، قالت وهي ترمي المال في حضني: «خدي خلّصيني منّك.. كنت شايلتهن لآخرتي».

لم أشعر بالندم إلّا حين لبستُ الليرة وجنزيرها. شعرت بأنّها كحبل المشنقة. لذا أعدتها إلى العلبة المخمليّة، وطلبتُ من جدّتي أن تخبّئها.

لم أفتح العلبة المخمليّة مجدّدًا إلّا قبل أسبوع من اليوم، حين بعتُها.

كانت جدّتي الطيّبة لتسمح لي ببيعها لأجل يوم استثنائي كهذا. كانت لتهبني كلّ ما ادّخرَته لأجل أن أحقّق حلم عمري.

* * *

Twitter: @ketab_n

أتذوّق الأكيدنيا فلا أعثر على حلاوتها المعهودة. ليس لأنّها نضجت قبل أوانها، بل لأنّ طعم فمي تغيّر هنا.

الهواء المثقل بالغبار والأدخنة عبّأت فمي ولعابي ومعدتي.

حتى لو أحضرتُ صبّار شجرتنا البرتقالي إلى هنا، لن يكون له المذاق الذي كان له فوق الشرفة قبالة البحر.

حين يأتينا زوّار سذّج من المدن، يمدحون فاكهتنا ويحارون في وصف طعمها، لا يعرفون سبب هذه الحلاوة الاستثنائيّة، لا يميّزون الهواء النقيّ المختلط بعصارتها، أو مياه الأمطار النظيفة التي شربتها طيلة الشتاء.

نضحك حين يغادرون. نقول: «هودي بهاليل البيارتة!!! غُشما، الله عاطيهم»...

نتّهمهم بالغباوة، كما يتّهموننا هم أيضًا. ولا يربح أحد في

Twitter: @ketab_n

هذه اللعبة الساذجة.

لو أنّنا التقينا يومًا بين نهايات الصيف وبدايات الخريف لأخذتُك إلى شجرة الصبّار، وقطفتُ أمامك ثمارها «بالقُمع» ذي العصا الطويلة، الذي صنعَته جدّتي كي تتجنّب وبر الثمار أثناء القطاف، ولانتزعتُ اللبّ من تحت الجلد الخشن والمكسوّ بالوبر المؤذي، وقدّمته لك من دون أيّ وخزة ألم.

كانت الأشواك الصغيرة تعذّب جلودنا، سواء أثناء اقتلاع الأعشاب الضارّة أو قطاف الزيتون أو قطاف الصبّار والعنّاب... وكنّا نتقبّلها كأنّها جزء من جلودنا.

وهكذا كان حبّي لك، أشواكًا سكنت جسدي، تحمّلتها لأنّها كانت سبيلي إلى شهد الثمرة.

اخترتُ الرمّان لأنّ ثماره كانت تحرس باب غرفتك في أثناء تسلّلي إليها. كنتُ أرى ظلالها برغم تحجّر الزجاج. كيف لتلك التيجان المرصّعة أن تُوارى؟

كنتُ أُخبركَ ـ وأنا أتخيّل وجودك معي في الغرفة ـ أنّ لعنةً نزلت بملكة فحوّلتها إلى شجرة رمّان. وبهذا تكون زهرة الرمّان أميرة! ولونها الحائر بين الأرجواني والشفقي هو الأمثل للأميرات العذارى.

صرتُ أجمع تيجان الرمّان وأحتفظ بها حتى تذبل تمامًا. لكن من سمّى الرمّان ملك الفاكهة لم يكن قد رأى الأناناس. كيف كان للإغريق أن يعرفوا قبل أن تجلب السفن المستكشفة تلك الثمار الاستوائيّة؟

Twitter: @ketab_n

كنت أسرح في الحقول الممتدّة أمامي. أعترف أنّي أحبّها برغم قسوتها، وبرغم معرفتي أنّ التربة التي تُنبِت كلّ هذه الخُضرة تحتضن عظام الكثير من البشر، وحكايات لا تتحلّل بسرعة، لأنّها أقوى من الزجاج والمرايا. جثث دُفنت ذات حقبة من زمن غابر إثر وباء مرعب... تنقل جدّتي عن جدّ جدّها أنّ الدفن استمرّ أيّامًا لأنّ الناجين القليلين لم يقدروا على دفن الميتين الكثر، وأنّ الفجيعة والخوف من انتقال العدوى لهم حيّرا أجسادهم القويّة المبنيّة حجرًا حجرًا بإسمنت اسمه البرغل. رواية تنامت من جدّ إلى آخر ومن جيل إلى جيل.

كانت مصادفة أن أولد في تلك البقعة من الكون الشاسع، حيث كلّ ما يُفرح النفس يثير الريبة. حيث أيّام الصقيع أطول من لحظات الدفء المعدودة، وشهور القيظ أطول من لحظات الخريف الهاربة. حيث على كلّ أنثى ـ لم تختر أن تولد أنثى ـ أن تبرّر قدومها إلى العالم وبقاءها فيه، وضحكتها لو علت قليلاً، وشهقتها لو ارتفعت... تبرّر نجاتها من المرض والموت وإصرارها على التمسّك بالحياة، برغم أنّها لا تنال منها سوى نقماتها وما علق في قعر الطنجرة من بقايا محترقة.

كان سلف جدّتي يخطب في بنات الحيّ ويهدّدهنّ بحقارة: «البنت من مشيتها بتنعرف إذا عاملة شي عملة». ثم في جلسة تالية يُعيد الفكرة مع ترويع أكبر: «الواحدة من مشيتها بتنعرف إذا بنت أو مرا».

بعد تلك العبارات كانت البنات الجالسات يكرهن الوقوف

Twitter: @ketab_n

والمغادرة إلى بيوتهنّ. يقمن على مضض، ويمشين متعثّرات مرتبكات، كأنّ كلّ واحدة منهنّ نسيت كيف تمشي. أضعن الكثير من صفائهنّ في مشوار نضجهنّ. صرن مضطرّات إلى إثبات عفافهنّ والتذكير به حتى من دون مناسبة.

أعذرهّن الآن لتباهيهنّ بدماء بكارتهنّ فوق «شرشف» سرير الزوجيّة. عرض تلك الدماء الحميمة كان لا شكّ واجبًا ثقيلاً، لكنّه كان يترافق مع الزغاريد وتوزيع المشروبات الباردة وكلمات التهاني.

سأعدّ عصير الرمّان غدًا مع بعض المياه الفوّارة والبرتقال. ستبدو كأسُك مغريةً حين أترك ورقة نعناع تطفو على سطحها، كما تطفو صفحة لقائك المجهض بفاطمة فوق سطح عذاباتي.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٣

يسقط الليل ثقيلاً على المدينة. لارتطامه بعماراتها صوت وحشٍ يتجشّأ.

لستُ هنا على الشرفة الآيلة إلى السقوط، أنظر إلى البحر الممتدّ أمامي والقرية الساحليّة التي تفصلني عنه، والتي لا أعرف فيها سوى بيت ماري وابنتها، اللتين هجرتاها في حرب الجبل، ولم تعودا إليها إلّا سائحتين أوستراليّتين.

ليس الوادي تحت الشرفة الآن، لأفكّر في إعادة تجربة السقوط، وفهم ما جرى بالضبط يومذاك، وبقي يتردّد في كوابيسي بمشاهد مبهمة ومؤلمة.

في السنوات الأولى، كان شيء ما فيّ يرفض النوم حين يحدس باقتراب الكابوس نفسه.

تكرّر هذا زمنًا، ثم صرت أخاف الأرق وأفضّل الكابوس،

Twitter: @ketab_n

لأنّني أعرفه وأحفظ ألمه عن ظهر قلب، وأعرف أين يبدأ وأين ينتهي، وأنّه لا بدّ سينتهي، أمّا الأرق الموجع ذاك، فلم يكن لألمه بداية من نهاية.

وكان أن زاد شقائي اليوميّ وتعبي الجسديّ، فصرتُ أنام كجيفة بنت آوى الباردة، وأحيانًا لا يقوى الكابوس في ذرواته المرعبة على إيقاظي، بل يفترسني حتى آخر قضمة وآخر نقطة دم، من دون مقاومة.

نوافذ العمارة المقابلة مسدولة الستائر. أصفر قماشها السميك شاحبٌ بسبب الغبار والشمس والمطر. ماذا خلف تلك الستائر؟ نساء يطبخن وينظّفن طيلة النهار، ويشخّرن في الليل من تورّم أقدامهنّ وآلام فقرات ظهورهنّ؟

هل تتألّم نساء المدن مثلنا؟

في حدث مفاجئ، تخرج امرأة نحيفة ترتدي بلوزة بيضاء خفيفة. أنعمُ النظر لأتيقّن إن كنتُ أرى ما أراه أم أتوهّم. إنّها بالتيشيرت فقط، ويبدو هذا جليًّا حين ترفع يدها لتأخذ رشفة من سيجارتها النحيلة مثلها.

ترمي المرأة عقب السيجارة وتدخل إلى الغرفة، لكنّها تتوقّف فجأة وهي ما زالت تعطي ظهرها للشرفة، ترفع ذراعيها وتخلع التيشيرت.

تسقط الملعقة من يدي وأشهق بينما قلبي يخفق. هل جُنّت؟ أم إنّا في قاعة سينما؟

Twitter: @ketab_n

يصير جسمها ظلًّا وتختفي في الغرفة، ثم تنطفئ الأنوار.

جمّدتني الصدمة في مكاني وشلّت تفكيري.

هل ما رأيته حقيقة؟

لمن قدّمت تلك المرأة عرض التعرّي؟ لشخص بعينه أم لمن يراقب؟ أم لي؟

تصير رسالة سعدى ملاذًا. أهرب إلى أيّ شيء يُنسيني ما رأيتُه.

فيمَ تفكّر عيْشة الآن؟ هل طلبتني فعلاً، أم هي حيلة من سعدى لأتولّى دفع مصاريف المستشفى؟

أتنفّس الصعداء. نعم، الأمر هكذا، يستدرجونني لأدفع، فأنا الموظّفة الوحيدة بين بنات عيْشة اللواتي يعرف أزواجهنّ كلّ قرش أتقاضاه من دون أن أفهم كيف؟

لن أذهب. فليتدبّروا أمرهم وحدهم. وإن أخرجوا عيْشة من المستشفى وأجّلوا العمليّة فإنّهم سيتحمّلون مسؤوليّة موتها إن ماتت.

ولكن؟ ماذا عنّي؟ ألا أكون مسؤولة؟ ألا أكون قاتلة؟

فلترحل هذه الأفكار عنّي. إنّني مجرّد فتاة تطهو لرجل تحبّه ولم تحبّ غيره.

بعتُ جنى عمري وعمر جدّتي لأجل هذه الوليمة، ولن أتركها وأرحل.

* * *

Twitter: @ketab_n

أصبّ المغلي في كاسات شفّافة، وأضع حبّات اللوز والصنوبر والجوز في الماء لأجل التزيين غدًا.

هل حقًّا ما أفكّر فيه الآن؟ أنت قادم إلى هنا لتأكل ما طهوتُه لك. هل ستصافحني وتتفحّص ندبتي كما فعلت يوم خطوبتك قبل ٢٥ عامًا؟

تلك الليلة، عادت البومة إلى الخرّوبة كعادتها كلّ ربيع. كان الجميع يتوقّع حضورها، لكنّ خالتي ذُعرت.

ضربتْ يدها على صدرها وشهقت، ثم أقفلتْ باب الشرفة والنافذة كي لا تسمع النعيق المشؤوم.

كان يمكن لذلك اليوم أن يُطوى في دفاتر النسيان، لولا أنّ خالتي استعادته بعد شهور قليلة، في تعليقاتها البخيلة على فسخ الخطبة، حين ذكّرت الجميع بصدق حدسها: «أَنِي كنت عارفة أنّو

Twitter: @ketab_n

مش راح تتمّ ع خير. . . ما البومة نقّت ليلة الخطبة».

لامتها تهاني: «إسّه شو خصّ طزّ بمرحبا»، عبست فاطمة فاستدركت تهاني: «يعني هادا نصيب، متل ما الله بيريد، شو خصّ البومة؟».

لم تحاول تهاني إخفاء فرحتها بفسخ خطبة خالتي، لأنّ ذلك كان فوق طاقتها. لم تزد آمالها في لفت نظر الحكيم وعائلته، لكن عدم اقترانه بفاطمة كان يرضيها.

حمّلت خالتي البومة الكثير من المسؤوليّة عن تعثّر حظّها.

في ليالي الربيع الحارّة، كانت تجبرنا على إقفال باب الشرفة والنافذة الوحيدة كي لا تسمع نعيقها. لا نملك أنا وجدّتي الجرأة على معارضتها. نفضّل التصبّب عرقًا على التشاجر معها. لكن ليلتنا تكون أهون من ليلتها. تُنهي جدّتي حكايتها وتنام، فأنتقلُ إلى حكاية أخرى وأغفو في قلبها باطمئنان، غير آبهة للحرّ. أمّا خالتي فتبقى مستيقظة. لا يُسمع لها صوت. لا تبكي ولا تتحسّر كما حدث بعدما تركها خطيبها، لكنّها تتقلّب كثيرًا. أسمع حفيف شعرها يدخل أحلامي، فأستعيره لنفسي. أحلم أنّه شعري وأنّه يطير في الهواء وأنا أتأرجح في غصن لوز مُزهر، وأنت تدفعني.

أشعر بالذنب تجاه خالتي، فأدعو لها أن تتزوّج أغنى وأوسم رجل في الدنيا، وأن تكون سعيدة.

أتمنّى أن أقول لها إنّ البومة بريئة وليست مسؤولة، فهي ظهرت أيّام الخطبة وكان فألها جيّدًا. أمّا يوم أتت خالة الحكيم

Twitter: @ketab_n

لتقول كلمتين: «ما في نصيب» فلم تكن ثمّة بومة، بل صيف وحرّ وأشجار مقفرة.

كانت يداي وأصابعهما العشر تخوض في البندورة الناضجة العائمة في وعاء، يمكن لعشرين فتاة هزيلة مثلي التحلّق حوله. وكانت جدّتي أمام «كرتونة» بندورة، بيدها سكّين تنزع بها البقع المهترئة. كان آخر الموسم، الوقت الذي تحصل فيه من مزارعي الساحل القريب على صناديق من البندورة الناضجة ونصف المهترئة بربع الثمن، وأحيانا مجّانًا.

جهّزتْ الوقيد وسألتني عن سبب تأخّر بقيّة الأولاد.

«جايين»، قلت بهدوء.

نحبّ، نحن الأولاد، عصر البندورة كلعبة وليس عملاً. نفقأ الحبّات بأصابعنا، فتخرج عصارتها وبذورها، «نطرطش» بعضنا بعضًا، ونتحدّى مَن الأسرع ومَن تصل الصلصة الحمراء إلى كوعيْه أوّلاً.

أتى بعض أولاد الحيّ ولم يكن لي بينهم صديق. كانوا فقط منافسين في ألعاب كهذه. ثم أتت امرأة. لم أكن قد رأيتها سابقًا، لكنّ جدّتي وجلت حين رأتها. كانت عبوسًا متجهّمة. دخلت واختلت بجدّتي وخالتي. لم أحفظ سوى جملة واحدة كانت تكرّرها: «ما في نصيب».

صار بيتنا كقِدر رُبّ البندورة، يغلي بفقاقيع حمراء أخرى. أنفاس جدّتي وخالتي صارت كالبخار الذي يخرج من الفقاقيع،

Twitter: @ketab_n

تحرقان بها نفسيهما قبل الآخرين.

رفضت جدّتي أن تحكي لي حكاية بنت الغول، قالت بصوت مختنق بالدموع «يلّا نامي». لم أستوعب المصيبة التي حلّت بالعائلة إلّا لاحقًا، حين رأيتُ خالتي ـ الكائن الجميل ـ تنقلب إلى كائن قاسٍ وعنيف، كأنّ مجرّد ترك رجل لها هو نهاية العالم!

لماذا أستهجن؟ إنّ فتاة مثلها تركت المدرسة بعد خطبتها، وما عاد لها همّ سوى «جهازها» ـ حتى إنّها سافرت إلى الشام لتشتري بعضه، وانكفأت فوق الصنّارة تصنع الكروشيه ـ فتاة كان لها كلّ ذلك الجمال والكبرياء، وكلّ أولئك الحاسدات والمتودّدين المرفوضين والقلوب المحطّمة... كان منطقيًّا أن تنكسر أو بالأحرى تنتكس.

التقطت أذناي الكثير من الثرثرات الخبيثة.

«الحكيم ترك فاطمة وهجّ، يمكن شاف عليها شي شوفة! لا، هوّي متجوّز هونيك... لا، هيي ساقطة ابتدائي وهوّي حكيم... هوّي غشيم وهيي بتاخد أحسن منّو، المسكينة كسر قلبها وخاطرها، وين راح يلاقي أحلى منها... يي الأجنبيّات حلوين بس حلا بلادنا طبيعي وبيعيش كتير ما بيتبهدل أوام... يعني نطر ليسافر ويتركها أكيد صار شي بيناتهم... يمكن سلّمتو حالها فكرهها لأنّها مرخرخة»...

كان هناك شرّ كثير في النفوس. شرّ أثقل من النفوس نفسها، وأستهجنُ كيفْ تحمله.

Twitter: @ketab_n

لكنّ خالتي صحت ذات يوم على قرار نهائي. على أمّها أن تتوقّف عن غسل شراشف المأوى وجزّ البقدونس والفرفحين. عشنا شهورًا في دوّامة شجارها مع جدّتي لتترك عملها المهين، وقد خُيّل لها، في خلواتها الطويلة مع نفسها، أنّه السبب في هرب خطيبها منها. وافقتها جدّتي أخيرًا بشرط: «لاقي شغل إنتي بالأوّل واسبتي فيه، وأني بترك هالشغلة إلي مش عاجبتك».

عملتْ خالتي فاطمة شهورًا قليلة في مصنع البسكوت ـ حيث خالها رئيس العمّال ـ وكانت تجلب معها عُلب البسكوت المحشو «بالكريما» التي كنت أعشقها، بعكسها هي التي ـ لسبب غريب ـ كانت تزيلها من بين طبقتي البسكوت وترميها لتأكل البسكوت وحده.

بعد فترة من الدوام المرهِق، تخلّفت ثلاثة أيّام متتالية عن الذهاب. يمرّ وقت نهوضها لكنّها تبقى نائمة. ظننتُ أنّها في إجازة، لكن، حين أتى خالها ليعاتبها، أخبرته أنّها لن تعود إلى ذاك العمل. قدّمت تبريرات واهية: «ريحة زنخة الكريما عم تضايقني، البنات بيتقْلو دمّ عليي، مشوار الطريق بيتعّب، وعجقة الأوزاعي وبدل النقل قليل»...

لكنّها لمّحت عرَضًا بسبب آخر في أحد أحاديثها مع تهاني: «بدّي إشتغل بمحلّ فيه ناس نضاف ومهمّين، مش شويّة عمّال ومعتّرين يطمعوا فيي ويسوّدو عيشتي... يعني على شو أنا ممكن أقبل بواحد منهم؟ ما بيسألو حالهم؟ شو عندهم لأقبل فيهم».

بمعنى آخر، اكتشفَت أنّ أفضل شخص في ذاك المصنع كان

Twitter: @ketab_n

خالها، وكانت تعرف جيّدًا الفقر الذي ترزح عائلته تحته.

تهاني كانت تجاري فاطمة وتحكي حكايات تشبه حكاياتها عن رفضها لعرسان ـ من خيالها على الأرجح ـ ورغبتها في الارتباط برجل ينتشلها من بؤسها، لكن لهجة تهاني كانت ركيكة، وقد ثبت هذا لاحقًا، حين تزوّجت بأوّل عابر سبيل طرق بالخطأ باب أهلها.

تثرثران وهما تتأمّلان البحر وتأكلان بزر القرع كبغاوين، ثم تسأل إحداهما الأخرى: «بدكش ننزل ع صيدا متل ما قلتي؟» تتّفقان على موعد لشراء الملابس الجديدة ودحض تهمة الفقر.

كانت جدّتي تُعطي خالتي من دون مساءلة، «تقطع من لحمها وتطعمها»، علّها ترضى عن حياتها، وتُشفى من نكستها الأولى. لكنّ شيئًا لم يُشفِ خالتي، بقيت النيران في مكانها، وإلى اليوم ما زالت تسأل نفسها السؤال نفسه: لماذا تركها؟

تقول النسوة، حين لا تكون خالتي موجودة، إنّه يُقيم عند رفاقه في بيروت حين يأتي في الإجازات. حين رأين زوجته الروسيّة عضضن شفاههنّ، وجحظت عيونهنّ، لأنّها بنّيّة الشعر وليست شقراء، كمعظم الروسيّات اللواتي جلبهنّ شباب القرية حين عادوا من دراستهم الجامعيّة المثمرة!

كان الحديث عنه محرّمًا في حضور خالتي، والنسوة يعرفن حدودهنّ معها، فجرحُ كبريائها جعل قطّتها تتنمّر، وأصبحت حين تغضب تسدّد رصاصات في الصميم، كلامًا قاسيًا وإشارات مباشرة للعيوب. لكنّهنّ لم يكنّ يخفن منها فقط، بل كنّ يشفقن

Twitter: @ketab_n

عليها، ويعتبرنها فتاة مظلومة، «جميلة من دون حظّ».

تلك الشهور القليلة في بيروت صوّرت لها المدينة كغابة، وسط أشخاص لم يستعذبوا لهجتها القرويّة الحادّة وصوتها العالي ـ الذي يعتبر عاديًّا في القرية ـ كانت في نظر عمّال المصنع البنت الجميلة الساذجة، ومحطّ سخريات البنات اللواتي غرن من جمالها وعافيتها وتورّد بشرتها وصحّة أسنانها وشعرها. سخرت إحدى البنات من كلمةٍ عفويّة قالتها، وحين سمعتُ غصّة خالتي وهي تروي ما حدث، حلفتُ ألّا أقول تلك الكلمة خارج البيت أبدًا، وإلى اليوم أتحاشى قول «ضبوة»، وأستعمل كلمات مثل جزدان ومحفظة.

في الطريق تعرّضَت لمضايقات جعلتها تكره ذاك المشوار، تحديق الناس إليها في الأوتوبيس الذي يتقابل ركابّه وجهًا لوجه جعلها تفضّل السرفيس برغم أنّه أغلى، فلم يعد راتبها يناسب ما تكابده، لذلك ولأسباب أخرى قرّرتْ ترك العمل والبقاء في المنزل.

الحرب أقفلت المأوى وليست جدّتي التي تركته. نُقل نزلاؤه إلى أماكن بعيدة من ساحة الحرب التي لم أفهم منها سوى أنّ اسمها «حرب الجبل»، وأنّنا نحن المسلمين طُردنا وهجَّرنا المسيحيين ـ لأنّهم تحالفوا مع إسرائيل ـ ونهبنا بيوتهم، وبيت ماري!!

حين عرفت جدّتي بنهب بيت ماري لطمت وبكت علنًا، لم تَخَفْ من المسلّحين أو النمّامين. انقطع الراتب الضئيل الذي

Twitter: @ketab_n

كانت تقول عنه «حجرة بتسند خابية». اختفت «الحجرة» فوقعت الخابية، وكي لا تنكسر، حملَتها جدّتي على ظهرها، وبقيتْ سنوات تنوء تحتها حتى حطّمت عظامها.

للتعويض كثّفتْ أعمال الحقل والزراعة وصناعة صابون الزيت البلدي، ما انعكس عليّ أيضًا، بصفتي مساعدتها المسيّرة لا المخيّرة، قبل أن أستقيل من تلك المهنة المُتعبة، وأدير ظهري لجدّتي ليلاً ـ كما كانت فاطمة تفعل ـ وأختار النوم في غرفة أخرى.

تجتاح خالتي فاطمة المكان فجأة. حيث ألتفت أراها، أسمعها تبكي ذاك البكاء المرّ ليلة فسخ الخطبة، أسمعها تتمخّط وتشهق تحت الغطاء. أسمع هذيانها تحت وطأة الحمّى التي أضنت جسدها الجميل.

أراها تمسكني من أذني وترمي بي نحو الحائط مهدّدة بجزّ فروة رأسي ـ أفظع ممّا فعلت أختها ـ لأنّها اكتشفت أنّني كنت أزور والدتك، وبكسر رجليّ اللتين داستا بيتكم.

حين كنتُ أدسّ دفتر يوميّاتك أو أيًّا من صورك تحت مخدّتي أو أسترق شمّه ولمسه، كان قلبي يختلج وأنا أنظر إلى سرير خالتي وأتصوّر أنّها اكتشفت ما لديّ. ماذا لو اكتشفت أنّ الخنجر الذي طعن قلبها موجود تحت وسادة تبعد عنها ثلاث خطوات.

طيلة تلك الليالي، كنتُ أفكّر في البنات مثلي اللواتي عشقن ويعشقن خطيب خالتهنّ أو عمّتهنّ. كنّ جميعًا في دائرة الشكّ. أعدّد أسماء بناتِ الحيّ والأحياء المجاورة في رأسي، وألصق

Twitter: @ketab_n

بهنّ خطيئة الحبّ المحرّم. لا أحتقرهنّ، بل أتعاطف معهنّ. يؤنسني أن أصدّق وجود بناتٍ يتألّمن هذا الألم ويقهرهنّ كلّ هذا الندم. لا يجوز لأحد لومي، فجميعنا مذنبات.

ماذا لو دهمتني الآن، وعرفت أنّني دعوتك، واكتشفت أنّني منذ سنواتي الأولى أحبّك، أي بعمر حبّها لك، وأنّني لم أتقاسم معها مآسي اليُتم والوحشة والوحدة فقط، بل حبّ رجل واحد أيضًا.

أراها في دقيق جوز الهند الناصع الذي يشبه صدرها وفخذيها، وكلّ ما تخفيه من جسدها، ولا تراه حتى الشمس. أراها في رائحة ماء الورد الذي كانت تبلّل به جسدها بعد الحمام، أراها في حبوب المغربيّة التي كانت تستعجل جدّتي لتفتلها لك قبل أن تُباغت بخبر سفرك الطارئ. ألن يخفّف عنها أنّك ستأكل غدًا المغربيّة التي وعدَتك بها قبل سفرك؟

لا، لا شيء سيخفّف عنها. الإحساس بأنّ أقرب الناس إليها يخونها ـ وطالما خانها ـ سيبعث كلّ الجروح من مدافنها، حتى جروح جدّتي.

بقيتْ جدّتي تتمنّى أن تراك، ولو في أحلامها، لتسألك عن سبب تركك لابنتها. وقد هرعت مرّة إلى أمّ نجيب تحكي لها أحد مناماتها: «شفت الليلة خير والصلاتو عالنبي.. إنّو الحكيم لاقاني بالشارع وقال لي إني كنت مريض وخفت اتجوّز...»، تقاطعها أمّ نجيب: «الرمل ما بينعجن واللي انكسر ما عاد يتصلح... قومي حاج تحكيلي منامات من بني وبني».

Twitter: @ketab_n

لم تعطِ أمّ نجيب جدّتي أيّ بارقة أمل. بعكس ما اعتاد الجميع منها، هي التي لم تكن تكتفي بتفسير أحلامنا بل كانت تحلم عنّا أيضًا.

تسوّي أمّ نجيب منديلها تحت شعرها الأبيض، أسمع خربشة شقوق أصابعها فوق المنديل الناعم. تقول بجدّيّة: «شفتلك بمنامي يا أمل إنّك لابسة أخضر بأخضر وحاملة جزدان أخضر! بتعرفي شو يعني؟ يعني جاية لجوزك رزقة كبيرة». . . تصدّق أمل. تتشنّج ابتسامتها على وجهها وتسارع إلى بيتها لتبشّر زوجها المفلس.

«اسمعي يا صباح، شفتلّك بمنامي إنّو عندك دجاجة قاعدة ع بيضتين، واحدة فقست والتانية لأ. . يعني بدّك تحبلي بتوم وتخلّفي واحد منهن».

حلمت للجميع باستثنائي.

لم تنادني يومًا لتفسّر لي حلمًا أو تبشّرني بشيء. هل كنتُ أستعصي عليها؟ أم إنّها لم تتوقّع أن تكون لي أحلام كبقيّة أهل الحيّ؟ لماذا لم تحلم بي أرتدي فستانًا بنفسجيًّا؟ هل لأنّ هذا اللون ليس مألوفًا في حيّنا، ولأنّ البنفسج لم ينبت في تربتنا؟ كان لها أن تقول «توتيّ» أو «بتنجانيّ»، لكنّها لم تخصّني بأيّ من رؤاها تلك.

أدخل غرفة النوم وأُخرِج الفستان التوتي ثم أعيده إلى مكانه. توتيّ وليس أزرق. فهل ستحبّه أنت؟ وهل أسأتُ الاختيار؟

Twitter: @ketab_n

الحقُّ أنّي أسأتُ اختيارك أنت، إن جاز اعتبار الحبّ خيارًا.

إنّها خيانة. ما أقوم به خيانة ونذالة.

سأتّصل بك وألغي الموعد. سأخترع أيّ حجّة. ما لي ولك بعد هذه السنوات، ماذا سيتغيّر إن رأيتني أم لم ترني، إن تذوّقت طبخي أم لا؟ عليّ أن أُشفى منك، وأنساك وأمضي إلى حياتي التي حرمتُ نفسي إيّاها.

سأذهب إلى المستشفى وأرى عيْشة ضعيفة، وقد أسمع اعتذارًا منها، قد تقول «سامحيني» وقد تدمع عيناي، أو أدفع لقسم المحاسبة من دون دخول غرفة عيْشة، وأنتظر نتيجة العمليّة في أزقّة صيدا، حيث أدمنتُ التجوال ومشاهدة واجهات المتاجر.

أكتب رسالة هاتفيّة.

تحيّة، عسى أن تكون بخير،

أعتذر منك لظرف طارئ سنلغي

موعدنا في الغد.

لم يبق سوى الضغط على زر «send». هل تطيعني إصبعي؟

* * *

Twitter: @ketab_n

في الخزانة، حيث يهطل توت الفستان من دون كلل، عثرتُ على البيجاما الساتان البيضاء. إنّها أجمل بكثير من كلّ ما رأيتُه في جهاز عرائس قريتنا.

أردتُ شيئًا ملائكيًّا أنام فيه عشيّة لقائنا، كي أحتفل بالحدث، كي أليق بالحلم الذي يوشك أن يتحقّق. اشتريتها خليعة أيضًا: دانتيل وساتان، شورت قصير له فتحتان عند جنبيه، البلوزة بحمّالات رفيعة ودانتيل ناعم يحتضن الصدر برقّة. اشتريتها من بيروت وليس من دكّان قريبتنا، كي لا يشكّ أحد في شيء، ولأنّ أجمل قطعة في دكّانها لا تساوي نصف جمال هذه، ولأنّ بيروت ليست سوق معارفي، ولن يعرفوا سرّي؟

هذا ما أردتُ النوم به عشيّة وصولك. ما أردتُ أن يلمسني قبل أن تصافحني.

Twitter: @ketab_n

أرتدي البيجاما بسرعة، كأنّ أحدًا سيدخل ليضبطني عارية. أرتديها وأرتمي فوق السرير. أتناول دفتر مسوّدتي وأقرأ بعض ما كتبتُ أخيرًا، ثم أفكّر أين سأضعه كي تعثر عليه بالمصادفة المفتعلة!

أغفو.

يفلت العصفور من يدي ويتطاير ريشه الناعم، أهوي نحو الساقية. هنا مئات الجماجم لأجداد ماتوا بالكوليرا... ينبت لي ريش فرخ عصفور، أذعر لأنّ روائح كريهة تنبعث منّي، ولأنّها ستفضحني بين الناس. سيعرفون ما أخفيه تحت ملابسي.. أحلم أن يسترني التراب للأبد.. وتتداخل الأحلام بالكوابيس بينما امرأة تنوح باكية طفلها...

أستيقظ من غفوتي.

لم أرسل الرسالة.

آه! الموبايل في المطبخ!

أغفو مجدّدًا وأؤجّل إرسالها إلى الصباح. سأترك لمنامي أن يرشدني إلى ما عليّ فعله.

يفلت العصفور من يدي ويتطاير ريشه الناعم، أهوي نحو

Twitter: @ketab_n

الوادي وأميل مع الهواء نحو الخرّوبة، صوت تهليلة أمّ حزينة ومفجوعة يتردّد في الوادي. لا أفهم كلمة ممّا تقول، لكنّني أعرف أنّها عن أمّ أضاعت رضيعها.

أنظر إلى السماء فأرى ابتسامة الله لي. لن يرميني في جهنّم، ولن يحرقني لأنّ جلدي رقيق جدًّا ومعدتي صغيرة لا تتحمّل أكواب الزقّوم، الله يحبّني ولن يميتني الآن... الله يحبّني. أتمسّك بأغصان الخرّوبة وأصرخ.

آآآه!

* * *

Twitter: @ketab_n

شيء ما آلمني، لكنّني لم أستطع تحديده. كلّ شيء فيّ كان يؤلمني. لكنّي نجوت.

قد تكون هذه السماء التي انتقلت إليها.

كلّ شيء حولي كان هادئًا، ورائحة عطر خفيف مع شيء يشبه رائحة الصيدليّات والسبيرتو. ثم تحرّك شيء أمامي. ظلّ إنسان. أكاد أسمع زفيره. اقترب أكثر، وسألني.

سمعت ولم أتمكّن من الردّ.

شو إسمك؟

قدّيش عمرك؟

قدّيش هودي؟

أرى ظلّ كفّ، لكنّني لا أرى الأصابع. ينهكني التركيز

Twitter: @ketab_n

عليها، فأغمض عينيّ ثانية، وأسمع جيّدًا في الظلام غناء المرأة الكرديّة لطفلها الضائع.

كان رضيعًا، ولم تجد من يعتني به في خلال عملها في «خيام بو صالح»، حيث تقطف الفجل والبقدونس والفريز... وضعَته عند حافّة الجلّ ومضت. ويبدو أنّها ابتعدت ووصلت إلى ثلم الفريز، فاشتهت حبّة، تلفّتت حولها لتتيقّن أنّ أحدًا لا يراها، وقبل أن تأكل شعرت بتحجّر ثدييها، إنّهما محتقنان بالحليب، ما يعني أنّه وقت رضعة صغيرها. لم يبكِ طالبًا الطعام كعادته. رمت السلّة التي كانت تجمع فيها الفجل والبقدونس وركضت. تناثر كلّ شيء إلّا حبّة الفريز التي نسيتها بين إصبعيها. لم تجد طفلها. نثرت التراب فوق جسدها وصرخت ثم راحت تركض حول المكان تبحث عن صوت بكائه الذي لم تسمعه.

وُجدت فاقدة الوعي، مدمّاة بالفريز. أمهلها أبو صالح فرصة لتبحث عن ولدها، لكنّها لم تعد إلى العمل. بقيت تبحث عنه، وتقصد خيم «النَوَر» الذين اتّهمتهم بسرقته، لكن حتى الدرك لم يصدّقوها.

تعود لتبيت عند أقاربها، الذين سكنوا الملحق الملاصق لبيت جدّتي، وحين يهبط الليل تغنّي ترنيمة لرضيعها، ولا تتوقّف لتمسح دموعها التي أراها في صوتها من خلف الجدار الذي يفصلنا. تغنّي له كي ينام في الدفء والأمان، ولا تسكت حتى يُنهك صوتها عن آخره.

أتذكّر النغم لكنّني لا أذكر الكلمات، لأنّها كانت باللغة

Twitter: @ketab_n

الكرديّة. ولم يكن ذلك مزعجًا أو مؤسفًا، لأنّني لم أبحث عن ترجمة، فقد كنتُ مطمئنّة إلى أنّني أفهم روح تلك الترنيمة: الفقد الموجع.

ما أسفتُ عليه فقط هو أنّني لم أستعد تلك الترنيمة أبدًا. إنّها من الأشياء التي فقدتُها إلى الأبد.

* * *

Twitter: @ketab_n

أنظرُ إلى سقف الغرفة. لا تشقّقات كالتي في بيت جدّتي لأتخيّلها كما يحلو لي.

أحاول العودة إلى النوم والترنيمة تتكرّر في رأسي. أحاول تخيّل ما عسى أن تكون تلك الكلمات؟

ماذا حلّ بتلك المرأة ورضيعها؟ كنت أكبره بستّ سنوات، والمنطق يقول، برغم مرور زمن، إنّني سأبقى أكبره بستّ، وإنّه الآن شابّ في الرابعة والعشرين.

كنت أضبط نفسي متفرّسة في وجوه شبّان أقدّر أنّهم في مثل سنّه، أبحث عن تلك الترنيمة في ملامحهم، عن صوت الأمّ وشوقها إلى رضيعها وخوفها عليه من الموت جوعًا.

كنت أتمنّى أن أجده، فأمسكه من يده ونذهب إلى حقل الفريز، حيث فقدتْه أمّه، التي قد تكون ماتت على الأرجح.

Twitter: @ketab_n

اختفت فجأة، لكن أغنيتها لم تختفِ، ربّما خفتت قليلاً كأنّها ابتعدت بضع خطوات. كذلك اختفى أقاربها. دفعوا آخر أجرة وقالوا إنّهم عائدون إلى الحسكة في سوريا. لا أذكر شيئًا عنهم. كأنّهم سراب. وحين أسأل أهل الحيّ عنهم، وعن ترنيمة تلك المرأة الكرديّة، ينكرون أسئلتي ويصمتون هنيهة كأنّها دهر، وهم يتفرّسون فيّ، مثبتين التهمة التي لازمتني: الجنون!

الجنون الذي يعنونه ليس فقدان الرشد، بل تخيّل أشياء لا أساس لها من الصحّة. اختلاق أشخاص لم تلدهم رحم، تصوّر أغانٍ لم يؤلّفها لسان.

حتى جدّتي تقول إنّها لا تذكر، وإنّ هذا حدث منذ زمن بعيد، أبعد من يوم مولدي: «ما كنتي خلقانة يمكن».

كلمة «يمكن» هي التي تؤكّد قولي وتدحض أقوالهم. بلى، كنتُ قد ولدتُ وجاوزتُ سنوات طفولتي الأولى. وكنتُ أبكي بينما المرأة الكرديّة تغنّي. طلبت جدّتي منّي أن أنسى الأمر، لأنّ المآسي تقع فوق رأس من يذكرها.

هذا يفسّر المآسي التي حلّت بكلّ من سكن ذاك الملحق:

استشهاد ابن «أمّ حسن الفلسطينيّة»،

هروب ابنة عباس مع الجنود الإسرائيليين،

انتحار زوج كريمة بجرعة مبيد زراعي.

* * *

Twitter: @ketab_n

وصلتنا أخبارٌ عن كلّ من سكن الملحق إلّا المرأة الكرديّة!

تزوّجت كريمة بأخي زوجها وسكنت مع ضرّتها خادمة لها.

تجنّد ابن عبّاس في الجيش، وبنى بيتًا لأهله. تزوّج فتاة جميلة برغم دمامته، ولم يكن مستهجنًا أن يحظى موظّفو الجيش والدرك بأجمل الزوجات، فهم يستيقظون باكرًا ويختارون أفضل الموجود: «وجه الصحّارة»، أمّا أساتذة المدارس ـ مثلاً ـ فيستيقظون بعدهم ويبقى لهم «البرارة» كما تصف «أمّ نجيب» الأمر.

توفّيت أمّ حسن في مخيّم البصّ في صور، ودُفنت ملابس حسن معها، كما أوصت.

ملابسه الفدائيّة بالتحديد هي شيء لا أنساه. لم أره بغيرها، حتى تيقّنت أنّه يُنام بها، لأنّني رأيته نائمًا بالبنطلون الفدائي

Twitter: @ketab_n

وسلاحه فوق خاصرته، فقط. كنت أدعو أمّ حسن لشرب القهوة مع جدّتي بعد أذان الفجر. لم أخف منه بسبب السلاح أو الملابس أو بروز عضلاته، بل بسبب سمرته.

كان حالك السمرة. لم أعرف غير عائلة أمّ حسن بهذه السمرة. حتى البنات كنّ كذلك. أضحك من نفسي حين أذكر أنّي كنت أشبّههنّ بالباذنجان، فلكفوفهنّ تحديدًا لون قشر الباذنجان، ولباطن كفوفهنّ لون لبّه المدبوغ!

أراقب أصابعهنّ وهي تخرط الملوخيّة حتى تصير كالحساء. أراقبها تلفّ الدجاج في الخبز وتشبعه بالسمّاق لأجل «المسخّن»، طبقان لم أفكّر يومًا في طهوهما، لأنّهما مرتبطان بموت حسن وملابسه الفدائيّة الملطّخة بدمه، التي احتفظتْ أمّه بها، وكانت تُخرجها كلّ فترة لتندبه.

قبل موته خلّصني من عصابة ديبو حين هاجمتني أوّل مرّة.

ديبو فتى غير عادي، أشبه بقزم. رجلاه مقوّستان، ورأسه أكبر من جذعه.

رأس رجل فوق جسم طفل. هذا وحده كان كافيًا لبثّ الذعر في قلوب الأطفال. لم يكن يرعبنا نحن فقط ـ الأصغر منه ـ بل من هم في سنّه أيضًا، فكانوا يختارون الانضمام إلى عصابته كي يتجنّبوا مواجهته.

حين رأوا «حسن الفلسطيني» بزيّ الفدائي وخيال سلاح في كتفه فرّوا كالجرذان.

Twitter: @ketab_n

لكن، في المرّة الثانية، لم يظهر. لم يكن لأحدٍ أن ينقذني من ثلّة الفتية «الزعران»، الذين كانوا يلاحقون الأطفال ليسلبوهم ما لديهم من نقود وألعاب وحتى نفايات. كانت تلك غنائم يعتزّون بها، وإن لم يجدوا شيئًا كانوا يكتفون بضرب الطفل أو إخافته.

كنتُ في الحادية عشرة، ولكن هذا لم يردعهم.

في المرّة الأولى، أرادوا «الطقّيشة» التي صنعتُها من صمغ اللوز وحبّة خرطوش فارغة. وفي المرّة الثانية، أرادوا المزيد: «الطقّيشة» والانتقام من نجاتي في المرّة الأولى.

كان ثأرًا بيننا.

ركضتُ بسرعة نحو البيت، تفوح منّي رائحة زهور النارنج التي هيّجتها مسامي المتعرّقة خوفًا. سمعت أحدهم يقول لرفيقه: «لاقي لها من قدّام».. سيقفزون من جلّ إلى آخر ويصلون إلى باب البيت، لذلك قرّرت أن أدلف إلى أوّل ملجأ أجده.

كانوا ليعرفوا مكاني بتتبّع رائحة النارنج فقط، ولكنّهم لم يفطنوا لهذا.

لم يكونوا بتلك الرقّة.

لم أكن أملك سوى خمس ليرات، هي نصيبي من مساعدة جدّتي في قطف زهور النارنج، أي برتقال «بو صفير»، لأجل صناعة ماء الزهر. كنتُ أفضّل الموت على إعطائها لديبو وعصابته، ولأنّهم كانوا ينادونني بابن السحبة ـ لا بنت السحبة ـ

Twitter: @ketab_n

فقد ركضتُ كصبيّ، وتسلّقت شجرة، وقفزتُ عن سور، حتى صرتُ على سطح غرفة ملحقة ببيت جارنا «بو محمود»، فتحتُ الباب، وحين فُتح بسهولة تذكّرت حديث نسوة الحيّ عن أنّ «بو محمود» حوّلها إلى غرفة لابنه الحكيم، ليدرس ويستريح فيها حين يأتي من السفر.

قفزتُ من فتحة السقف لتتلقّفني كنبة. لم يثر وقوعي الغبارَ فقط، بل بقايا رائحتك التي تركتَها هنا.

عرفتُ أنّي في أمان، فلا أحد يجرؤ على اقتحام حديقة أمّ محمود العصبيّة، المرأة الشرّيرة التي يخافها حتى ديبو وعصابته.

إنّني في تلك الغرفة لم أنجُ من الأولاد الأشرار فقط، بل من دنيا الشرّ كلّها. هناك عثرتُ على نفسي، وعرفتُ ما عليّ فعله.

إذ سمعتُ خطو أقدام العصابة يبتعد، تلفّتُّ حولي لأكتشف المكان. كان ضوء النهار يأتي متشظّيًا من زجاج النافذة المحجّر، لكنّه كان كافيًا لأعثر على المكتبة المفزعة.

رأيت مكتبك، أوراقًا ودفاتر وأقلامًا حقيقيّة مملوءة حبرًا، وأوراقًا بيضاء. قصص شعبيّة، ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة نجيب محفوظ ويحيى حقّي وجبران ونعيمة ومارون عبود... أسماء لم أسمع بها. من هم هؤلاء ولِمَ كتبوا كلّ هذه الكتب، ومتى؟ هل يكفي عمر واحد لكتابة أربعة أو خمسة كتب؟

وأنت؟ هل قرأت هذه الكتب؟ لا يتصوّر عقل أنّ مكتبة كهذه موجودة في حيّ متهالك فوق ساقية جافّة، على الحافّة مباشرة،

Twitter: @ketab_n

حيث توشك القرية أن تقع.

أشعار أبي نواس، شعر الغزل عند العرب، تاريخ الأدب العربي، الحبّ العذري... ما هذه الكتب وهل قرأتَها كلّها؟ من أنت؟ إذا قرأتُ كتبك هل سأعرفك؟ سأفهمك؟ سأفهم لمَ تركتَ خالتي؟ لمَ سافرت بعد أيّام قليلة من الخطبة؟ ولمَ أرسلت إلى أهلك بعد شهرين كي يفسخوا الخطبة، ويقولوا لخالتي وأمّها كلمتين: «ما في نصيب».

هل أنت شخص آخر غير الإنسان الذي سبّب آلامًا كبيرة لعائلتي، وأهرق دموعًا كثيرة في بيت جدّتي، وجرح كرامة أكثرنا كبرياء؟ هل أنت شخص آخر غير الشرّير الكريه الذي لم يبرّر سبب تركه خالتي المذهلة الجمال، ما أشاع الأقاويل والإشاعات، وترك الخبثاء يتكاثرون كالفطر في ظلّ يوميّاتنا الرطب.

لقد أشقيتنا جميعًا، فهل سأجد في هذه الغرفة تعويضًا، وستحاول من دون قصد أن تعوّضني، وتفتح لي أبواب عوالم خفيّة.

من هو هذا المتجهّم؟ أقترب لأقرأ اسمه: «دستـ.. دسـ يو ف.. سكي..» عادة أهجّئ بصعوبة، ومع اسم معقّد كهذا سأحتاج إلى ربع ساعة لتفكيك حروفه وربطها ببعضها.

كان دستويفسكي وروائعه التي خلبتني، يليه جبران الذي أتى في موعد المراهقة المناسب، وتفتّح برعم الحبّ العذري والأوّل في قلبي.

Twitter: @ketab_n

استنتجتُ أنّ دستويفسكي كاتبك المتميّز، لأنّك وضعت أوراق شجر وزهورًا كثيرة في كتبه. معظمها كانت أوراق دالية وزهور دفلى، جفّت بين أوراق الكتب. لم أعرف لماذا تفعل هذا؟ لماذا تضع الزهور والأوراق بين أوراق الكتب؟ لتترك علامة؟ لتعبّر عن حبّك للكتاب والصفحة تحديدًا؟ أم لتعرف كم مضى من الوقت؟

نعم، كنتَ تؤرّخ بأوراق الزهور والشجر. هذا ما استنتجتُه بعد جهد.

صرتُ أستبدل بأوراقك اليابسة أوراقًا أخرى. ليس فقط لأحتفظ أنا بأوراق لمستَها بيدك ووضعتها بنفسك بين الصفحات، بل لتجد الأوراق التي قطفتُها ووضعتُها بيدي، ولتعثر على أثر منّي، قد يدلّك إليّ ذات يوم.

وضعتُ الكثير من أوراق شجرة النارنج وزهورها. حتى صارت مكتبتُك فوّاحة. لها رائحة الربيع و«المازهر».

إن عدتَ يومًا هل ستنتبه؟ وحين تغادر هل ستتذكّر؟

أخذتُ الكثير من عاداتك، إلّا تدوين اليوميّات. كانت يوميّاتي أتفه من أن تدوّن. لم أكن أفعل شيئًا مهمًّا سوى القراءة والطبخ. الذهاب إلى الحقول مع جدّتي بعد الظهر صار نادرًا، وما عادت تُرسلني لأبيع ما تحوّشه أو تصنعه.

ماذا فعلَتْ بكَ كلّ هذه الكتب؟ هل هي سبب سحرك وغموضك وتميّزك عن شباب القرية كلّهم ـ الذين أعرفهم على

Twitter: @ketab_n

الأقلّ ـ هل قرأتَ عن عالم مختلف وأردتَ الانتساب إليه، شعرتَ بأنّه أحقّ بك من عالم «حيّ الحفّة»، فاندفعتَ إلى أقصى العالم تبحث عنه؟ هل سيكون لي المصير نفسه إن قرأتُ هذه الكتب؟ هل ستُكتبُ لي بداية جديدة وحياة مختلفة؟ يبدو أنّ هذا أكثر ما عناني.

لم أكن قد انتبهتُ بعد لدفتر يوميّاتك وألبوم صورك.

لكنّني حين وجدتهما تعلّقت بهما كقشّة الغريق.

تصفّحت الألبوم بسرعة: تيم تحمله أخته وقربه أخوه الكبير محمود.

تيم في الرابعة من العمر.

تيم يدرس للشهادة. المقصود البكالوريا.

الصور بالأبيض والأسود. أنت وسيم فيها كلّها. أختك هند تحملك مرغمة، كأنّها تخشى أن تبوّل على فستانها.

بقيتُ أربعَ ساعات في الغرفة، وحين انتبهتُ لإمكانيّة أن يتفقّدني أحد ويبحث عنّي، وضعتُ دفترك وألبوم الصور تحت ملابسي، وهممتُ بالخروج من فتحة السقف، ولكن لم ينجح الأمر.

كان عليّ التضحية بأحدهما، فاخترت الدفتر لأنّني أحتاج إلى وقت طويل لقراءته، أمّا الألبوم فيمكنني تصفّحه في أيّ وقت أعود فيه إلى غرفتك.

Twitter: @ketab_n

تسلّلتُ بخوف، كأنّني أحمل أعظم سرّ في الكون. خبّأتُ الدفتر بين شوالات الطحين والسكّر والأرزّ فوق السقيفة، ونزلت أساعدُ جدّتي في تقطير زهور النارنج التي قطفناها.

بعد نجاحي في التسلّل إلى غرفتك، أصبحتُ أجلس أطول فترة ممكنة قبل أن تلاحظ جدّتي وخالتي غيابي، وقبل أن يلاحظ أهلك وجودي. أراقب الطريق وشرفة تهاني المطلّة على غرفتك والحديقة، ثم أتحيّن الفرصة لأهرب كالصاروخ مع شيء من أثرك.

أعيده بعد قراءته وآخذ غيره، وتكون أقصى سعادتي حين أقرأ في غرفتك، حين أعرف أنّ جدّتي في الحقل وخالتي في الصيدليّة.

أقرأ دفتر يوميّاتك مرارًا، وأتأمّل خطّك الجميل، وبعض الزهور التي رسمتَها في الهوامش. أتمنّى لو أنّني أحظى بيوميّاتك في روسيا. ماذا كتبتَ عن الخطبة؟ ولماذا فسختَها؟ وماذا عن مشوارك وخالتي إلى صيدا؟

أبتلع بصعوبة شوكةً ضخمة وأنا أذكر ذاك المشوار الوهميّ الخادع.

أنا الوحيدة التي تعرف أنّكما كذبتما. لم تذهبا إلى صيدا. ولكن، برغم ذاكرة طفولتي القويّة، المتفوّقة على ذاكرتي القريبة بما لا يُقاس، لم أجرؤ على اعتبار ما أذكره يقينًا. وقد آثرتُ تناسي الأمر حتى لا تواصل أشواك الصدمة والغيرة افتراسي.

Twitter: @ketab_n

كنت أنام بعد ظهيرة ذاك اليوم في المساحة المهملة بين المطبخ وغرفة النوم.

نمتُ حزينة، لأنّني سمعت جدّتي تقول إنّك اصطحبت فاطمة مع أختك هند إلى صيدا. ذهبتم من دوني.

لكنّني، في أحلامي، سمعتُ همساتٍ رقيقة، كأنّها موسيقى.

كانت تأتي من غرفة النوم التي لا أعهدُها مغلقة أبدًا، لكنّها كانت كذلك.

كانت رائحة عطر تنبعث في المكان، ممزوجة برائحة طلاء أظافر.

تبيّنت صوت خالتي. كانت تكتم ضحكة وتفلت منها شهقة، تخالطها أصوات غريبة لرجل على الأرجح. لم أفتح الباب. شعرتُ بأنّ عليّ المغادرة، ليس خوفًا، أو خجلاً، أو احترامًا لمن أغلقوا الباب عليهم، بل لأنّني أردتُ أن أرحل.

رحتُ أجمعُ قواقع الحلزونات في محيط البيت ووصلت إلى الساقية. رفعت رأسي نحو الشرفة فرأيتكما. كنت تمسك يدها وتنظر إلى البحر، بينما هي تنظر إليك كأنّك بحرها الذي لا يُنال.

يدها بين يديك، ونظرتها إليك، وتلك الوقفة الحالمة، أوحت لي لاحقًا أنّكما طالما التقيتما وتحابتما في السرّ، واليوم تفعلان الأمر من دون خوف.

لكنّي تعمّدت تجاهل ما عساه حدث في الغرفة، التي حين دخلتها لإخفاء كيس القواقع بين اللحف، عثرت على علبة

Twitter: @ketab_n

«ماكياج» وقوارير طلاء أظافر وعطر و«صندلٍ» عالٍ أبيض اللون.

لاحقًا، حين راحت الحيرة تمزّقني، ندمتُ لأنّني لم أبحث عن أثر ما كان يحدث بينكما هناك. حين كان رفض فاطمة المجّانيّ لطالبي يدها يؤرّق جدّتي، كنت أهمّ بإخبارها أنّ السبب هو ما حدث منذ سنوات في غرفة النوم هذه بالتحديد.

يوم زواج فاطمة كنتُ مضطربة، كأنّني على يقين من أنّها ليست عذراء. وحين مرّ الأسبوع الأوّل على خير، وتلته أسابيع رتيبة، صدّقت أنّ رواية غرفة النوم المغلقة هي محض خيال نزق، أو من وحي رواية أميركو ـ لاتينيّة قرأتها.

كانت ليلة دُخلتها صعبة جدًّا عليّ. لم أفتقدها كما فعلت جدّتي، ولكنّي أردت بقوّة غريبة وغير منطقيّة أن تكون أنت معها في تلك اللحظة، وليس سواك. أردتُ أن أستلقي في فراشي وأتخيّل أنّها تكتم ضحكاتها وأنت تغازلها، فتنبعث تلك الموسيقى الجميلة وروائح بطلات الروايات الفانتازيّة. نعم، بطريقة ما أردتك أن تظفر بها. لا جديد في أن تأكلني الغيرة، هو أمر اعتدته ويمكنني تقبّله.

إن أتيتَ وكشفتَ حقيقتي، وعرفت أنّي حلتُ من دون لقائك بفاطمة قبل خطبتها الرابعة، التي أفضَت إلى زواجها، لو عرفتَ أنّي ساهمتُ في رحيل فاطمة الجميلة، وفي اختفاء شعرها تحت الحجاب، وفي انهيار أحلامها بفارس يقلّها إلى عالم أفضل... لو عرفتَ هل ستغضب؟ هل سيغضبك أنّي أذيتُ فاطمة أكثر ممّا أذيتَها أنت؟ أم أنّي أحببتُك أكثر ممّا أحببتَ نفسك؟

Twitter: @ketab_n

سألغي الموعد. أو أطلب تأجيله للحفاظ على هامش التواصل.

أراجع الرسالة وأعدّلها:

تحيّة، عسى أن تكون بخير،

أعتذر منك لظرف طارئ سنضطرّ إلى تأجيل موعدنا المقرّر في الغد.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

يوقظني صوت الأرجوحة الصدئة، كأنّه يد جدّتي توقظني للصلاة والفلاح في الحقول. وكما كان يحدث في تلك الصباحات، أخفي أذنيّ تحت لحافي وأعود إلى أحلامي الدافئة.

صوت الأرجوحة أعند من إلحاح جدّتي.

أجلس في السرير. أتلفّت حولي. الآن، وأنا هنا، في بيروت، كيف لي أن أسمع صوت أرجوحة عزيز المتهالكة؟

لا أذكر متى سمعتُها للمرّة الأولى.

كان عزيز ـ مالكها ـ يتركها تحت المطر والشمس، من العيد إلى العيد التالي، كأنّه لا يجوز للأطفال التأرجح إلّا في مناسبة جليلة. كان يشوّقهم إليها كي يدفعوا ما جنوه من «عيديّات»، وكانوا يفعلون بطيب خاطر، كأنّهم، بدورهم، يتعمّدون الاشتياق إليها.

Twitter: @ketab_n

كانت عند مدخل الحيّ. ولكن، برغم بُعد المسافة، واستحالة أن يكون هنا كمن يتأرجح بعد منتصف الليل القارس، كنتُ أشعر بأنّ الصوت المفزع، الذي يوقظني من نومي، هو صوت حديد الأرجوحة الصدئ المغلّف بطبقة من الجليد!

كنتُ طفلة، وكانت الأسئلة ترعبني. من يتأرجح؟ أطفال الحيّ أم دخلاء؟ عجوز مجنونة أم جنّيّة أم غول؟

كان الصوت يوقظني بين عام وآخر. لم أربط بين التواريخ ودلائلها، لكنّها كانت ليالي شديدة الظلمة والبرد.

انقطع الصوت بعد زواج فاطمة وانتقالها إلى بيت آخر، وعاد في مرّة يتيمة، عشيّة وفاة والدك، التي أجبرتك على المجيء إلى الحيّ.

كان الصوت كأنين ساعةٍ تراوح مكانها، كحركة طفل يدفع الأرجوحة بالسرّ، بعدما نام الكبار الذين يحرمونه من التأرجح.

هل هو أنت؟

مرّةً، قرّرت أن أكسر أصفاد الخوف وأخرج.

خبّأتُ كفّيّ تحت إبطَيّ، لا أرجو دفئًا، لأنّ قلبي نفسه كان متجمّدًا.

كانت طفلة بقصّة شعر قصيرة مشعّثة، ترك البرد قبلاته الحمراء على خدّيها وأنفها. حتى فستانها الصوفي المشغول بصنّارتين رشيقتين بدا بردان.

Twitter: @ketab_n

نظرتْ إليّ ففهمتُ ما تريده.

اقتربتُ من دون خوف، دفعتُ الأرجوحة، فطارت كأنّها ريشة!

كانت خفيفة. أخفّ من روح!

فاحت رائحة «عطر الليل» حين تحرّكت، فرحتُ أدفعها بسرورٍ لم يدخل قلبي منذ زمن.

ثم قالت من دون أن تلتفت إليّ: «مرق من هون بس ما شافني».

سألتُها: مين إنتي؟

ردّدتْ: مين إنتي؟

أنا عم إسألك

أنا عم إسألك...

راحت تكرّر ما أقوله، ثمّ اختفى وجهها وقدماها الحافيتان. لكن بقي فستانها الصوفيّ المشغول بحبّ وعناية يتأرجح برفق.

قيل في الصباح التالي إنّ الجان كانوا في الحيّ، وكانوا يتأرجحون. تُليت الآيات القرآنيّة عدّة ليالٍ، حتى اطمأنّ أهل الحيّ إلى أنّ الجنّيّات لن يعدن.

أنا غرقتُ في صمت لأيّام. لم أتكلّم إلّا لأطلب من ماجدة أن تعلّمني قطبة «السنبلة»، التي كانت تزخرف فستان فتاة الأرجوحة.

Twitter: @ketab_n

كانت ماجدة تهمّ بجمع غسيلها الذي تنشره أمام بيتنا ليستفيد من شمس الظهيرة، وكانت الصنّارتان لا تفارقاها حتى في الجلسات الخاطفة. لم تُبدِ حماسةً لطلبي، ولكن، حين شرحتُ لها تفاصيل الفستان، نظرت إليّ متعجّبة، وقالت إنّها سبق أن اشتغلت لي هذا الفستان وأنا طفلة، بطلب من جدّتي.

شعرتُ بقلبي يبطئ قبل أن يتوقّف نهائيًّا وبروحي تفارقني.

أشفقت ماجدة لحالي وقالت: «تعي شوفي كيف بتشتغلها، راقبيني».

اقتربتُ وراقبتُها وهي تعمل. تغرز رأس الصنّارة في خيوط الصوف ذهابًا وإيابًا، تلفّ الخيط فوق سبّابتها، وتتأنّى قليلاً، لألحظ ماذا فعلت.

أعطتني الصنّارتين. لم ينجح الأمر من المرّة الأولى أو الثانية. في حالات مشابهة كنت أستحقّ جولات أخرى، لكنّ ماجدة فقدت الحماسة بسرعة. قامتْ لتجمع غسيلها. تابعتُ العمل، ويبدو أنّي أفسدت السنبلة تمامًا.

لم تغضب منّي أو تنهرني، بل ضحكَتْ، وبضربة لن أنساها أخرجت الصنّارتين من الصوف، وراحت تكرّ الخيط الطويل، وتفكّ القطب التي أفسدتُها قائلةً: «هيدي مش سنبلة، هيدا قمح مجروش!!»، ثم لفّت الخيط الصوفي مجدّدًا وصنعت منه كرة، لكنّ الخيط بقي مجعّدًا.

تركتْ رائحة غسيلها في أنفي، ومشهد كرّ الصوف في عينيَّ.

Twitter: @ketab_n

لو أنّني أتمكّن من كرّ قميص طفولتي ومراهقتي!

لو أنّ قُطَب السنوات الماضية تعود القهقرى، لتبدأ صنّارتان جديدتان حياكةَ عمري قطبة مختلفة!

لو أنّني أعود طفلة تتأرجح أمام منزلها، وحين تغرب الشمس تأتي أمّها وتُعيدها إلى البيت، تغسلها وتُلبسها فستان نوم وتطعمها، ثم تضعها في فراش ناعم.

لو أنّني أعود طفلة جميلة بشعر ناعم ووجنتين متورّدتين! فتاة مراهقة تذهب إلى المدرسة وقد عقصت شعرها على شكل ذيل حصان. فتاة شكواها الدائمة هي أنّ أيّ ربطة، مهما كانت قويّة، لا بدّ من أن تزلق من شعرها لشدّة نعومته، كما كانت تشكو بعض التلميذات الغافلات عن النعمة التي هنّ فيها، واللواتي طالما أغرينني بشدّهنّ من شعر كلّ منهنّ، ونتفه عن آخره، ليتوقّفن عن الشكوى.

رغم الأماني، حدث أمر واحد: تقدّمت في السنّ. التعب الذي اختزنتُه جعلني أشعر بأنّ عمري مضاعف.

على أبواب العقد الثالث، أخاف كثيرًا من الشيخوخة.

لا يخيفني أن أهرم، بل أن أتحوّل إلى نسخة من عيْشة.

رأيتُ كيف تحوّلت نساء كثيرات حين كبرن إلى نسخات من أمّهاتهنّ وجدّاتهنّ. بعد الخمسين نتشابه، وتتقلّص الفوارق، ونجد إجابات عن معظم الأسئلة التي حيّرتنا منذ الطفولة.

لذا نتساوى لحظة الموت، وأحيانًا تتساوى قصصنا، برغم

Twitter: @ketab_n

اختلاف التفاصيل، وتتشابه تواريخ حيواتنا، تصبح مجرّد نسخ متتالية لكاتب غير بارع، يُعيد الكتابة ويُعيد بشكل مملّ.

لحظةَ الموت نحاول استذكار ما مضى، ونخلص إلى التالي: وُلدنا وعشنا وعانينا، فرحنا قليلاً وحزنّا كثيرًا وضاعت أحلامنا، ثم تعبنا ونضبت مياهنا ومتنا. لنا جميعًا التسلسل نفسه والحبكة نفسها.

صارت خالتي تشبه عمّاتها حين بانت تجاعيد وجهها الأولى. برغم اختلافات كثيرة، عثرتُ على جينات والدة جدّي وبناتها في وجه فاطمة.

عيشة أيضًا صارت تشبه جدّتي.

جيلاً بعد آخر، لسنا هنا سوى نسخٍ متتالية، ومع كلّ نسخة تفقد الصورة الأصليّة شيئًا من أصالتها وحقيقتها. نصبح وهميين أكثر.

حين رأيتُ جدّتي في وجه عيْشة المحتضرة هلعتُ، هل سأتحوّل إلى نسخة من عيْشة حين أهرم؟

تأكّدت هواجسي حين نصحنا الطبيب، نحن بناتها، بفحص مبكر للسرطان، بحجّة أنّه وراثي!

ستورثنا إرثين ثقيلين برغم أنّها معدمة: سرطانها وشكلها.

* * *

Twitter: @ketab_n

صوت أذانٍ بعيد يجهد في التسلّل بين أصوات المكيّفات.

نومي المضطرب وقلقي لا يسمحان لي بمعرفة إذا كنت قد رأيت «منام الأرجوحة» أو تذكّرته فقط.

كان هذا أفظع من كابوس «الشرفة والعصفور».

ولكن، كيف كان الليل باردًا بينما موجة الحرارة المجنونة إلى ارتفاع؟ وكيف كانت تلك الفتاة ترتدي فستان صوف حاكته صنّارتان أسمع الآن أزيز احتكاكهما...

«أنا روح، روح العصفور»، تتردّد جملتها الأخيرة.

هل يحدث فوق هذه الأرض أن نرى روح العصفور؟

كانت جدّتي كثيرًا ما تنهرني إذا بالغتُ في التذمّر: «خلص اسكتي... روحي قدّ روح العصفور».

Twitter: @ketab_n

للروح حجم إذًا، ولكن ليس ما عنته جدّتي هو ما أبحث عنه.

الروح شيء صغير جدًّا يتسلّل من قبر محكم، وكبير جدًّا لا يتّسع له مكان.

لماذا نزور المقابر وليس فيها سوى عظام موتانا، بينما أرواحهم طليقة في مكان أرحب. إنّ زيارة القبور مضيعة وقت. فقط حين نموت نزور موتانا فعلاً، لأنّنا نلحق بهم.

أشعر أحيانًا أنّ موتي سيكون أسهل شيء في حياتي.

برغم المفارقة إلّا أنّها حقيقة مريحة. سيكون الموتى هناك في انتظاري.. يقودونني خطوة خطوة. كما يحدث حين نولد، نجد دائمًا من يعتني بنا ويعلّمنا، مع اختلاف الفرص التي تسنح لكلّ منّا.

ألهذا انقطعتُ عن زيارة قبر أبي؟ هل نجحتُ يومًا في تناسي السبب الحقيقي؟

ذات يوم، في جوار قبر أبي تعثّرت بقبرٍ محفورٍ على شاهده اسمي وكنيتي، فزعتُ وضربتُ يدي فوق ثوبي كي أتأكّد أنّ جسمي هنا، معي، وليس تحت الشاهد.

كانت تلك عمّتي التي سُمّيتُ باسمها تكريمًا لذكراها، أو ربّما لسبب آخر يتعلّق بغريزة عيْشة التي تمنّت موتي، أو رأت روحًا ميتة في عينيّ، حين رفضتْ إرضاعي وأنا في الساعات الأولى من عمري.

بعد تلك الحادثة انقطعتُ عن زيارة قبر أبي.

* * *

Twitter: @ketab_n

النتيجة أنّني غفوت ساعة فقط.

ساعة غير كافية لأريح بشرتي كما نصحت خبيرة التجميل، وغير كافية لأعثر على إشارة ما، تدلّني إلى ما عليّ فعله: أذهب لأودّع عيْشة المحتضرة أم أستقبلك.

ألجأ إلى السماء كعادتي. أنظر إليها طويلاً وأنتظر إشارة. إنّها قليلة وواطئة، كأنّها تسقط مختنقة ببطء.

أقول لنفسي: إذا أمطرت الآن سألغي المأدبة. لكنّ السماء تسمعني ولا تمطر. فأقول مجدّدًا: إذا أمطرت خلال نصف ساعة سألغي المأدبة، وأرسل الرسالة.

أفكّر باللحم النيء الذي سنلتهمه معًا، وكابوس القيظ يبعث طعم الحموضة في فمي. ماذا لو فسدت الكبّة؟ وطغت الحموضة على طعم الحبق والمردقوش!

Twitter: @ketab_n

أقفز كالمجنونة من أوّل المطبخ إلى آخره! لِمَ أجلب المردقوش!!

ماذا سأفعل الآن؟ وليمتي مهدّدة بالفشل مع طبق كبّة نيئة من دون مردقوش!

هل عندي حلّ غير العودة إلى البيت لجلبه؟

ماذا لو رأتني إحدى الجارات، وقد أشعتُ منذ أسبوع خبر سفري إلى الشام مع زميلاتي في الاستهلاكيّة؟ ماذا لو رأتني خالتي؟ أستبعد السؤال لأنّ احتمال مجيئها إلى بيت أمّها شبه معدوم. ماذا لو رآني زوجها بحاجبيَّ المشذّبين وأظافري المطليّة، التي ينعت صاحباتها بالضالات تاركات الصلاة. حين ردّدتُ عليه مرّةً أنّ مصلّيات كثيرات يضعن طلاء الأظافر، فهنّ لا يصلّين كلّ الأيّام! لم أشرح له بداعي الخجل وليس الخوف. لكنّه لم يخجل، قال إنّه عذر أقبح من ذنب!! إنّها تعلن للجميع أنّها في دورتها!

كيف يفكّر ذلك الرجل؟ كلماته كالسوط تجلدني: «واحدة بلا تربية، لا إمّ ولا بيّ!» حتى جدّتي لم تدافع عنّي. لم تقل إنّها ربّتني. كانت ترتجف ذعرًا منه.

ماذا عن المردقوش إذًا؟ قد يضربني زوج خالتي ويشوّهني ويمنعني من العودة إلى بيروت! من أين أجلب المردقوش؟ هل أبحث عن حديقة منزليّة في الجوار؟ هل يزرع أهل بيروت الحبق والمردقوش مثلنا، أم أنّ كلّ شيء يتطلّب الحنوّ والرعاية لا يدخل يوميّاتهم؟

Twitter: @ketab_n

هل أخرج الآن أسعى على وجهي لأجل «طربون مردقوش». لا عجب أنّ أوّل حروفه «مرّ»، لأنّنا حين نأكله نشعر بتلك المقدّمة المُرّة، ثم تتحوّل المرارة إلى شيء يضرب أقصى الجمجمة، ويفتح قنوات الأنف الداخليّة، حتى يصل إلى شُعب الهواء الرئويّة!

ها قد مرمر يومي ووليمتي. فما العمل؟ لِمَ ارتكبتُ هذه الحماقة المجّانيّة؟؟ لِمَ؟

أؤجّل الأسئلة. سأجلب المردقوش بأيّ ثمن. سأقنع نفسي أنّه في الثلاجة الآن وأتابع عملي.

* * *

Twitter: @ketab_n

أشعر بجوع فاحش. أبحث عن الشوكولاتة التي أحبّ أن أبدأ نهاري بها.

لأنّني متوتّرة آكل أكثر من الحصّة المعتادة.

شوكولاتة سوداء، ثم بسكويت بالشوكولاتة السوداء، وكوب شاي من دون سكّر.

مئة بذرة من ثمرة الكاكاو كانت تساوي حرّيّة عبد.

أتذكّر هذه المعلومة كلّما أكلتُ شوكولاتة. وإذ أزدردها أعرف في أيّ رخاء أنا. كان البشر يبذلون حرّيّتهم لأجل هذه البذور التي ـ من دون مجهود ـ تذوب في فمي، وترف عنّي لحظات على رأس أصابع قدمي، كراقصة باليه.

أردتُ يومًا أن أرسل إليك بالبريد وردًا وزهورًا وأعشابًا برّيّة مجفّفة: صعتر ومردقوش وسمّاق وطيّون ومريميّة وزوفاء، وطبعًا

Twitter: @ketab_n

زهور نارنج، التي كنت أتركها في غرفتك وبين أوراق كتبك مع أوراق النارنج نفسها... لكنّني لم أجد نفعًا من إرسال مغلّف لن أعرف ردّة فعلك عليه.

نسيتُ الفكرة حتى أعادها متوهّجة إلى فكري حلمُ يقظة، حين كنتُ، ذات ليلة رعديّة، أفكّر في أنّني كالكمأة وُلدتُ ضدّ الطبيعة، وفي أغرب حالاتها، نبتة في الرمال التي لا يلمسها إلّا وميض برق ضلّ طريقه إليها على الأرجح. كنتُ أفكّر والبرق يلمع أمام عينيَّ، فأغمضتهما وشعرت بيدي تقترب نحو فمك وتلقمك مكعّب شوكولاتة.

أمطرتْ بقسوة، فتحتُ عينيّ، بحثتُ عن فمك والمكعّب، لكنّني لم أعثر عليهما. لم أحزن حينها، بل فرحتُ لأنّني أُلهمت من البرق إهداء الشوكولاتة إليك.

لكنّ إرسال علبة شوكولاتة مميّزة لم يكن أمرًا سهلاً، إضافة إلى صعوبة الاختيار، وعدم إلمامي بالمذاقات التي تحبّها، وجهلي بأجود وأفخر أنواع الشوكولاتة، كان هناك الخوف نفسه الذي منعني من إرسال رسائلي إليك. تمنّيت إرسال رسالة وتلقّي الردّ فورًا. والآن، حين عرفت الإنترنت والبريد الإلكتروني، صارت أمنيتي ممكنة.

دخلتُ حديثًا عالم الإنترنت. عندي إيميل، ولكن ليس عندي من أراسله، خانة contacts فارغة. تُرى ما عساه يكون إيميلك؟

الليلة سأطلبه.

Twitter: @ketab_n

اخترت لبريدي الإلكتروني اسمًا اقتبسته من اسمك: تيماء. المفارقة أنّ كلّ اسمي الأصلي في اسمك، وأيّ اشتقاق لاسمك سيُبقي اسمي في الحسبان. لكن لعبة الحروف تتعبني. حين قرأت أنّ الثوم مرادف للحياة، لأنّ قلب حروفه العاميّة يعطي كلمة موت، جرّبت اللعبة مع اسمك، قلبت اسمك وحصلت على كلمة: ميت، ما يعني أنّ اسمك ضدّ كلمة ميت، أي أنّه قد يكون: حيّ. أعود لأجد نقطة وصل بيننا، إذ يصبح لاسم كلّ منّا حرفان فقط.

* * *

Twitter: @ketab_n

ساكن هذه الشقّة السابق لم يترك من متعلّقاته سوى علبة مرتديلّا صغيرة.

ربّما نسيها ـ أو نسيتها ـ لأنّها كانت محشورة في زاويةٍ أعلى خزانة في المطبخ. اكتشافي جعل قلبي ينقبض. عملي سنوات في مصنعٍ للمرتديلّا، في جوار صيدا، جعلني أكاد أتقيّأ حين أرى هذه العلب أو أسمع اسمها.

كانت نسوة الحيّ يرجين منّي أن أجلب لهنّ المرتديلّا. كنت أخبرهنّ الحقيقة المفجعة: «المرتديلّا جلاغيم اللحم والجلود والشحوم... زبالة الحيوانات». لكنهنّ لم يصدّقن، وبقين يأكلن المرتديلّا، بعكسي.

كان أجري قد تضاعف بعد فترة، لكنّه بقي في حضيض سلّم الأجور. إلّا أنّني كنت أضيق ذرعًا بعملي، وحين توافرت لي

Twitter: @ketab_n

فرصة العمل في استهلاكيّة في خلدة، بأجرٍ موازٍ ومن دون «بونوس» سنويّ، تركتُ مصنع المرتديلّا.

طيلة سنتين كنتُ أعمل رغمًا عنّي. فاطمة أيضًا.

لم يصدّق أحدٌ أنّها ستعمل بعد تجربتها الأولى في معمل البسكويت. لكنّ وقوع جدّتي ذات ظهيرة قائظة، وهي تقطف ثمار الصبّار العنيدة، وكسر وركها، جعلنا من دون دخل.

حين أتت إحدى قريباتها لتخبرها أنّ صيدليّة القرية تحتاج إلى موظّفة، أعجبها وقع الكلمة في الأذن: «موظّفة». لكنّها لم تذهب من فورها إلى الصيدليّة لتقابل الصيدلي، برغم أنّ المرأة حثّتها على ذلك: «يلّا عجّلي! قبل ما يدبّر واحدة تانية»، وشرحت لها ارتباطه بعمل آخر، وحاجته إلى ترك الصيدليّة بضع ساعات بين يوم وآخر، لهذا يريد من يحلّ محلّه ويبيع الدواء. أفهمتها أنّ مهمّتها بسيطة تقرأ روشتة الزبون وتعطيه طلبه.

ذهبتْ بعد يومين لتجد أنّ الصيدلي اتّفق شفويًّا مع ابنة رجل يُدعى «السمرة» على بدء الدوام مطلع الأسبوع، لكنّه حين رأى خالتي أبطل اتّفاقه الأوّل، وصارت خالتي موظّفة الصيدليّة، وصار الصيدلي الذي درس في براغ أسيرَ صيدليّته، لا يفارقها، حتى إنّه ترك عمله الإضافي ذاك، وأصبح يأتي باكرًا ليسبق فاطمة، فلا يتفرّد بها أحد العابرين. كان منذ رآها يغار عليها، كان هذا سبب ارتباطهما، وسبب فراقهما أيضًا.

* * *

Twitter: @ketab_n

رائحةُ قبر.

أعرف أنّها تفوح من قلبي حين أرى نبات الحبق، ولا تأتي من الحبق نفسه.

كانت جدّتي تزرع الحبق حول قبور موتاها. وكلّما يبست نبتة زرعت واحدة جديدة مكانها. لم تُفصح عن السبب لأنّي لم أسألها.

كانت تؤمن أنّ الموتى يتنفّسون. ولأنّ رائحة الجثث التي تحيط بهم كريهة، لم تكتفِ بزراعة الحبق والصعتر والمردقوش... بل زرعت شجيرة «عطرالليل»، التي يفوح عبيرها في الليل فقط.

ونحن نغادر ذات يوم جمعة، قالت من دون أن تلتفت إليّ: «غدًا لمّا موت ضلّي اسقيهن». تجمّدتُ مكاني بينما هي تابعت

Twitter: @ketab_n

مسيرها، كأنّها تمضي في نهاية فيلم بالأبيض والأسود.

شعرتُ بلوح رخام ثقيل فوق صدري، كالشاهد الذي سأُدفن تحته.

* * *

Twitter: @ketab_n

تمتدّ يدها في الظلمة، وبرفق تهزّني بضع مرّات قبل أن أغادر حلمي وأرافقها إلى أحلام يقظتها.

«يلّا راح يأدّن»، تقول.

أقوم شبه نائمة، متمنّية إكمال حلمي الذي تكون أنت فارسه غالبًا. أتوضّأ مثلها، ومع الأذان نصلّي صلاة العيد، ثم نحمل رزم الآس ونمضي.

يجلد البرد ظهرينا فننحني فوق الآس من ألم الصقيع... تطقطق أحذيتنا متآكلة النعال فوق حصى الزقاق. لا ننبس بحرف. فقط نزفر ونلهث، أو ننفخ بخار أنفاسنا في أيدينا علّها تدفّئنا.

تكون الثكالى تحديدًا على موعد سرّي صبيحة العيد. يزحفن من بيوتهنّ حتى في أشدّ الظروف وأقهرها. إنّه طقس لا فرار منه، زيارة موتاهنّ فجر العيد قبل أن يتمكّنّ من الاحتفال أو عدم

Twitter: @ketab_n

الاحتفال ـ سيّان ـ المهمّ أنّ الوفاء والأصول يوجبان زيارة الموتى أوّلاً، لأنّهم يعيّدون في مقابر باردة وموحشة، ولأنّهم ماتوا قبل أن ينالوا كفايتهم من ملبّس العيد وكعكه وملابسه الجديدة.

تتّجه كلّ زائرة بالفطرة إلى مقصدها، لا داعي كي تفتح عينيها لترى. قد يكنّ مقنّعات ويصلن، فهو سيكون مثواهنّ الأخير، ولا بدّ من حفظ الطريق إليه عن ظهر قلب. لذلك ليست في المقابر إشارات برغم اكتظاظها.

نحمل رزم الآس الذي تسمّيه النسوة الريحان! نرشّ القبر بالماء، ونضع الريحان في قوارير المياه المعدنيّة البلاستيكيّة... يعيش الآس أكثر من غيره، ويبقى أخضر لامعًا، لكنّ أعجب ما فيه ثماره التي تشبه الخرز اللؤلؤي الصغير. لم تكن تؤكل. ولا نعرف إن كانت سامّة. لكنّها كانت مشبعة بروائح الموتى وعرق الثكالى المتدثّرات بالأسود.

حين كشفتُ سرّ ثماره، خجلتُ من اللحظات التي حاولت فيها جاهدة أن أبكي أبي وأخفقت. احتفظتُ بالسرّ لنفسي: ثماره هي دموعه على الموتى.

حتى الآس بكى أبي بينما عجزتُ أنا.

تبكي جدّتي ابنها الرضيع، وأرتعش حين أقرأ تاريخيْ مولده ووفاته، العمر شهر، والعظام التي تحت هذا القبر صغيرة جدًّا كدمية القماش التي تصنَعها الأمّهات لبناتهنّ.

Twitter: @ketab_n

نحيّي كلّ من نلتقيه في طريق عودتنا. بدأ العيد الآن، ويمكنني ارتداء ما خاطته ابنة خالة جدّتي، «خيّاطة العائلة الفاشلة بجدارة».

فشلها بالكاد يُلحظ، لأنّ جميع الأطفال يلبسون ما تخيطه خيّاطة فاشلة أخرى، يستعينون بها على الفقر، فلا يبدو لنا الفارق بين الخيّاطة الجيّدةوالسيّئة.

أنتظر «العيديّات» والحلوى، وأن يفكّ عزيز الجنزير عن أرجوحته التي برغم صدأها تُفرح قلوب الأطفال، فيتدافعون بقطعهم المعدنيّة، يريدون التأرجح وتكرار الأغنية الوحيدة التي يحفظونها للمناسبة:

«يا ولاد أبو شرشوبة! يوبا... عيْشة المخطوبة! يوبا... خطبْها مين؟ محمّد أمين...».

لم نعرف من هم أبو شرشوبة وعيشة وخطيبها محمّد أمين. لكنّ حلم الخطبة للبنات والبنين كان يترعرع معنا منذ الصغر. كان يبدو أنّ الكبار يعدّوننا لمصير واضح: الزواج.

فتية وفتيات، كان عليهم أن يتدبّروا أمورهم كي يتزاوجوا. تلك هي الرحلة الوحيدة المتاحة لهم. أمّا الرحيل إلى حيث يشاؤون، وحدهم من دون وصيّ، فذاك كان عارًا.

كانت سلام تحلم مثلي بالرحيل بعيدًا، إلى بيروت وجونيه ورحلة إلى الأرز والبردوني... قالت إنّها تحلم أن ترتبط بشابّ يملك سيّارة يأخذها إلى تلك الأماكن. قلتُ لها بأسلوبي الحاقد

Twitter: @ketab_n

على الأحلام المستحيلة: «بكرة بيصير أبعد مشوار بياخدك عليه هوي بيت أهلك... متلك متل كلّ الّي تجوّزوا».

اختفت ابتسامة سلام، لأنّها تعرف أنّي أقول الحقيقة، واختفت أرجوحة عزيز، من دون أن يعرف أحدٌ كيف ومتى. ظهرَت مدنُ ملاهٍ ضخمة ومكلفة في المدن، وبقي الفقراء من دون أراجيح أو حتى «أبو شرشوبة».

لم تكن جدّتي تفضفض بأحزانها لأحد إلّا الموتى. وهذا ليس وقفًا على صبيحة عيدي الفطر والأضحى، بل قبل ظهر كلّ يوم جمعة. تبكي وتفضفض، وأحيانًا تندب مستعيدة مآسيها. كيف تجاسر أهل زوجها عليها وحاربوها حتى على ابتسامتها، كيف ضربها سلفها بعدما فسخت فاطمة خطوبتها من ابنه. تقول كيف عاركت تلك المرأة الشرسة في معصرة الزيتون، وكيف أهانها صاحب المعصرة ودفعها إلى الخارج... تحكي كم أنّها متعبة وتتمنّى الانضمام إليهم.

آلمني شعورها بالذنب لأنّ من أحبّتهم ماتوا، وهي بقيت حيّة رغمًا عنها. لقد أجهضت أربعة أجنّة كلّها ذكور، ثم فقدت زوجها.

متناسيةً وجودي، طلبت عفوه مرّة معترفةً بقتله كمدًا، لأنّها لم تمنحه الولد الذي تمنّاه.

برغم أنّ الطبّ لم يكن متطوّرًا ليكشف سبب موته، مات على الأرجح بجلطة دماغيّة.

Twitter: @ketab_n

كانت جدّتي قد وضعت ابنتها فاطمة منذ أسبوعين، وكانت أمّها تعدّ لها المغلي والإينار[1].

لم يستيقظ برغم مرور موعد خروجه اليومي من البيت. تركتاه، لأنّ باعة القماش من أمثاله يعملون صيفًا، ويرتاحون شتاءً، يصرفون ما جنوه من أسفارهم وتجوالهم حاملين أثواب الأقمشة على أكتافهم بين فلسطين والعراق.

قبل أذان الظهر دخلت حماته لتوقظه، فرأت خطّ دماء خارجًا من أنفه. ذُعرت وراحت تدفعه ليستيقظ، وإذ قلبته وجدت الدماء تبقّع فراشه خارجة من أذنه أيضًا.

* * *

(١) شراب القرفة والينانسون. يُعدّ للمرضعة وزوّارها.

Twitter: @ketab_n

يتضاعف اشمئزازي إذ أتذكّر المرأة المتعرّية. لا شكّ في أنّها نائمة الآن بعد ليلة مرهقة. هل كانت تتعرّى لشخص بعينه؟ أم للجميع؟ وهل كانت هناك مناظير كثيرة تشاهد؟

للصباح مذاق مختلف هنا. مذاق الغبار والعوادم. أضرب يدي على فمي لهول الفكرة: هل سيتغيّر مذاق أطباقي أيضًا؟؟ أجفّف جسمي بسرعة كي لا أنسى نفسي وأنا أستعرض هواجسي تحت المياه، كما يحدث عادة.

أربط قمطتي وأفتح الثلّاجة.

أذهب إلى الصالة وأنقل الساعة إلى المطبخ.

أشغّل الراديو. أنتظر ما سترسله إليّ المصادفة.

«قلبي حبّك يا الأسمر من يوم كنت زغيرة تعذبت وقلبي تمرّر جنّ وداب من الغيرة.. لا لا..».

Twitter: @ketab_n

أغنية ضاربة في البلد. سخيفة إلّا أنّها تناسب هواة الرقص. منذ أيّام قال عنها أحد زملائي في الاستهلاكيّة: «طالعة غنّيّة لديانا حدّاد بترقّص الكلب»!

هو مشهور بخفّة ظلّه وتشبيهاته المضحكة، لم أضحك يوم ذاك لأمر كان يحزنني، لكنّني الآن ـ حين أتذكّر جملته ـ أبتسم وأنا أتصوّر مجموعة من الناس في عرس فوق أحد سطوح القرية يرقصون، وإذ تصدح الأغنية، تنزل إلى الساحة مجموعة من الكلاب السلوقيّة وتروح تهزّ أجسادها وترقص بحماسة.

منذ سنوات قليلة، انتهت موضة أعراس السطوح. صار الناس يفضّلون صالات الأعراس. تلك هي المناسبة الترفيهيّة الوحيدة لأهل القرية، قبل أن تنافسها موضة الموالد الدينيّة. تعرض العائلات بناتهاالمقبلات على الزواج، وتستعرض البنات براعتهنّ في الرقص والدلال مع تمنّع مفتعل في البداية بداعي الخجل، ويستعرض الشبّان ما يتوهّمونه وسامة أو فحولة تحديدًا حين يرقصون الدبكة.

أعرف أنّ قلوب البنات تتوقّف حين يرسم الشبّان حلقة الدبكة، ليس لأنّ بإمكاني قياس نبضهنّ، بل لأنّ الدبكة بقيت لعبة رجّاليّة، ولم تتقنها الإناث اللواتي آثرن الفرجة، أو بالأحرى أُخِذن بها عن بُعد.

أغيّر المحطّة بحثًا عن الأبراج، متعطّشة إلى كلمة تبعث فيّ التفاؤل. لكنّني لا أجد سوى أغانٍ سخيفة ونشرات أخبار عن كوارث ومصائب. يبدأون بأفظعها: مئات القتلى ثم عشرات

Twitter: @ketab_n

القتلى ثم القتلى الفرادى.

وأخيرًا جملة طيّبة: «توقّعات بانخفاض درجات الحرارة وانحسار موجة الحرّ والرطوبة».

أشغّل الكاسيت مكتفية بهذا الخبر المنعش خشية أن يليه خبر سيّئ.

أغنية «قلبي ومفتاحو».. أُحبّها، لأنّ «فريد» يغنّيها في فيلم «رسالة من امرأةمجهولة»، وأحبّها لأجل عنوان الفيلم، فلا شكّ أنك حين تشاهد الفيلم تتذكّرني، أو تتذكّر الرسالة التي وصلت إليك من امرأة مجهولة ـ لو أنّها وصلت فعلاً ـ ولو أنّك مازلت تذكر تلك الرسالة.

رسالتي المجهولة. ماذا فعلتَ بها؟ مزّقتها أم رميتها في القمامة أم احتفظت بها وأين؟ هل بحثتَ عن صاحبة الخطّ؟ أم أنّها لم تصلك قطّ؟

الفارق واضح بين أوّل رسالة كتبتُها وتلك التي أرسلتُها. أحتفظ إلى اليوم بكلّ كلمة كتبتُها ـ وللأسف ـ بكلّ ألمٍ أردتُك أن تواسيه أيضًا.

لأنّني أردتُك أن تقرأ رسالتي ثابرتُ على تحسين كتابتي. كانت الإملاء نقطة ضعفي الأولى، يليها الحساب. تحسّنت في الكتابة دون الحساب.

في الاستهلاكيّة، لم أحتج إلى الحساب. حين أرتّب رفوف الأغذية وأُلصق الأسعار، أغيّر الأرقام بآلة أستلمها من المشرف.

Twitter: @ketab_n

لم أكن مطالبةً بكتابة حرف أو كلمة. أترك آلة الإلصاق تعمل، وأتخيّلك تأتي إلى الاستهلاكيّة، فنلتقي كأنّنا في فيلم سينما، تركض نحوي غير مصدّق أنّك عثرت عليّ، وتُرسم حولنا الزهور والفراشات.

لكنّ روائح الاستهلاكيّة الكريهة تصفعني. سواء الآتية من المسمكة أو التي تنبعث من الزبائن، تحديدًا النساء المحجّبات، اللواتي درجن في السنوات الأخيرة على اعتماد «التشادور» لباسًا رسميًّا. يمكنني تخيّل الطبقات السميكة لملابسهنّ تحت التشادور، السميك بدوره، من ثقل خطواتهنّ. حينذاك، كنت أشعر بشوق إلى تنانير جدّتي وأمّ نجيب المزركشة والخفيفة، ومناديلهما الناعمة كوجه طبق مهلّبيّة، وقمصانهما الوديعة، التي لها رائحة حليب الأمّهات و«المازهر».

احتفظتُ بملابسهما في الخزانة التي كانت لفاطمة قبل زواجها. لم أقبل أن أتصدّق بها كما تقضي العادة. كنت أعرف أنّها القطع الأخيرة من نوعها في حيّنا.

حين تحسّنتُ في الكتابة قرّرتُ ترك المدرسة.

كنتُ أكره كلّ ما فيها. وكنتُ أكبر التلميذات في صفّي. فقد تأخّرتُ في دخولها، ورسبت أكثر من مرّة، ما جعل مكاني المقعد الأخير، حيث تُلصق التهم التي يرتكبها الجميع عداي، ليس لأنّي بريئة فعلاً، بل لأنّني لم أقوَ على بذل أيّ جهد، حتى الشغب. أكون منهكةً من عملي بعد الظهر مع جدّتي الذي لا يعرف يوم عطلة.

Twitter: @ketab_n

أكون منهكة وأفضّل التفكير فيك. أغرق في أحلامي، وأكتب اسمك، ثم أغطّيه بالرسوم كي لا يراه أحد، وهكذا أبقى أكتبه وأرسم، حتى تمتلئ الصفحات والطاولة نفسها.

حين كتبتْ إحدى المعلّمات على اللوح «الرئس» بدل الرأس، أردتُ التصحيح لها، لكنّي خفتُ أن تعنّفني وتسخر منّي، فسكتّ.

مع جرس نهاية الدوام، سارعت الفتيات إلى رفع تنانيرهنّ فوق الركبة والتبرّج وفكّ قيود شعرهنّ، وسارعتُ أنا إلى غرفتك، وفتحتُ الكتاب الذي كان أوّل مصباح سحرني مارده: القاموس. كان للمبتدئين، ولمعظم الكلمات صور تشرحها، ما ساعدني كثيرًا في تعلّم القراءة والكتابة.

فتحتُ صفحة حرف الراء، وبحثتُ عن كلمة الرأس، وكانت فعلاً كما ظننت. لو أنّني امتلكتُ بعض الثقة بالنفس، لصحّحتُ للمعلّمة، وخرجت من دون عودة. لسجّلت موقفًا بطوليًّا في تاريخي المدرسي السيّئ. لكنّني لم أمتلك تلك الثقة يومًا، حتى وأنا أكتب لك، أبقى متردّدة، وأعود إلى القاموس مرارًا. لم أملك الثقة الكاملة إلّا في المطبخ.

انقطعتُ عن المدرسة ولم يلحظ أحدٌ غيابي. لامتني جدّتي، لكنّني لم أردّ عليها.

خطبة فاطمة والصيدلي أنست جدّتي الأمر. لم تبدُ خالتي سعيدة كما في خِطبتها الأولى، لكنّها لم تبدُ فاترةً كما في خِطبتها الثانية من ابن عمّها.

Twitter: @ketab_n

«التالتة ثابتة يا فطّوم». تهاني همَستها مازحة، وكثيرات ردّدنها بتوعّد. هل ستترك الصيدلي كما تركت ابن عمّها؟ هل قرّرت منذ تركها الحكيم أن تخطب وتترك هي لتنتقم لنفسها، لتكون صاحبة القرار، لا أن تجلس تخيط جهازها ويأتيها زائر من أهل خطيبها يُخبرها أنّه ما عاد يريدها.

كان خطّابها كثيرين، برغم أنّها شارفت العقد الثالث. قلّوا بعدما تركت ابن عمّها إلى النصف، إذ فهم كثيرون أنّها لن توافق على أحد إلّا لتتركه. أمرتْ جدّتي أن تذهب إلى عمّها وتُعيد خاتم الخطبة والهداياوتقول له: «ما في نصيب».

لكنّ جدّتي لم تجرؤ على دخول بيت سلفها لتقول له إنّ ابنتها لا تريد ابنه!

أعطت متعلّقات الخطيب لأمّ نجيب وهي واثقة بأنّها ستتصرّف على خير ما يرام.

لم تُدهش أمّ نجيب، بل بدا أنّها كانت تتوقّع هذه النهاية، قالت: «أَنِي قلت هالطبخة شايطة!» بينما كانت عتمة الزقاق تبتلع خطوات جدّتي المتباطئة.

الزقاق الذي راح ـ يومًا بعد آخر ـ يلفّ نفسه بالطبقات لتحميه من الهواء والشمس، كالملفوفة تمامًا.

في أيّامها الأخيرة، لم تلُم أمّ نجيب سنوات عمرها الطويلة أو الهرم أو الأمراض، بل اشتكت عفن الزقاق.

حين شعرتْ بدنوّ أجلِها هجرتْ بيتَها وفراشها، وراحتْ

Twitter: @ketab_n

تجولُ على أقاربها، وتبيتُ عند كلّ واحدٍ منهم فترةً قليلة. قالت لنفسها، وهي تقف عند ناصية الشارع، غير مدركة أنّني خلفها: «إيشمعنى أنّي بدّي موت بتختي؟؟ ليش ولادي ماتوا بفرشتهن؟ كلّ واحد مات بميل.. قال فرحنا خلّفنا صبيان .. أبو الصبيان عأبو اللي بيخلّفهن».

مات أولادها بعيدًا من ديارهم. الأوّل مات في السجن، والثاني في مكان مجهول، ولم تستردّ جثّته بعدما خُطف على حاجز للجيش السوري، ومات الثالث حين استدعاه أخوه للاستشفاء في ألمانيا، والداعي بدوره مات في حادث سير مروّع. هل هو مهمّ إلى هذه الدرجة أين نموت؟؟ يبدو هذا. عجائز دار ماري كانوا دليلاً آخر لم تعرفه أمّ نجيب ولم تحتج إلى معرفته.

مرّةً، كنت أعدّ لها كبّة البطاطا، حملتُ قنّينة زيت لتزيين الطبق فنهرتني: «لأ!! مش زيتات عامْلوَّل[1]! حطّي من زيتات السنة... مين ضامن إذا بنعيش وبناكلهن؟»

يومذاك، تأمّلتْ ثؤلولاً في يدي، وقالت إنّها ستكافئني على هذه الكبّة اللذيذة.

لعلّه كان أعظم مواهبها: شفاء الثآليل.

لم يتطلّب التخلّص من تلك الكتلة المقزّزة أكثر من ثمرة بندورة وعيدان معكرونة طويلة.

وضعتْ البندورة فوق الثؤلول، وراحت تغرز عيدان

(١) اختصار لكلمتي العام الأوّل، أي العام الماضي.

Twitter: @ketab_n

المعكرونة في الثمرة الناضحة ببطء، تاليةً بعض سور القرآن القصيرة لعدد تعرفه هي فقط من المرّات.

حين انتهتْ تحوّلت حبّةُ البندورة إلى حجرٍ قاسٍ، فقالتْ أمّ نجيب معجبةً بقدرة الله إنّ القراءة القرآنيّة جعلتْ حبّة البندورة تتحجّر: «شوفي.. دسّي.. دخيل قدرة الله!!»

يجب على صاحب الثؤلول أن يدفن البندورة والمعكرونة في التراب، وحين تتحلّل سيختفي ثؤلوله.

حدث هذا للجميع ولي مثلهم.

في النهاية، ماتتْ أمّ نجيب ميتةً أرادتْها.

ماتتْ في الطريق. كانوا ينقلونها من المستشفى إلى بيت ابنتها، ولكنّها لم تصل إلى السرير الذي أعدّ لها.

حزنتُ لموتها، برغم راحتي لأنّها ماتت حيث أرادت. بينما كانوا يدفنونها، والجميع يطلبون منها أن تسامحهم، سامحتُها أنا أيضًا على كلّ شيء، لأنّها أسقطتني من رؤاها وتكهّناتها وتفسير الأحلام...

وغفرت لها وشايتها بي. الحقّ أنّها كانت غلطتي.

لم أقدّر جيّدًا حالة نظرها. ظننتُ أنّها إن رأتني على شرفة بيتكم لن تعرفني. لكنّي اكتشفتُ أنّها تدّعي العمش كي تكسب عطف الآخرين، وتحظى بمساعدتهم.

حسبتُ كلّ خطوة وكلّ احتمال إلّا أن تشي أمّ نجيب بي إلى خالتي.

Twitter: @ketab_n

توقّعتُ أن تخنقني خالتي لأنّني دنّست قدميّ بدخول بيت أهلك. أنكرتُ بإصرار واتّهمت أمّ نجيب بالعمى. هذا فقط ما نجّاني من غضب خالتي وجنونها، هي التي كانت تمنع ذكر اسمك وأيّ اسم في عائلتك، ليس في البيت فقط بل الحيّ كلّه. حتى الجارات حين يتجمّعن أمام البيت، ولا تكون فاطمة معهنّ، لايذكرن أسماء أفراد عائلتك، وإذا كانت هناك سالفة مميّزة عنكم، يذكرنها بالإيماء نحو بيتكم.

بعد إهمالٍ دام سنوات، قرّر والدك فجأة تقليم أشجار الحديقة. أمعن فيها تشذيبًا وتشحيلاً، كأنّه ينتقم منها. صار مدخل غرفتك مكشوفًا، واستنفدت قراءة كتبك، وكنتُ متعطّشة إلى أشياء أخرى: أخبارك، ملابسك، غرفة نومك... لذلك رأيتُ في التودّد لأمّك، ومساعدتها في أعمال المنزل، خير سبيل للوصول إليك، أو ما بقي منك في بيت أهلك.

عانيتُ كثيرًا قسوةَ أمّك التي لم تحبّ عائلتنا يومًا، والوحيدة التي جاهرتْ بفرحها بفسخ خطبتك. عانيتُ كما عانى كلّ من تقرّب منها، فظاظتها وعصبيّتها وسخريّتها وتكبّرها.

كنت أخدمها من دون مقابل، ولم تسأل نفسها عن السبب. كان غرورها يُعميها عن أشياء كثيرة.

لكنّني كنتُ ممتنّة للمقابل الذي منحتني إيّاه من دون أن تُدرك قيمته الثمينة: ترتيب غرفتك وتنشّق روائحك، ملمس ملابس صيفيّة لم تأخذها معك، مناشفك التي تلتقط المياه عن جسدك وشبشب صيفي... إلّا أنّ الهديّة الأثمن كانت مغلّف رسالة عليه

Twitter: @ketab_n

عنوانك ورقم هاتفك في روسيا.

حشرتُه بين ملابسي بتعجّل وقلبي يرقص.

نقلتُ العنوان في البيت، ثم تخلّصتُ من المغلّف.

لم أكن أنوي العودة إلى بيت أهلك بعد ذاك الصيد الثمين، لكنّ الشوق إلى غرفتك كان يأخذني. حتى وَشَت أمّ نجيب بي، وكان ما كان من خالتي.

أبقيتُ عنوانك معي، ورحتُ أتأمّل كلّ حرف فيه وكلّ رقم. أمعقول أنّني إذا ضربت هذه الأرقام من هاتف دولي سأسمع صوتك؟

كنت أعود منهكةً من مصنع المرتديلّا. أشعر بأنّني أهدر كماكينة عملَتْ ساعات طويلة، وأُطفأتْ خوف أن تنفجر.

أصلُ بعد عناء الطريق الذي يمتصّ آخر قطرات الطاقة في جسدي، فلا أقوى حتى على تبديل ملابسي. كنتُ في ذاك المصنع ماكينةً تصفّ العلب في صناديق كرتونيّة وتغلقها بإحكام. ثم تكرّر العمل نفسه طيلة ساعات، تقطعها نصف ساعة غداء، يقدّمون لنا فيها المرتديلّا التي لا آكلها، أنزعها من الرغيف وآكله مع قطع البندورة والخسّ النادرة فيه.

مع كآبة تلك الأيّام أتت خطبة خالتي من الصيدلي لتخفّف تأنيبَ ضميري، وتبيح لي التفكير في شيء اسمه «سعادتي». سألتُ نفسي: لمَ لا أكون أنا سعيدة مرّة واحدة وأرسل إليك رسالة؟

Twitter: @ketab_n

من دون اسم أو توقيع، اخترتُ ما رأيتُه أجمل عباراتٍ كتبتُها في السنوات الماضية، وسطّرتُها بخطّ مرتبك. استغرق الأمرُ ساعات، لأنّني كنتُ بطيئة في الكتابة، وأقلب حروف بعض الكلمات، حتى لو كنت أنسخها. بعد عناء كتبت الرسالة، ووضعتها في مغلّف، ودوّنت عنوانك، وحين انتهى دوام المصنع، لم أعد إلى البيت بل ذهبتُ إلى صيدا، وبخطوات خائفة ومتردّدة وضعتُها في صندوق البريد.

شعرتُ بخفّة غريبة وبسعادة غامرة. ها قد اجترأت أخيرًا على ما هو حقّي، على البوح بما في قلبي.

في اليوم التالي، استيقظتُ على ندم كبير. ماذا ستقول حين تتلقّى الرسالة؟ ستسخر منها أم ستعدُّها مقلبًا؟ هل تقدّر من أرسلها؟ ولمَ أرسلها؟ هل ستسخر من الخطّ المرتبك؟ ثم ماذا سأستفيد إن قرأتَ كلماتي وأنت لا تعرفني؟ هل ستظنّ أنها من امرأة أخرى، فتتعلّق بها؟؟ هل جنيتُ على نفسي؟

ندمتُ كثيرًا، ولم أجد سوى إقناع نفسي بأنّك لن تتلقّى الرسالة، لأحد سببين: أنّك غيّرت عنوانك، أو أنّ البريد ضلّ طريقه. كم من رسالة تضيع وأخرى تخطئ مقصدها! إن وصلتْ رسالتي إلى شخص روسيّ فلن يمكنه قراءتها، سيرميها وينتهي كلّ شيء.

كيف سأعرف الليلة إن كنتَ قد تلقّيتَ الرسالة، وأنا لا أنوي إعطاءك إشارات مباشرة إلى هويّتي؟

أُخرجُ الدجاجَ الذي سلقتُه بالأمس مع عيدان القرفة وورق

Twitter: @ketab_n

الغار وجوزة الطيب لتحضير «المغربيّة». فتلتُ حبّاتها بنفسي، كما فعلتْ جدّتي عشيّة سفرك. فتلتها بعينين تزقزقان وأصابع سعيدة. هل قلتَ يومًا إنّها طبختك المفضّلة؟ حاولتُ استدراج أمّك حين عرضتُ عليها فتل المغربيّة، فلم تعلّق أو تذكرك بكلمة. لكنّني أتصوّر أنّك في غربتك تفتقد مثل هذه الطبخة.

هل بحثتَ عن أصولها مثلي في بلاد قد تلتقي فيها مغاربة؟ أنا التقيتُ امرأةً مغربيّة في الاستهلاكيّة. أخبرتُها أنّنا نحبّ أكلة المغربيّة، فنفت أن تكون قد سمعت بها. لكنّها أشارت إلى نوع من المعجّنات الجافّة، وقالت: «هدا «كسكوس» يشبه اللي تحكين عليه».

هكذا إذًا، حاولنا تقليد الكسكوس، لكنّنا لم ننجح في فتل حبّات صغيرة بمثل هذا الحجم، فابتكرنا طبقنا الخاصّ القريب من الطبق المغربي وأسميناه المغربيّة.

من الغشّ أن ألبس القفّاز وأنا أقشّر البصل والثوم. قد تعتقدُ أنّ شخصًا آخر طها، فيُهدم كلّ ما أبنيه. كما أنّني لا أعرف كيف أعمل بهذا القفّاز اللعين!

أقشّر البصلات المستديرة، التي وقفتُ زمنًا أختارها متشابهة، لأنّني أريد بعد سلقها أن تسبح في مرق «المغربيّة» كأنّها راقصات فرقة باليه. القرفة والكراوية والبصل والدجاج، ماذا قد يكون أروع من رائحة قدر تلتقي فيه هذه المكوّنات! رائحة الوداع، والنهايات الباكرة الحزينة.

حين أرسلتَ أحد أولاد أخيك ليستدعي خالتي على عجل،

Twitter: @ketab_n

كانت تعدُّ لك مرق المغربيّة. وحين عادت كانت دامعة. قالت إنّك ذهبت إلى المطار، وإنّك لم تكن منتبهًا لموعد سفرك. يومذاك، رفضَتْ أن تأكل. لا أعرف إن كنتُ أذكر هذا أم أروي ما روته جدّتي. تهمس لي في وسط الحكاية: «خالتك متل «عروسة الزرع» شايفتيها شي مرّة؟» ثم تصمت كأنّها لم تنتظر منّي إجابة ولن تمنحني إيّاها.

لم أرها، لكنّني سألتُ عنها. «عروسة الزرع» زهرة برّيّة جميلة، وطويلة الساق، بلون الفوشيا، وهي الزهرة الوحيدة التي تنبت وسط سنابل القمح. علّتها أنّها من دون رائحة، وربّما تعمّدت جدّتي هذا أيضًا، فبرأيها كما في رأي كثيرين: خالتي جميلة جدًّا لكنّ روحها جافّة كغصن يابس.

«عروسة الزرع» لم تتذوّق بعد ذلك اليوم المغربيّة بالشهيّة التي يستحقّها هذا الطبق. بل كانت تلومني كلّما رأت حبّات البصل المقشّرة المستديرة تغلي مع حبّات الحمّص في مرق الدجاج والقرفة والكراوية: «قلت لك ألف مرّة ما بحبّ المغربيّة».

لم أكترث للومها. كنت أنشغل بحدث جليل أشهده كلّما غلت طنجرة الطبخ.

يحدث شيء عندما تغلي طنجرة الطبخ. يحدث كلّ مرة، وغير مرّة في اليوم، وكلّ يوم، وكلّ العمر، وحتى بعد انتهائه.

إثر موتنا تحزن طناجرنا علينا. لا يطبخ أهل الفقيد، لكنّ أقاربهم وأصدقاءهم يطبخون لهم، لأنّ الطبخ فعل فرح واحتفاء

Twitter: @ketab_n

بالحياة، ولا يجوز أن يقوموا به وهم محزونون. أمّا في أفراحنا فتحتفل الطناجر معنا وتتألّق ويتحلّق حولها الجميع. توزّع الفرح على المباركين والمهنّئين...

في هامش أحد كتبك قرأتُ: «الحبّ يحدث كلّ يوم لكنّه يبقى حدثًا»، لم يكن خطّك. أثارني لغز الخطّ. من تُراه كتب هذا في هامش كتابك، أم لعلّه كتابه أصلاً وأنت استعرته منه ولم تردّه إليه؟

الحبّ يحدث كلّ يوم ويبقى حدثًا. الطبخ والحبّ ليسا شيئين مختلفين، لأنّ نتيجتهما واحدة وباعثهما واحد. حين تطبخ تقوم بفعل حبّ، تستخدم كلّ حواسّك لأجل الفوز بحبيبك.

وحين تحبّ تفكّر في أن تطبخ لحبيبك. في الأفلام والمسلسلات الأميركيّة التي يعرضها التلفزيون، يدعو الحبيب حبيبته للعشاء في منزله، على أن يعدّ لها أكثر ما يبرع فيه، أو الشيء الوحيد الذي يبرع فيه. والمرأة تفعل بالمثل. لا يفعل أبطال الأفلام العربيّة هذا. منذ أنور وجدي مرورًا بعمر الشريف انتهاء بمحمود ياسين وحسين فهمي. العاشق العربي على الأرجح لا يشعر بالجوع، العشق يُنسيه معدته، يحوك الخطط لاستدراج الحبيبة إلى خلوة، ليس لأجل أن يطهو لها، بل ليلتهمها. أمّا نسوتنا ـ المتحفّظات ـ كي تمتصّ الواحدة منهنّ شهوة الرجل العمياء المبلّلة بالمحظورات، كانت تلهيه بالأطباق الشهيّة.

بقيتُ سنوات طويلة أعتقد أنّ المرأة تحبل من الرجل حين يقبّل رقبتها. هكذا بدا الأمر لي في الأفلام المصريّة التي كانت

Twitter: @ketab_n

نافذتنا الوحيدة على قصص الحبّ والجنس. آخر ما كنّا نراه قبل أن يُعلن خبر الحمل هو قُبلٌ مجنونة يُمطرها الرجل على رقبة المرأة.

عندما كان المطر يحبس الناس في بيوتهم، كانت أنفاس الطعام الذي يغلي تبشّرني بقدوم شيء سعيد طالما حسبته لن يأتي، تبشّرني بقدوم الحبّ.

أغمض عينيّ لأرى قامتك تتقدّم في الزقاق، لأسمع وقع حذائك وحفيف ملابسك الزرقاء بجسدك الرشيق. تقترب وتقترب ولكنّك لا تقرع الباب، ربّما يمنعك الخجل. أقوم وأقف عند الباب ذي النوافذ الزجاجيّة المحجّرة، لا أفتحه أنا أيضًا لأنّ الأزرق لا يتراءى لي من الخارج، وليست قامتك خلف الزجاج، وليس لعطرك أثر.

أقفُ وأرسم فوق الزجاج زهورًا من بخار في انتظارك... أرسم حقلاً بديعًا لكنّك لا تأتي. تتفاعل روائح البهار مع اللحم القليل والأرزّ الكثير والخضروات والشحم والعظام والمرق... تعرف جدّتي أنّ الغداء جاهز، فتأمرني بأن أكفّ عن الخربشة وأضع الطبليّة.

لأنّنا في الحرّ لا نستطيع حراسة الطنجرة ولا نحتمل حرارتها، نستعيض بالطبخات التي لا تتطلّب طهوًا طويلاً، وإن فعلنا نُخرج الوقيد إلى «الزاروب» ونتبادل التحريك. نتسلّى بينما تنتقل المغرفة الخشبيّة الطويلة من يد إلى أخرى. أيادٍ جافّة متشقّقة حول الأظافر. فوق الطنجرة ولهيبها وبخارها تتأمّل كلّ

Twitter: @ketab_n

امرأة نفسها، تلك فرصة نادرة لتغوص في عتمتها الخاصّة.

لكنّ الأمر لا يطول. يتداركن الزلّة وينسحبن من عتمة التأمّل. يُجلن نظرهنّ بين داخل الطنجرة وخارجها، ليجدن المفارقات والتشابيه والاستعارات، فتقول واحدة «أمم روّبتلك هاللبنات بينقصّو بالسكّين كأنّهم قرص جبنة».. تخرج أخرى حبّات البطاطا التي تنوي تقشيرها وتقول: «شوفو هالبطاطات ما أهمّن! متل المخدّات!»، وتمدح جدّتي خبزها: «بيدوب متل البقلاوة بالتمّ».

حين علّمتني جدّتي غواية الخبز كانت تسلّمني أحد مفاتيح الحياة بزهدها ودنيويّتها. فالخبز قمح وماء، ولا طعم لكليهما على حدة.

الماء من دون طعم، أمّا القمح فطعمه أشبه بالتراب. ولكنّه مع رشّة خميرة وبعض الماء ولحظة تنسّك ينتفخ، ويستدير، ويصير ملمسه كمداعبة القشدة. تقطّعه جدّتي إلى أقراص، وتكوّرها في يدها لتصير كالثدي، الذي كانت تخرجه مرضعات قريتنا لأبنائهنّ في العلن بعفويّة مطلقة. كن يخرجنه حتى في حضور الرجال، ولم يكن الرجال ينظرون أو يكترثون، ولكن، فجأة صارت المرضعات يخجلن! لم أفهم إلى اليوم كيف ولماذا اندثرت تلك العادة.

ضغطتْ جدّتي أصابعها العشر على رأس القرص وتابعت حتى منتصفه، ثم أدارته لتفعل بالمثل على رأسه الآخر وإلى النصف أيضًا، حتى اتّسع القرص وصار مزخرفًا ببصماتها.

Twitter: @ketab_n

كرّرت حتى استنفدت أصابعُها الحيلة، فلجأت إلى «الشوبك»، ثم الحيلة الأخيرة: رفعت الرغيف بسرعة إلى ساعدها، ثم جعلت الساعد يرميه للساعد الثاني، قالت: بهلّ. تابعت الهلّ، وفي كلّ مرّة كان الرغيف يتّسع ويرقّ، ثم راحت تسوّي «الكارة» فوق فخذها، وتضع الرغيف عليها وتجذبه من أطرافه ليصير على مقاسها، وأخيرًا تلصق الكارة والرغيف على الصاج الساخن، وهكذا يصدر الصوت الحميم الذي أُحبّه للقاء النار والعجين، وتفوح الرائحة الشهيّة التي تُحدث معجزات في المخيّلة والبصيرة والبصر واللسان.

ترمي الرغيف الأوّل جانبًا. تضربني على يدي الممتدّة نحوه. تطلب منّي أن أصبر وأنتظر الرغيف الثاني، لأنّ الأوّل «نصيب الكلبة». الرغيف الأوّل للكلبة دومًا. لم تعطني سببًا، قالت إنّ أمّها ونساء العائلة كنّ يرمين الرغيف الأوّل ويقلن إنّه للكلبة.

لاحقًا وجدتُ إجابة من امرأة عابرة، قالت إنّ من تأكل الرغيف الأوّل يموت بكرها.

لا شكّ في أنّ الرغيف الأوّل كان الأشهى. كثيرات تشاجرن عليه، فقرّرت الخبّازة رميه، وهدّدتهن بأنّ من تأكله يموت بكرها. تلك كانت أفدح خسارة لأيّ أنثى.

فهمتُ الكثير عن الحياة من خلال جلساتي مع نسوة الحيّ. إنهنّ لسن عصبة أو صديقات بل نساء متفرّقات، لا يحافظن على حضور منتظم أو ثابت، فقد تغيب واحدة، وتُستبدل بها أختها أو ابنتها، وقد تنقلب بعضهنّ على بعض فتولد حلقة من الحلقة

Twitter: @ketab_n

الأولى، لكنّها سرعان ما تعود إلى الحضن الأوّل.

كنّ يعتقدن أنّني لا أفهم. ولكن، كلّ مرّة يتحدّثن فيها عن مجهول، كنت أعرف أنّهنّ يقصدن العلاقات الحميمة. لم تكن جدّتي تشارك في تجاربها، بحكم أنّها أرملة منذ زمن طويل ونسيت «هذه الأمور»، لكنّها مرّة حكت عن ليلة دخلتها في جلسة نسائيّة سادتها هستيريا الضحك.

ضحكن طويلاً، على دخلة جدّتي ودخلة كلٍّ منهنّ. ضحكن حتى دمعت عيونهنّ. أمّا أنا فحزنت كثيرًا، وإلى اليوم كلّما زفّت امرأة إلى رجل أذكر حكاية جدّتي وأحزن.

كانت في السابعة عشرة، هزيلة وحيية. وكانت تعرف زوجها، وسبق أن عُقد قرانها في مرحلة الخطبة، ومهّد الخطيب الطريق ببعض القُبل والملامسات الخاطفة. ولكن كلّ هذا لم يخفّف من ذعرها. قالت للنسوة وهي تضحك إنّها كانت تتعلّل بدخول الحمّام والرغبة في التبوّل كلّما عجزت عن تحمّل ألم الولوج الأوّل. هزّت النسوة رؤوسهنّ موافقات متضامنات، وردّدن كلمات مثل: «إيه أكيد صعبة كتير أوّل مرّة... بيكون اللحم ملزّق، بيكون ضيّق كتير»... لم أفهم تمامًا لأنّني خفت أن أتخيّل. لكنّي رأيت جدّتي الشابّة المذعورة تركض إلى الحمّام احتماءً من ألم يسبّبه لها رجلها بكلّ حبّ وفخر، وعليها أن تتقبّله بكلّ فخر وخجل أيضًا.

يفرح كثيرون بتزاوج الإناث والذكور (حتى الحيوانات)، يبتهجون ويجاهرون بفرحهم، بينما هناك من يدفع ثمن فرحهم

Twitter: @ketab_n

ألمًا ونزفًا ورعبًا وتبوّلاً متكرّرًا وتقيّؤًا وعسر هضم أحيانًا... هناك تلك المرأة التي يُشقّ لحمها وتُسفك بكارتها لأجل بقاء البشريّة وانتصارها على عنجهيّة الموت والعدم.

كنتُ مستمعةً خرساء، قبل أن أقرّر الانضمام بطريقتي الخاصّة إلى عالمهنّ. كنت أعرف أنّي قريبًا، وقد بلغتُ الثانية عشرة، سأصبح أنثى جديدة، وكنتُ أتوق إلى ذلك. لم أحسب حساب الحرب، ولم أفهم لمَ يقتتل الناس؟

كانت الحرب بعيدة. تارة في الجنوب وتارة في بيروت. وكنتُ عالقة في الوسط، لكنّني لم أُشغل بتوقّفها أو نهايتها، لأنّني لم أتوقّع فرقًا بينها وبين السلم. كانت الحياة هي الحياة. تمرّ أيّامها رغمًا عنّي، ومن دون أمل في شيء أفضل. صار حديث الحرب القادم من بعيد كالحديث عن حلقة أمس من «بوسليم» و«بوملحم» و«غراميّات» هند أبي اللمع وعبد المجيد مجذوب...

قليلون أهل القرية الذين استمرّوا بمغادرتها، وجلبوا لنا الأخبار الخياليّة عن القتل والتعذيب والاختطاف. الأغلبيّة لزمت القرية مستمتعةً بنعمة تلقّي الأخبار فقط. زوج ماجدة الذي كان يجلب لنا البنّ الطازج من بيروت ما عاد يفعل.

انضمّ رجال الحيّ إلى جلساتنا. كانوا ضيوفًا ثقلاء على قلبي في البداية، لكنّي ألفتهم لاحقًا، تحديدًا حين أثبتوا لي أنّ باستطاعتهم تسلية الحضور سواء بالحكايات التي ينقلونها أو الألغاز التي يطرحونها. كانوا يختلفون في كلّ شيء، يتناقشون

Twitter: @ketab_n

بأصوات عالية، لم يتّفقوا إلّا على أمر واحد: حبّهم لأمّ كلثوم.

رجال مختلفون ـ متناقضون أحيانًا ـ تجمعهم امرأة، لكنّها «مسترجلة»، وهذا لغز أمّ كلثوم الكبير. دمامتها التي لم تنفع إلّا في أمر واحد: الحدُّ من تأليهها.

ابتكروا لعبة جميلة، كنت أسمّيها لعبة «النصف الثاني». كانوا يجلبون أشرطة كاسيت أغاني أمّ كلثوم، ويضعون الشريط على وجهه الثاني من دون أن يروا عنوانه، تنبعث موسيقى النصف الثاني من الأغنية، ويكون عليهم معرفة أيّ أغنية هي هذه. ليس الأمر سهلاً نظرًا لطول أغانيها.

علّمتني تلك اللعبة تمرين ذاكرتي، وحُفرت أغاني أمّ كلثوم مقطعًا مقطعًا في ذهني. الإحراج الوحيد كان أنّ انضمام الرجال إلى جلساتنا ترافق مع نتوء نهديّ. حاولتُ إخفاء سرّي تحت الملابس الواسعة ومريول الجلي والعباءات... ولكنّه كان سرًّا لا يُخفى!

كنتُ أظنُّ أنّ الجميع ينظر إلى صدري، وحين أمرّ في الشارع أشعر بسهام تتّجه نحوي من الأرصفة والشرفات والنوافذ المطلّة، ومن داخل الدكاكين وحتى السيّارات العابرة... المرحلة الأقسى كانت المرور بالمقهى. هناك الرجال الذين كنت أتلصّص عليهم، وصرتُ إذ أمرّ من أمام كراسيهم الخالية، أشعر بالخجل والاختناق. أتمنّى لو أنّ الأرض تبتلعني كي لا يراني أحد، ويمزّق بعينيه كنزتي ليُخرج للجميع ما أخفيه، أنا التي طالما فاخرتْ بينها وبين نفسها بأن لا أحد يعرف أسرارها.

Twitter: @ketab_n

حين رأيتُ مشحة الدماء القاتمة تلك، وكانت لها رائحة قويّة، كأنّها فعلاً دماء متعفّنة وآسنة منذ سنوات، ارتبكتُ برغم أنّي كنتُ أتوقّع الأمر. أحرجني إحساسي أنّني صرت شخصًا آخر، مع هذه العلامة المهينة لونًا ورائحة وشكلاً وملمسًا. صرت كأخواتي ونساء الحيّ وخالتي فاطمة.

في إحدى ثوراتها الجنونيّة قالت عيْشة إنّ أرباح الدكّان لن تكفيها ثمن فوط صحّيّة لستّ بنات. بقيت تلك الكلمات طازجة في رأسي، وخفت إن أخبرتها أن تثور وتغضب لأجل «المصروف». لكنّني كنت مضطرّة إلى إخبارها لأنّها ستعرف في كلّ حال. اخترتُ ـ بعد تفكير ـ الكلمات المناسبة لي ولعلاقتنا المتوتّرة دومًا.

«نزلّي دمّ» قلت.

نظرت إليّ وفهمت من دون شرح أو تعقيب. صمتُّ قليلاً وأمل يراودني في أن تنقلب علاقتنا ونصفح لبعضنا الماضي المظلم، وتحنو عليّ كأمّ وابنتها، لكنّها أنهت الصمت وحلمي بجملة غيظ: «شو بدّي أعملّك؟ جاية تخبّريني هالخبريّة! يا فرحتي!!... روحي عالبيت».

لم تناولني علبة «كوتكس» من التي تبيعها لنساء القرية، لم تسأل إن كنتُ أنزف أو أتألّم. لم يغيّر دخولي إلى عالم النساء كوني طفلة ملعونة. تيقّنتُ أنّ ما حصل لي هو بعكس ما توقّعت، فعل عار وندم عليّ إخفاؤه عن الجميع.

لم أُخبر أخواتي أيضًا. سرقتُ فوط قماش مّن خزانتهنّ

Twitter: @ketab_n

وغسلتها بالسرّ، فالجاهزة منها، ذات الاستعمال الواحد، لم تدخل بيتنا إلّا مرّة واحدة، وفي حادثة مريبة، حين كان شابّ يشتري من دكّان عيْشة وكنتُ أقف عند العتبة ـ آملةً أن تعطيني حبّة نوغا أو «رأس عبد» ـ لكنّها أعطتني علبة «كوتكس»، وقالت بصوت بارد: «خديها لأختك عالبيت». فهمتُ لاحقًا ما قصدَتْهُ، ولمَاذا تعمّدتْ فعل هذا أمام الشابّ، كما فهمتُ لمَاذا كانت بوجهها العبوس ومنديلها المزركش الذي تخنق به عنقها، تبتسم فقط للشبّان العازبين، والموظّفين منهم تحديدًا.

كان رهيبًا ألّا أجرؤ على الإفصاح عن ألم «الدورة»، أن تنفد منّي حيل جمع الخرق وتمزيقها، ألّا تسأل عيْشة لاحقًا نفسها كيف تتدبّر صغرى بناتها أمرها، أن أستيقظ وسط الليل مبتلّة، فآخذ شرشفي لأغسله في الحمّام، مهما كان البرد قاسيًا أو الحرّ خانقًا. جدّتي لم تنتبه لأمري. لكن إحدى رفيقاتها سألتني وقد حملت كلّ واحدة منّا مدقّة ضخمة، وراحت تضرب بقوّة الأكياس الممتلئة بأوراق الصعتر: «شو!؟ شخّيتي عالبلّانة أو بعد؟؟» أطرقتُ خجلاً. قالت جدّتي للمرأة: «ما فهمتش عليكي». لكنّني وجدتها فرصة لأفشي سرّي وأزيح همّه عن ظهري، فهززت رأسي وقلت بصعوبة: «إيه.. من سبع تشهر». دُهشت جدّتي وابتسمت. لم أفهم معنى ابتسامتها، لكنّ رفيقتها باركت لها: «مبروك.. فاتحة عندك دجاجة».

شكوت لهما الفوط الصحّيّة، ويبدو أنّ تلك المرأة بسذاجتها عاتبت عيْشة، فأجّجت النار بيننا، وحقّقت حلم الانتقال الكلّيّ

Twitter: @ketab_n

والدائم إلى بيت جدّتي.

بحثَتْ عيْشة عنّي وهي نادرًا ما تفعل. أتت إلى بيت جدّتي، وتشاجرت معي لأنّني شكوتها، ولأنّني «ما بعرف دبّر حالي»، وأريد صرف ما تجنيه بطلوع الروح: «بدّك تحطّطيني اللي فوقي واللي تحتي... ليه؟ عحسنك وجمالك؟ جايتيني ع عطشة؟».

لم أسكت لها: «فلّي من هون! شو جاية لاحقتيني لهون؟».

هذه المرّة ضربتُها كما ضربتني، وحين لمستْ فيّ قوّة غادرت وهي تقول: «خليكي هون ولي! أوعي ترجعي عالبيت.. يا ريتني ما خلّفتك.. إنتي مش بنتي ولا بعرفك!!».

لطمتُ خدّي وانتزعت خصلاً من شعري وأنا أتندّم لأنّها أنجبتني: «يا ريتك ما خلّفتيني! يا ريتك مش إمّي!!».

صرتُ مطرودة بأمر رسمي. برغم أنّ هذا ما كنت أريده، إلّا أنّ صدور الأمر منها أغاظني. لا شيء من متعلّقاتي هناك في البيت، وليس عندي حنين أو ذكريات، لكنّي لم أرغب في طاعتها. وقد عدتُ مرارًا إلى البيت، بسبب حفلات خطبة أخواتي وزفافهنّ، إلّا أنّي توقّفت تمامًا حين مرضَت عيْشة.

خفتُ إن واجهتُها في سرير المرض أن أراها تتمنّى أن أكون ابنتها لتورثني مرضها.

تلك الحادثة الفاصلة قرّبتني من فاطمة. احتجت إلى سنوات كي أتفهّمها وأغفر لها معاملتها السيّئة لي.

لم تتحوّل إلى شخص عصبيّ صعب الإرضاء فجأة. كانت

Twitter: @ketab_n

تلك ردّة فعلها على الفقد الذي عصف بها، ولا يزال، برغم زواجها وإنجاب ولدين وبنت.

بعد فسخ خطبتكما، حثّتها جدّتي على العودة إلى المدرسة. لكنّها لم تستطع. ليس بسبب الحزن، بل الخجل. نظرتْ إلى نفسها في المرآة، فوجدت أنّها كبرت كثيرًا في خلال شهور الخطبة القليلة. لم تسمن، لكنّها كبرت. كانت تعدّ صندوق جهازها، وتضع فوق جسدها الريّان ملابس الزوجيّة وتشعر بأنّها سيّدة، وأحيانًا تدّعي أنّها حامل لترى كيف ستبدو بمخدّة تشدّها إلى بطنها.

كيف ستقمع مارد جسدها تحت المريول الأزرق؟ كيف ستكبّله خلف مقعد دراسي صغير، وتعرّضه لتوجيهات الناظرات والمعلّمات وتوبيخاتهنّ؟ كيف ستخضع لأسئلة البنات عن خطبتها وفسخها وشماتتهنّ بكبريائها المكسورة؟

كبرياؤها لم تُكسر إلّا يوم زفافها من رجل نكرة، لا أعرف كيف أصفه، فليس له عمل ثابت أو حتى اسم ثابت. تارة هو محمّد، وتارة «الحجّ محمّد»، وتارة أبو حمزة... تقول خالتي إنّه سمسار عقارات، وتقول أخته التي تحيي الموالد النسائيّة إنّه «مخلّص معاملات» في بعبدا، ويقول بعض الجيران إنّه مع «المخابرات السوريّة»!

لكنّني عرفت أنّه ليس أيًّا من هؤلاء. كان فقط إنسانًا متخلّفًا، أجبر خالتي على ارتداء الحجاب من دون أن يوصيها يومًا بالصلاة، وضربني لأنّني لا أضع حزامًا لبنطالي الجينز، قال

Twitter: @ketab_n

إنّ بنطالاً من دون حزام يوحي بأنّه سهل الفكّ، وأنّ صاحبته تدعو الرجل إلى ذلك. . .

رجته جدّتي أن يهدأ ويتركني لأنّني «حمارة» لا أقصد ما أفعله. كسرت خالتي الشرّ وخرجت بأولادها، فلحق بهم. بكيتُ لأنّ رجلاً كهذا أخذ مكانك في عائلتنا الصغيرة. عائلة افتقدت رجلاً يحميها ويحنو عليها، فأرسل القدر لها هذا الرجل المفترس.

لم أكن قد انتبهت لأمثال محمّد قبل اجتياحه بيتنا. لكنّني رأيت أنّهم تكاثروا فجأة، كالبلّان في الصيف، وتحوّلوا شوكًا يصعب اقتلاعه، لكنّك كلّما اقتلعته والتقطت أنفاسك يعود إلى الظهور.

لم تعد خالتي لاحقًا إلى بيت أمّها إلّا وحدها، وفي الخفاء. حتى إنّ زوجها حظّر مجيءأطفاله لرؤية جدّتهم. قال إنّه يمكن لجدّتي الذهاب إلى بيته إذا افتقدت أحفادها.

أسعدني قراره، فبيته كان جهنّم بعينها. كان قلبي ينقبض حين تطلبني خالتي لأساعدها في تنظيف البيت أو إعداد الطعام، تحديدًا في رمضان، حين يولم لإخوته، كما يسمّيهم. وكنت مستعدّة لمساعدتها شرط ألّا أقرب غرفة نومها. دخلتها مرّة ولم أقوَ على تكرارها. كانت لها رائحتهما معًا. رائحة التقائهما. مزيج منيّه (كما تصوّرته) وعرقه ورائحة العود التجاريّة، التي يجلبها من السعوديّة، وبقايا ماء ورد قديم، ظلّت تفوح من مسامّ خالتي كلّما نامت، على الأرجح، بسبب أحلام تستبدل فيها

Twitter: @ketab_n

شريك نومها برجل آخر، هو أنت.

أيّام احتضار جدّتي، أرسل زوج فاطمة شيخين يساعدان روحها كي تخرج بسلام. قالا إنّهما عرفا أنّ العجوز تحتضر منذ أيّام وتنازع، وأنّ الله لم يرسل إليها رحمته بعد. سألتُهما إن كانا قد حملا رحمة الله معهما؟ وفي أيّ جيب هي؟ تراجعا وبرزت تكشيرتهما معًا، كأنّهما أصل وصورة. دفعتهما بصراخي الهستيري وشتائم لم أتلفّظ بها يومًا.

* * *

Twitter: @ketab_n

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكانت أمطار نيسان قد توقّفت وساد سكون الليل البارد. غفوت قرب فراشها من دون غطاء. كنت منهكة.

لا أذكر إن كان البرد ما أيقظني أم استغاثتها الأخيرة.

فتحتُ عينيّ فوجدت عقارب الساعة أمامي، كأنّها كانت قِبلة غفوتي. الثانية عشرة وعشر دقائق.

اهتزّ بدني كأنّ الكهرباء صعقته.

اقتربتُ من صدرها وأنصتُّ إلى أنفاسها، لكنّي لم أسمع سوى بكاء قلبي المنتحب.

رفعتُ يدها ففاحت رائحة زهر النارنج التي تهاجمنا لحظة

Twitter: @ketab_n

قطف الزهرة، ورميها مع الزهور الميتة الأخرى.

هكذا تفارق الروح الجسد، شمعة تنطفئ وتفوح بعدها رائحة الوداع. لم أرَ سوى الظلام وذكريات النور الذي انطفأ.

* * *

Twitter: @ketab_n

اليوم هو الجمعة. وفي مثل هذه الساعة أكون وخالتي في طريقنا إلى المقبرة.

منذ وفاة جدّتي صارت زيارة المقبرة متنفّس خالتي الوحيد، والنزهة الوحيدة التي لا يعارضها زوجها. ساعدها اشتغاله بتنظيم حملات للعمرة والحجّ، فكانت أسفاره إلى السعوديّة أجمل حدث في حياتهما الزوجيّة.

قد تكون ذهبت وحدها اليوم. ربّما تمشي الآن بخطواتها الثقيلة والقصيرة، كأنّها مكبّلة بسلسلة خفيّة، لا يراها سواي. الطريق التي أقطعها في دقيقة، تقطعها هي بثلاث. كنتُ أعرف أنّ الزواج السبب، لا يجعل المرأة رصينة، بل ثقيلة. روحها أثقل من جسدها. كان يشغلني أمر علاقتها بزوجها، وكنت أسأل نفسي عن عدد المرّات التي تُساق فيها إلى واجبها الزوجي. إنّ نشاط

Twitter: @ketab_n

جسدها الذي أراه لا يعني إلّا كرهًا لزوجها.

لم أجرؤ يومًا على سؤالها، لكنّي سألتُ امرأة أخرى كنت أعرف أنّها تزوّجت مكرهةً.

«حكي لي يا سنابل، كام مرّة؟ يعني... بتنامي معو؟ كم مرّة بالأسبوع؟».

لم يكن صعبًا أن أسألها، لأنّها لم تكن تخجل من الخوض في هذه الأمور، ومن دون سؤال غالبًا. أجابت كأنّها تعطيني درسًا في الحياة: «شوفي، الرجّال ما بيشبعوا، كلّ يوم بدّهن، وبدّها الواحدة تلبّيهم... وإلّا بيقولو لك عشو متجوزّك؟ قومي روحي عبيت بيّك».

يهدّدها بالطرد إذا تمنّعت، وربّما يحرمها المصروف أو يضربها، يمكن للمرأة العاصية أن تنال أيّ عقاب يختاره زوجها.

لمتُها لأنّ الدجاجة نفسها تحاول التهرّب، برغم أنّها ترضخ للديك في النهاية. أتتني بالخلاصة: «مقدّم ومؤخّر وذهب وبيت وعفش ومصاريف وبيطعميني ويسقيني ويكسيني وبدي قلّو لأ؟ هيدا حقّو، دافعو من جيبتو».

تشير بسبّابتها وإبهامها بإشارة النقود وهي تقول «هيدا حقّو». فيتأكّد لي ما طالما ظننته عن علاقة خالتي بزوجها: بيع وشراء.

ولكنّ خالتي ما كانت تخشى الطرد أو الحرمان من المصروف أو حتى الضرب. كانت المأساة أعمق. كانت تخشى أن تُغضبه فيضرب أولادهما، أو يسيء معاملتهم ويرعبهم بصراخه. كانت تنظرْ إليهم وتقول إنّهم أبرياء، بل هم الضحايا.

Twitter: @ketab_n

لقد أنجبتهم وليس عليها تحميلهم أيّ عواقب. سمعتُها تقول شيئًا كهذا في أحد أعراس أقاربنا. كانت تتهامس مع صديقة لها وكنتُ خلفهما، لا أتعمّد التلصّص، ولكنّ نبرة المرارة اخترقت أذنيّ. أشارت إلى العروس السعيدة وقالت بحسرة: «مش عارفة شو ناطرها».

ونحن نسقي الحبق والمردقوش والآس أهمّ بسؤالها عنك، بافتعال أيّ حديث له صلة بك. أعرف أنّها لن تزجرني ولن تضربني، وأنّها أضعف بكثير من أيّ وقت مضى، وأنّها ربّما تحنّ في شقائها إلى اسمك وذكراك. لكنّي أحترم حزنها الصادق الممزوج بالندم لأنّ أمّها ماتت في غيابها.

برغم كلّ الفضول، لم أفكّر يومًا في سؤالها عمّا جرى بينكما حين التقيتما في الزقاق ذات يوم ربيعي دافئ، حين كان غبار الطلع يزيد الهواء حرارةً وثقلاً، وكانت أشجار النارنج تقطر إغراءً لمداعبات الحشرات. حين كانت وجنتاها حارّتين بفعل المشي السريع، وبفعل غبار الطلع نفسه وطنين النحل الذي يشبه تراتيل فيروز عشيّة الميلاد.

طمع كثيرون في النيل منها. وبرغم تقدير معظم العائلات للمال، كانت ميزة الجمال الدافع الأوّل لاختيار كنّاتهنّ. كثيرات من متوسّطات الجمال وبعض القبيحات تزوّجن بالمصادفة، وربّما الخطأ، لكنهنّ لسن القاعدة. أرادت العائلات تحسين مستقبلها وضمان أجيال جميلة، ما يضمن بدوره لهذه الأجيال العثور على شريك بسهولة.

Twitter: @ketab_n

البشر كائنات ضعيفة ترتعب من الوحدة. أرادوا ضمان الشريك قبل كلّ شيء. ما إن ترميهم الحياة في عرائها حتى يتلفّتوا حولهم بحثًا عن راعٍ يعتني بهم. الإناث آمنّ بأنّ مهمّة الزوج هي الحماية، والذكور آمنوا بأنّ وظيفة النساء هي الرعاية. الوحدانيّة والتفرّد والاستقلال كانت محرّمة. والآن فقط أتوقّف عن المكابرة، وأعترف أنّي طالما كنتُ شقيّة لأنّني وحيدة. محاولاتي لجعلك شريكي ليست سوى وهم. والحبّ من طرف واحد ضربٌ من الجنون والهلوسة.

لكنّني لم أملك خيارات أخرى. كانت حياتي مكتظّة بمعارك الآخرين: جدّتي وعيشة وخالتي وزوجها وأخواتي وأزواجهنّ وأبنائهنّ... مثقلة بشقاء أكبر بكثير ممّا يستحقّ جسدي الهشّ ووجهي الدميم. لقد أردتُ أن أشيحه عن الناس وأبقى وحيدة، ولكنّ هذا لم يسلّمني من مكر الحياة وشرورها. كنتُ مجبرةً على الخروج إلى الدنيا لأضمن قوتي وطبابتي وكسوتي. لم أحظَ يومًا بيد تمدّ المساعدة لي مجّانًا. حتى ما أخذتُه من جدّتي رأيت أنّ من واجبي إعادته.

كنت ممتنّةً لجدّتي لأنّها لم تنعتني يومًا بالدميمة. الأرجح أنّها لم تواجهني بهذا، ليس حرصًا على مشاعري، بل لأنّ جمال فاطمة لم يُعفها من الشقاء، ولم يكن نعمة كما تكهّن الجميع.

اليوم، برغم إهمالها لنفسها، لا تزال فاطمة جميلة، ولكنّها فشلت في توريث أولادها هذا الجمال القاهر للزمن، ومعهم تكون جينات العيون الزرقاء والشعر النحاسي قد غفت إغفاءةً لا

Twitter: @ketab_n

يمكن لأحد تقدير مدّتها.

إنّ سبب الصراع على خالتي لم يكن بضعة دونمات من الأرض ورثتها عن والدها، كما اعتقدَت هي وجدّتي وحتى عيْشة، بل جمالها وصباها.

أجبرها زوجها على تمزيق كلّ صور صباها ـ لأنّها لم تكن متحجّبة ـ وبذلك فإنّها إذا ماتت اليوم لن تترك دليلاً على ثروتها تلك.

أُتلفت جميع الصور، باستثناء الصورة اليتيمة التي سرقتُها من القمامة بعد انفصالها عن الصيدلي.

لم يهن عليّ رميها. تخلّصتُ من رأس الخطيب واحتفظتُ سرًّا بالصورة.

في ساعات شرودها أمام قبر أمّها كنت أهمّ ـ وأنا أرى الحزن يوهنها ـ أن أخبرها أنّي أحتفظ بصورة لها في شبابها. لكنّني لم أكن متيقّنة أنّ هذا سيعزّيها. كان الحزن أعمق من أن يواسيه شيء. ولم يكن هناك ردّ على صداه المنتشر في أرجاء المقبرة الموحشة سوى الصمت.

كان جيّدًا أن تبكي ونبكي معًا. كلّ لسبب مختلف. لكنّه كان مريحًا. تمرين صفاء روحي.

حين نظرتُ حولي يوم الجمعة الفائت، لم أرَ سوى النساء، والمزيد من النساء، يبكين. كان ذلك مجلس عزائنا بأنفسنا قبل موتانا، والمكان الآمن الذي تركه الرجال لنا لنبكي بحرّيّة. في

Twitter: @ketab_n

البيوت علينا أن ننظّف ونعتني بالأطفال، وفي المطابخ نطبخ، وفي الأسرّة علينا أن نفعل أشياء أخرى... ليس البكاء ضمنها وليس النوم أهمّها. سمعت نسوة الحيّ يلمّحن إلى إيقاظ أزواجهن لهنّ من عزّ النوم لأجل «ذلك الشيء» الذي لم يسمّينه يومًا أمامي أو أمام أيّ عذراء. لم تحكِ خالتي. لم تحتج إلى هذا. أشعر بأنّها عانت أفظع ممّا أوردت النسوة بمزاحي فشل في إخفاء قهر قدري.

لقد تابعتُها وزوجها ذات مرّة وهما يغادران منزل جدّتي بعد زيارة تقليديّة. كان يمضي منفوشًا كديك ملوّن، وكانت خلفه متباطئة كأنّها لا تريد أن تذهب، بل أن تصبح المسافة بينهما كافية كي تفقد أثره فتعود أدراجها.

شعرتُ بحزنها، وتمنّيت أمنية من أمانيّ الشرّيرة ولكن العادلة: يجب أن يموت زوجها باكرًا.

حين تأمّلت حولي النساء اللواتي فقدن أزواجهنّ، بدا لي أنّ هذا جعل حياتهنّ أفضل. أعطاهنّ فرصة ليعشن حرائر. وهذا أيضًا أحد حِكَم تزويج الرجل من امرأة أصغر منه. تكون له خليلةً وطاهيةً ومدبّرة منزل ومربّية أطفال ثم ممرّضة وونيسة... يجب أن يموت قبلها، فاسحًا لها سنوات قليلة تعيشها من دونه.

حين يتزوّجان تكرّس حياتها له ولبيته، أمّا هو فيحافظ على حياة موازية خارج المنزل، يمكنه أن يتابع بعضًا من نمط حياته كعازب، ويمكنه أن يسافر، ويمكنه حتى أن يحبّ ويتزوّج ويُنجب خارج البيت الأوّل.

Twitter: @ketab_n

جميع النساء اللواتي عرفتُهن وسمعتُ بهنّ سامحن أزواجهن الخائنين، ومضى كلّ شيء على ما يرام. لكن حين تكون الزوجة هي الخائنة وتنال الصفح، في حالة نادرة، لا يتقبّل أحد الأمر بسهولة. الرجال الذين خانوا فازوا بتحسين شروط حياتهم مع زوجاتهم. صارت الزوجة مضطرّة إلى تقديم كلّ ما يطلبه منها، كي لا يمتلك مبرّرًا لخيانتها مجدّدًا.

ماجدة التي تجرّعت خيانة زوجها، قالت إنّها سمعت والدها يقول لصهره: «كلّ الرجال بيخونو نسوانهم بس إنت انكشفت، راحت عليك». صُدمت ماجدة لأنّ في كلام والدها اعترافًا بأنّه خان والدتها.

نفضتُ يديّ في وجوه الحاضرات قائلة: «إي روحوا انقبروا! عَشو متجوّزين؟».

ساد جدال وعلا صراخ وأدلَتْ كلّ امرأةٍ بدلوها... ثم خرج صوت بنبرة مختلفة: «إنتو فيكن تقعدو بلا رجال! بتجنّو... جرّبو كام يوم وراح تاكلو حالكن».

كلام أمّ نجيب غيّر نبض الحوار، فأطلقت أمل قنبلتها: «بيضلّو هالنسوان يشدّو ويقدّو، وعَقَوْلة المثل: بالنهار شو ما عمل فيكي بالليل بتفتحيلو إجريكي».

تركتُهنّ لأدوّن المثل، ووضعتُ اسم أمل قربه والتاريخ، شعرتُ أنّها اخترعته للتوّ.

* * *

Twitter: @ketab_n

لم أقتنع لحظةً أنّ جدّتي نسيت فعلاً الحكايات، بل إنّ صياغتها لها اختلفت مع تقدّمها في العمر، فاستبعدت كلّ ما لم يكن يعجبها، ما جعل حكاياتهاأسعد.

أنا أيضًا فعلتُ هذا، الآن أروي الحكايات مختلفةً عمّا رويت لوسادتي منذ سنوات. الفرق بيني وبين جدّتي أنّها لم تتّهمني بالنسيان ـ كما اتّهمتُها، بل بالخبل!

«هيئتك انهبلتي!! شو جنّيتي؟؟ شو عم تحكي؟ هادي بعدما صارت...».

لم أفلح في إقناعها وهي في عزّ قواها العقليّة بأنّ الغيلان كائنات خرافيّة، لا وجود لها، فكيف أقنعها الآن وهي متأكّدة تمامًا من جنوني، وأنّني الوحيدة في العائلة التي فقدت رشدها وهي شابّة.

Twitter: @ketab_n

تتابع تقريعها لي وتشكيكها في صحّتي العقليّة، ثم تسألني أن أعيد لها حكاية أخرى.

أشير إليها بيدي دلالة على ضيقي ومللي. أقوم إلى المطبخ لأعدّ لها شيئًا يرضيها أكثر من الحكايات. وأهمس في المطبخ الحكاية التي أعد نفسي أن أحكيها لك ذات يوم.

«كان هناك أمير أحبّ فتاة خرجت له من برتقالة، ما أثار غيرة ابنة عمّه التي تمنّته زوجًا لها. يوم الزفاف غرزت الماشطة ـ بمؤامرة مع ابنة العمّ ـ في رأس العروس دبّوسًا، فتحوّلت إلى حمامة وطارت بعيدًا... مرض الأمير لاختفاء عروسه، ولم يُشفَ إلّا حين سكنت الحمامة في نافذته. غادر سريره ولاحق الحمامة من مكان إلى آخر، فأمرت ابنة عمّه بقتلها سرًّا. انطلق سهم صيّاد القصر وشقّ صدر الحمامة البيضاء، فنزفت قطرة دم واحدة، حين بلّلت التراب نبتت نخلة بديعة، وقع الأمير في غرامها حين رآها، وجلس ليل نهار يتأمّلها ويناجيها. أمرت ابنة العمّ بقطع النخلة ورميها في النهر. هناك تحوّلت النخلة إلى ليفة صغيرة، قذفها النهر عند إحدى ضفافه. لم يجد الأمير الليفة، لكنّ امرأة عجوزًا وجدتها وراحت تنظّفها لتستحمّ بها. سحبت بالخطأ الدبّوس فانتفضت الفتاة الجميلة أمامها، ثم هوت مغشيًّا عليها. وضعتها في كوخها، تنبض وتتنفّس وهي نائمة،و ذات يوم مرّ الأمير بالكوخ ووجد عروسه المفقودة... وهنا أشعرُ بلطمة على رأسي إذ تقول جدّتي إنّها حبلت منه! أنجبت وصار ابنهايرضع منها وهي نائمة، ثم حين مشى خطواته الأولى غافل

Twitter: @ketab_n

ثورًا هائجًا، وقطع من رقبته قلادة سحريّة، تكمن فيها روح أمّه، فعادت إليها الحياة».

أنا هي الفتاة التي عُلّقت حياتها، وسيأتي شيء من دمك وصلبك لينقذني في النهاية. أنا التي كنت مسجونة في برتقالة، قد تكون ثمرة نارنج، وأنت ستحرّرني.

لكنّني لم أعرف متى ستأتي تلك النهاية. سنة بعد أخرى، كانت تبتعد عن منالي. والأسوأ أنّك لم تكن تفطن بوجودي، أو تعرف أنّ هناك فتاة ما تبني آمالاً عظيمة عليك، أنت الذي خيّب آمال أهله ورفاقه وفرّ إلى آخر بلاد الله، ما نسمّيه «آخر ما عمّر الله».

كنتُ أعرف أنّ روسيا بعيدة، وقبل دروس الجغرافيا بحثتُ عن خريطة لأعرف أين هي وكم هي بعيدة.

لا أستطيع وصف رفرفة قلبي وزقزقته حين عثرتُ على روسيا تلك على خريطة قديمة في قاعة النظارة. تستطيع كفّ يدي القبض عليها كورقة دالية خضراء. تستطيع إصبعي لمس الأرض حيث تمشي، تستطيع عيناي أن تسبحا في المساحات الخضراء التي تحيط بموسكو.

شعرتُ بأنّني حقّقت إنجازًا بتحديد موقع البلد الذي تعيش فيه، وإن كانت إشاعة زواجك بامرأة روسيّة قد تحوّلت إلى حقيقة، إلّا أنّني رفضت تصديقها.

في ليالي سهادي، كنتُ أتحرّق شوقًا إلى البوح. ولأنّني كنت أعرف أنّ ما أكتبه هو كلام تافه لا يليق بك، لم أرغب حقًّا

Twitter: @ketab_n

في أن تقرأ رسائلي. حتى الرسالة اليتيمة التي أرسلتُها ندمتُ عليها.

هل استلمتها؟ هل هذا هو حقًّا عنوانك الذي وجدتُه وأنا أخدم والدتك في أعمال المنزل. كان المغلّف متروكًا بإهمال فوق طاولة وعليه عنوان المرسل واسمه: تيم.

تيم. لا أعرف شخصًا غيرك اسمه تيم. يتساءل كثيرون لماذا سمّاك والدك بهذا الاسم، أمّ نجيب حكت لي الحكاية.

كان والدك كجدّي، وكمعظم رجال قريتنا، بائع قماش جوّالاً، بل كان وجدّي رفيقي طريق، وصلا معًا إلى السلط والقدس. في الشام تعرّف والدك إلى رجل طيّب وتصادقا، وكان لذلك الرجل طفل اسمه تيم. أعجب والدك بالاسم وحفظه جيّدًا في ذاكرته.

هكذا أصبح لك هذا الاسم تيمّنًا بشخص اسمه تيم في الشام.

ليتني أزور دمشق وأنبشها شبرًا شبرًا عن رجل اسمه تيم، كان لوالده صديق لبناني يبيع الأقمشة على كتفه بين الحارات. لو أنّني آتي معك إلى الشام لنبحث عن «تيم الدمشقي» هذا، ونقارن بينكما، وندخل المسجد الأموي نطعم الحمام ونصلّي شكرًا للربّ الذي جمعنا، ثم نزور مقام السيّدة زينب ونلمسه لتبارك قلبينا وتكتب لنا أن نشيخ معًا.

* * *

Twitter: @ketab_n

أنقع حبّات المغربيّة بمرق الدجاج وأنتظر أن تسمن.

أغسل يديّ بعجل وأدخل إلى غرفة النوم لتصفّح دفتر يوميّاتك القديم. هل أعيده إليك الليلة؟ أم إنّه أصبح ملكي وحقّي!؟

في زياراتك المتباعدة للقرية هل لاحظتَ اختفاءه؟ هل لمست أثرًا لمن عبث بمكتبتك وقبّل بقايا روائحك بين الأوراق التي تصفّحتها بأصابعك؟

بين أوراق دفترك عثرتُ على قُصاصة ورقة مجعّدة. إحدى الرسائل التي كتبتُها إليك ولم أرسلها. تُضحكني زحلقات الحروف التي اشتهرتُ بها في المدرسة. أبدّل بطيب خاطر أماكنها في الكلمة كمجرم يقتل من دون شعور بالذنب.

حبيبي تيم...

Twitter: @ketab_n

لا أعرف ما الحبّ؟ فإنّي لا يحبّني أحد. وفي مدرسة البنات كان لكلّ بنت حبيب ينتظرها أمّا أنا لا. إنّني لم أحبّ غيرك لأنّني لم أجد من يشبهك. ما هو الحبّ؟ أمس لمّا كنت أسقي تمّ السمكة والقرنفل التي زرعتها على اسمك عفرت. كانت هناك كومة ملح فلمعت الفكرة في رأسي حينها: الحبّ أن نرى غرسة في الملح ونقول ستزهر. هكذا هو حبّي لك.

أيّ فضيحة لو أنّك تلقّيت هذه الرسالة المليئة بالأخطاء، هل ستقدّر الحبّ الذي أكنّه لك؟ وهل ستكتب في هامش أحد كتب الطبّ هذه الجملة: الحبّ أن نرى غرسة في الملح ونقول إنّها ستزهر.

جملة تليق بهامش كتاب علمي، تزيّنه وتنعشه كما شتنعش الكزبرة الخضراء طبق الفول الأخضر الذي سأعدّه غدًا.

لا يحضر هذا الطبق من دون سلام، الفتاة التي حاولت جاهدةً أن تُتقن الطبخ ولكنّها لم تنجح.

مرّةً، قدّمت لي طبق فول بالزيت صنعَته بنفسها لأخبرها رأيي. كان غريب الطعم أو بالأحرى ناقص الطعم. ما فهمَتْهُ سلام من اسم الطبق هو أنّه فول وزيت، لكنّها لم تفهم سرّ الطبق، وهو الكزبرة والثوم. الكزبرة هي سرّ بذاتها، تلازم معظم أطباقنا، «اليخاني» تحديدًا، ولكن بقدر محدود، أيّ مبالغة ستكون وخيمة العواقب. ذاك القدر الطفيف من الكزبرة هو مفتاح السرّ.

سمعنا أنّ جيراننا الدروز يحرّمون طبق الملوخيّة، ولكن

Twitter: @ketab_n

الحقّ أنّها ليست المذنبة، بل كمّيّات الكزبرة التي تتطلّبها. في كلّ طبق محرّم أبحث عن الكزبرة!

في حرب الجبل، كان رجل درزيّ يأتي بشاحنة صغيرة ليبيعنا الخُضر. طرقات إمدادنا الاعتياديّة بالخضار انقطعت. لم يكن أمامنا أيّ خيار إلّا ما يأتينا به الرجل الذي لم نحتج إلى معرفة اسمه. حين تسأله النسوة عن الملوخيّة، تستنكر أمّ نجيب: «ليش هيدا بيعرف بالملوخيّة؟ الدروز ما بيطبخوها»، وتضيف جدّتي قبل أن تسبقها أمّ نجيب للمعلومة: «لأنّو العجل زحط فيها». تضحك النسوة متعجّبات. قلت لهنّ بصوت هادئ، لا يدّعي التبصّر، إنّ الملوخيّة لا تنبت في بعقلين الجبليّة الباردة، فخرسن كأنهنّ لا يصدّقن أنّني على حقّ.

بقيتُ أتردّد في سؤال إحدى موظّفات الاستهلاكيّة الدرزيّات، حتى رأيتها تشتري ملوخيّة لأهلها، فأكّدَت لي سرّ الكزبرة المفقود. ليس دقيقًا أنّهم لا يطبخون الملوخيّة، لكنّ كثيرين منهم يتجنّبونها، لأنّها تُطهى مع الكثير من الكزبرة المُدانة بأنّها «تحرّك النفس» أو تثير الرغبة (تقصد الشهوة) لذا يوصي شيوخهم بتجنّبها.

حياة من دون كزبرة؟؟ حياة التبتّل والتصوّف التي لا طمع لي فيها ولا طاقة.

لم تقلْ تلك الزميلة كلّ الحقيقة، لأنّها بالتأكيد لا تعرف سرّ الثوم الأخطر، وتحريم بعض الشعوب لأكله بسبب سمعته السيّئة نفسها. سخرَت منّا لأنّنا نصدّق خرافة تزحلق العجل في

Twitter: @ketab_n

الملوخيّة، وحين نقلتُ سخريّتها إلى أمّ نجيب قالت ساخرة من كلينا (أنا وزميلتي): «والله بتفهمو إنتي ويّاها قد إجري! زحط العجل يعني وقع بالغلط، كبا». نعم قصدت الكبوة المحرّمة. أكلَ العجل الملوخيّة فارتكب المعصية!

فجأةً، تبدو الأمور أوضح من الشمس، وتنقشع غيمة صنعَتها أوهامنا.

نظرتُ إلى سلام وسألتُها: «وين الكزبرة والتوم؟».

احمرّ وجهها وهي تسألني: «ليش بيحطّو كزبرة وتوم؟».

ضحكتُ وقد وجدتُ فرصةً لإبراز تفوّقي عليها: «يا عيني عليكي! ولوّ! ما تقلاية الكزبرة أهمّ شي...».

لم يكن فشل سلام في الطهو السبب في طلاقها، الأرجح أنّها لم تُمنح فرصة لاختبار مهارتها، لأنّها سرعان ما عادت باكية ومكدّمة إلى بيت أبيها، وكشفت سرّ عجز زوجها وبقائها عذراء. لكنّ قضيّة الطلاق تحوّلت إلى فضيحة، حين أذاع أهل الزوج أنّه هو من طردها وطلّقها لأنّها ليست عذراء!

بكت سلام فوق كتفي طويلاً، وهي تحلف بالله العظيم أنّها مظلومة وطاهرة. تعقّدت المسألة حين أخذها والداها إلى قابلة نسائيّة واكتشفت أنّها ليست عذراء فعلاً.

إن كان زوجها عاجزًا فمن فضّ بكارتها؟ وإن كانت تعرف أنّها ليست عذراء فلماذا لم تستدرك الأمر وتعالجه قبل الزواج؟

كان ذلك لغزًا شُغلت به القرية من كبيرها إلى صغيرها. هل

Twitter: @ketab_n

سلام زانية أم طليقها عاجز؟

كنتُ أصدّق سلام من دون دليل. حتى حين حبست نفسها في غرفتها ورفضت مقابلتي، بقيت أصدّقها.

كان أن هدّد والدها بقتلها، وحاول مهاجمتها لولا تصدّي زوجته له. توسّلت إليه أن يعطيها فرصة. الفرصة كانت زيارة طبيب نسائي للكشف على غشاء لم يعد له وجود. برامج «ألبيسي» الصادمة عن الأغشية المطّاطيّة أفادت عائلة سلام، التي انتظرت من الطبيب أن يقول إنّ غشاء بكارتها مطّاطيّ.

لكنّه لم يكن مطّاطيًّا. كشف الطبيب أنّ الغشاء تعرّض للتمزيق قبل بلوغها بفترة وجيزة. أي في سنّ الحادية عشرة تقريبًا. ورجّح أنّه تمزّق إثر ضربة قويّة. سألها إن كانت تقود الدرّاجة في طفولتها ووقعت عنها؟ لا، لم تكن الدرّاجة محبّذة للبنات. لم تتذكّر الأمّ، لكنّ سلام أجهشت في البكاء. ركض والدها بعينيه المبلّلتين نحوها، وهزّها من ذراعيها كأنّه يهزّ ذاكرتها لتُخرج ما في قعرها: «.. تذكّري تذكّري منيح.. مين ضربك؟ وين وقعتي؟..».

قالت بصعوبة وسط عاصفة البكاء إنّ أحد الفتية حاول، مرّة، سلبها لوح شوكولا «أونيكا»، وحين قاومته ضربها بحذائه الرياضي القاسي أسفل بطنها تمامًا.

حين نزفَت قطرات دماء معدودة أخبرتها أمّها أنّها باكورة حيضها. لكنّها عرفت عند الطبيب أنّها كانت قطرات غشاء البكارة. وبقي السؤال، بعدما صدّق الأب رواية ابنته، كيف

Twitter: @ketab_n

سيصدّق الناس، الذين كان رأيهم ـ من دون جدال ـ هو الأهمّ.

ذكرتْ لي سلام كلّ هذا، وقالت باكية إنّها نادمة الآن على كلّ الشوكولاتة التي أكلتها في حياتها وتحديدًا «الأونيكا».

مازحتُها: «ما علينا لمّا ضربك أخد الأونيكا؟». مسحت أنفها نافية: «لا.. ضلّو بإيدي ورجعت كلتو وأني موجوعة!» حاولتُ مواساتها: «منيح انقضت عالأونيكا، لو كان «غلاكسي» دارج إيّامها أبصر شو كان صار فيكي!!».

اختلطت ضحكاتنا بالدموع، وتابعنا ترتيب «جهاز» سلام العائد من بيت الزوجيّة في صناديق فارغة.

استعدتُ يوم فتحنا علب «الجهاز» وكلّ فستان وقطعة داخليّة قبل الزفاف بأيّام. لم نقدّر أنّنا سندفنها بهذه السرعة مع النفتالين. لم تكن سلام تأمل أن تفتحها وتعرضها ثانية. تسخر من الملابس الخليعة وهي تطويها برقبة مائلة نحو الكتف. أراقبها وأنا أسأل نفسي: أيّ تفاهة تتملّك الفتيات وهنّ يشترين هذه الأشياء؟!

السؤال نفسه شغلني حين كانت أختي منال تستعرض «جهازها» أمام أخت خطيبها «العازبة»، التي سال لعابها إعجابًا بخلاعة تلك الملابس وحسدًا لمنال. منال أيضًا كانت تحسد نفسها، قالت إنّها تخشى، لشدّة شوقها، أن تموت قبل أن ترتدي تلك الفساتين والملابس الداخليّة.

ندمَت منال لاحقًا، من دون أن تعترف بندمها لأحد. راحت تعيد لفّ بعض فساتين جهازها في علب هدايا، وتهديها لمعارفها

Twitter: @ketab_n

في المناسبات، وهي تؤكّد لنا أنّها لم تلبسها قطّ. الشغف السطحيّ يذوب أسرع من مكعّب ثلج في فرن.

ليس هذا سبب تورّط زوج منال بعلاقة محرّمة مع زوجة أخيه. بل لعلّ العكس هو الصحيح. يكتشف الرجل بعد الزواج أنّ هذه الزوجة ورطة، فرض منزلي، وأنّها لا تكفي، الأمر الذي لا يُخفى على الزوجة، فتزهد في كلّ شيء، حتى ملابسها الجميلة.

حين كانت منال تعرف أنّ زوجها في الطبقة السفلى من عمارة بيت حميها، يجامع سلفتها، لم تملك إلّا رفع صوت تلفزيون «المستقبل» كي لا يسمع أولادها الجلبة... «وحياتك بتمون، عيوني هالعيون، أنا حبّيتك من أوّل نظرة وكلّ شي لعيونك بيهون... بتموووون لعيونك»...

* * *

Twitter: @ketab_n

أدوّن عنوان الكوافير كما أملاه عليّ عبر الهاتف، لأنّ ما هو مكتوب في المجلّة مختصر، وأنا لا أعرف المدينة. أنظر من نافذة غرفة الطعام. سأقف هنا أودّعك بعينيَّ حين تغادر ـ في حال أتيت ـ وأرسم علامات استفهام على زجاج النافذة.

أكتب اسمك وأغطّيه بالزهور كما اعتدت. وأرسم علامات الاستفهام والتعجّب في بياض الورقة المتبقّي.

عندي ثلاثة أسئلة كبيرة.

العدد ثلاثة أسطوري. في جميع الحكايات هناك ثلاث بنات فقيرات، والثالثة هي البطلة، وهناك ثلاثة طلاسم على البطل حلّها، وثلاثة اختبارات عليه اجتيازها. لم تكن جدّتي تعرف حكاية سندريلّا وبياض الثلج، لكنّي عرفت أنّ سندريلّا هي ثالثة بنات المنزل، وتذهب ثلاث مرّات إلى حفلات الأمير، وفي المرّة

Twitter: @ketab_n

الثالثة تترك حذاءها خلفها، وبياض الثلج تتعرّض لثلاث محاولات قتل من الساحرة، والشاطر حسن ابن الفتاة الثالثة، ويذهب في ثلاث رحلات إلى بلاد الغيلان. . .

بنت الغول هي الابنة الثالثة، يضع الغول ثلاثة شروط تعجيزيّة للأمير الذي تقدّم لخطبتها، كذلك الفتاة التي تطعمها أختاها بيض الحبل، فتحبل وتفرّ خوفًا من غضب والدها ومن عارها المميت. ما أقساه من مصير!! فتاة عذراء تأكل بيضًا مسحورًا فتحبل، وتفرّ قبل أن يكتشف والدها انتفاخ بطنها، تفرّ حافية تدمي الأشواك رجليها!! تفرّ في العراء الموحش تلاحقها بنات آوى. . . التعثّر غير مسموح به.

تتقاطع الحكاية في جزء «الألغاز الثلاثة» مع حكايتي التي تختمها ثلاثة أسئلة: لماذا فسختَ خطبتك؟ لماذا تكرهني عيْشة؟ ولماذا لم أمتْ حين وقعتُ عن الشرفة؟

أنت تملك إجابة، وعيْشة تملك أخرى، والله يملك الثالثة.

لذلك لن أموت مطمئنّة النفس. عيْشة لن تجيب، ومهما بحثتُ عن أعذار لما دمّرته في حياتي لن أجد، وأنت لن تذكر على الأرجح، وإن تذكّرت ستتهرّب، وإن لم تتهرّب وقلتَ الحقيقة فلن تفيدني. أمّا الله، فقد مضت سنوات على القطيعة بيننا. يتركني لأمري متوعّدًا بلقاء في حياة أخرى، لا أعرف عنها إلّا أنّ رائحتها برائحة صباحات أيّام الجمعة.

رائحة ريّ الحبق والمردقوش. . .

Twitter: @ketab_n

نعم! المردقوش الذي زرعتُه حول قبر جدّتي. سأتسلّل إليه وأخطف بعضه، إن كانت خالتي قد سقته في خلال أيّام الحرّ هذه.

تلك مصيبة أخرى! سأخاطر في الذهاب، وربّما لا أجد المردقوش حيًّا!!

* * *

Twitter: @ketab_n

٢

حلمتُ يومًا أن أصبح طبيبةً مثلك، لكنّي كنتُ محبطةً إلى درجة تناسي الحلم.

أردّد العبارة في قلبي: «الحكيمة بنت السحبة»، فيترجّع صداها كعواء بنات آوى الهائمات في ليل «الساقية»، مشنوقًا ببحّة سخرية. ثم كيف أدرس الطبّ وأنا أعرف جيّدًا مأساتي مع الحساب والرياضيّات.

لذا ركّزت في حلم السفر إليك. أردتُ العمل ليل نهار لأجني المال، وأسافر إلى موسكو، وأقصد العنوان المدوّن على المغلّف القديم، والذي أحفظه عن ظهر قلب، وأكرّره كلّ ليلة، وأنا أذكّر نفسي كي لا تنسى يومًا حلمها: السفر إلى موسكو.

كان الحلم يراودني مع أحلام مجنونة أخرى منذ عثرت على دفتر يوميّاتك. لكنّه بعد سنوات صار الحلمَ الأقوى والأكبر.

Twitter: @ketab_n

أزلتُ من وجهه كلّ العوائق، وأبعدتُ كلّ الأحلام التي قد تخفّف وهجه. تصدّر أولويّاتي. وكنتُ إذ أُحصي ما أدّخره أخبر النقود وأنا أقبّلها أنّها ستأخذني إلى موسكو، ثم أخفيها فوق السقيفة في برميل الطحين الذي لا يغرف منه أحد سواي.

الآن تذهب تلك النقود مع ليرة الذهب إلى كلفة الوليمة. استئجار الشقّة وتجهيزها، عدّة العشاء والملابس وأجرة الكوافير وخبيرة التجميل والتنقّلات والصندل الأبيض أيضًا. لستُ مضطرّة إلى السفر والشقاء لأجل الڤيزا بعد ما عرفتُ مواعيد قدومك إلى لبنان، وابتكرت تلك الخطّة، وتملّكت شجاعة كافية لأطلبك بالهاتف، وأسألك عن موعد حضورك إلى بيروت، لتشارك في بحث إحصائي تعدّه شركة بحوث عن «جيل طلّاب روسيا زمن الحرب اللبنانيّة». خطّطت جيّدًا واخترتُ كلماتي بعناية ودوّنتها في ورقة، رحتُ أقرأ عنها وأنا أهاتفك وقلبي ومعدتي يتفجّران رهبة وعشقًا، والعرق يتصبّب منّي والنار تخرج من وجنتيّ.

الموعد الذي حدّدتَهُ لي دوّنتُه أيضًا لحسن الحظّ، لأنّني ما كنت لأذكر الرقم: رقم اليوم والشهر،إذ لم تعطني اسم الشهر بل رقمه: ٣ ـ ٤،الثالث من نيسان. موعد حضورك والسابع منه موعد لقائنا.

وأخيرًا سيتغيّر حظّ أيّام الجمعة. بعد ما كانت وقفًا على المقبرة والنحيب، ورؤية النسوة المعمّمات بالسواد يحملن الرياحين ودلاء الماء ليسقين قبور أبنائهنّ وأزواجهنّ وآبائهنّ.

Twitter: @ketab_n

الابن أوّلاً لأنّه أفتى، ثم الزوج ثم الأب. الرجال يموتون بكثرة وتعجّل. لاحظتُ من أموات العائلة قبل أن أتفحّص أسماء موتى القبور، جدّي وأبي وخالي شبل وقبله ثلاثة أجنّة ذكور. سريعو العطب، يستسلمون للموت بسرعة.

* * *

Twitter: @ketab_n

لم أعش مع رجل. حياتي القصيرة مع أبي كانت خالية منه تقريبًا، كان يمضي الوقت بين الصيد والمقهى. أسمع قُبيل منتصف الليل صوت مفتاحه وصرير الباب، ومع الفجر يستيقظ لصيد أوفر. يعوّض ما فاته من نوم بعد الظهر، ثم يخرج إلى المقهى ليبيع ما اصطاده ويلعب الورق.

جدّي مات بعد ولادة خالتي فاطمة بأسبوعين على الأكثر، وجدّي لأبي مات قبل ولادتي بعام. كنت أفكّر في أنّ الذكور يموتون بسرعة وأخشى عليك. حتى والدك مات قبل أمّك.

وأنا، لم أنتصر على الموت لأنّني قويّة ومقاومة، بل لأنّ ماري أشفقت على جدّتي وأعطتها مالاً لشراء حليب صناعي. بعد سنوات أعطتني ماري شيئًا حلوًا آخر!

ذهبتُ مع جدّتي إلى المأوى، لأنّها ستأخذني نهاية الدوام

Twitter: @ketab_n

إلى الطبيب ليفحص عينيَّ، إذ اشتكت المعلّمات من أنّني لا أنقل جيّدًا عن اللوح، ولا أقرأ جيّدًا.

كانت ماري ودودة وجميلة وأكثر... فقد أعطتني إصبع «نوغا أولالا»، كنت أرى إعلاناته في «تلفزيون لبنان»، وأحفظ أغنيته: «أولالا.. أطيب نوغا بشوكولا».

اختفت ماري بعد حرب الجبل. مضت سنة كاملة وجدّتي تسأل عنها، حتى عرفنا أنّها استقرت في جونية مع أخيها. وبعد سنوات، سمعنا أنّها لحقت أبناء أخيها إلى أستراليا.

حلمًا كانت ماري، ماردًا انطلق وأعطاني نوغا بشكوكولا ثم اختفى.

أتخيّلها تركض بقميصها المحفور عند الإبطين وتركبُ سيّارة وهي تبكي، وأقول لا بأس إن كانت قد نسيت النوغا في مكتبها، فلا بدّ من أنّ العجزة تمتّعوا بها.

لم نعرف قطّ أين ذهب العجزة؟ كيف تصرّف المقاتلون بهم؟

لم تُشغل جدّتي بهم، بل بانقطاع راتبها الضئيل. انقطع مورد رزقنا الأساسي، وبقي طعم النوغا بالشوكولا في حلقي، أمّا تقرير طبيب العيون فقد أثبت أنّ نظري ممتاز، لكنّه لم يثبت أنّ مشكلتي المدرسيّة ليست في النظر بل في مكان آخر لم يكشف غوره أحد.

السعيدة الوحيدة كانت فاطمة. الحرب أجبرت أمّها على ترك مهنة غسل الملابس. لكنّ ما فرحتْ له أشقاني وأشقى جدّتي. اضطررنا إلى تكثيف أعمال الزراعة والحقول، وتحديدًا صناعتي صابون الزيت وماء الزهر اللتين صارتا مهنة للعائلة، وصنعتا لنا

Twitter: @ketab_n

سمعة في القرى المجاورة، ما دفع جدّتي إلى توظيف ابنة أخيها.

استغنت تمامًا عن فكرة استجداء مساعدتي، حين أدركت أنّ فيّ الكثير من تمرّد فاطمة، ولي نصف قلب أسود لم تحدس أبدًا بوجوده.

بدل العمل معها وإحراق جلدي بالقطران ومراقبة قطرات ماء النارنج، صرتُ أجلس ساعات أقرأ وأكتب وأمزّق وأحلم بك. أتصوّر نفسي طبيبة في المستشفى التي تعمل فيها، نتعاون في غرفة العمليّات، ونأخذ القهوة في الكافتيريا معًا، كما رأيتُ الأطبّاء في المستشفى حين أنجبت أختي الكبرى بكرها. لم أتصوّر وجود إنسان بذاك الحجم، كان يمكن تغطيته بالكامل بعرض كفّي.

سمّاه والده وليدًا تيّمنًا بوليد جنبلاط. وقبل أن يبلغ وليد أسبوعًا هربت به أمّه مع عيْشة وأخواتي إلى الجنوب فارّين من حرب الجبل. «أصغر زعيم مشرّد» قلت في نفسي.

أنا بقيتُ لأنّي كنتُ خائفة. ليس صحيحًا ما قلتُه لهم: «راح ضلّ مع ستّي».

هي كانت صادقة حين قالت: «مين بدّو ينتبه للزيتونات؟ مين بدّو يطعمي الدجاجات؟ وإذا احترق البيت؟»...

أمّا أنا فقد كذبت. لم أبق معها حبًّا فيها، بل لأنّني خفتُ من مجرّد ركوب سيّارة والتنقّل على الطرقات. ماذا لو هاجمونا على الطريق؟ ماذا لو ذبحونا كما أسمع عن آخرين ذبحوا كالنعاج.

Twitter: @ketab_n

نظرتُ حولي أبحث عن خالتي، لكنّها كانت قد لحقت بعيشة وحشرَت نفسها في السيّارة.

صار الحيّ موحشًا جدًّا. لم يبقَ سوى العجائز أمثال جدّتي الذين يتحجّجون بأيّ شيء كي يبقوا.

لكنّي ندمت ولمت جدّتي على هذا، بل إنّني شتمتها في سرّي. أصبح صوت القذائف أقوى وأقرب، والوقت بين واحدة وأخرى صار يتقلّص.

«راح موت راح موت»، قلتُ لنفسي. وجدتُ المطبخ أكثر أمنًا من أيّ مكان آخر. انزويت في أعمق زواياه وأقفلتُ أذنيّ بكفّيّ. يومَذاك سقَطت شظيّة في الساقية، لم تؤذِ أحدًا إلّا ضمير جدّتي، التي تمنّت لو أنّها رمتني في السيّارة مع فاطمة رغمًا عنّي.

لم أعرف إلى اليوم كيف شاع خبر اختبائي في المطبخ! لكنّ كلّ من بقي في الحيّ قصد المطبخ ذات ليلة لعينة، جُنّ فيها جنون القذائف والمدفعيّات. صار المطبخ ملجأ من أعرفه ومن لم أره في حياتي!

ظلّت تلك الليلة ترعبني سنوات طويلة، ليس بسبب القذائف وانحشار الأجساد الخائفة التي أصدرت عرقًا مريع الرائحة، بل بسبب فتاة مجهولة لم أكن أعرفها أو يعرفها أحد من أهل الحيّ.

لم تنبس بكلمة. كانت في العاشرة من العمر تقريبًا، وكنت أكبرها بخمسة أعوام. برغم وجهها الطفولي إلّا أنّ جسدها كان

Twitter: @ketab_n

يجنح إلى الأنوثة. جلسَت وضمّت ركبتيها إلى صدرها تحت فستانها القطنّي السميك. سألتْها النسوة عن والديها: بنت مين إنتي؟ فلم تردّ. أمطرنها بالأسئلة فلم تردّ أيضًا. قالت إحداهنّ إنّها قد تكون خرساء، وقال زوج أخرى إنّها قد تكون فقدت النطق والسمع الليلة، بسبب رعب ما يجري.

لم تهتزّ أو تلتفت إلى من يسألها، حتى ركن الجميع إلى أنّها صمّاء بكماء.

بعد ساعة، نطقت. سألت عن الحمّام. أرشدتها جدّتي. دخلتْ فتزايد الهمس عنها، من تكون؟ ابنة من؟ كيف وصلت إلى هنا؟ من رآها سابقًا؟

لكنّ صرختها من الحمّام أخرست الجميع، قامت جدّتي لتفقّدها.

فتحت جدّتي باب الحمّام، وشعرتُ بخنجر يفلق جبهتي إلى نصفين. صعقة كهرباء تصدع جمجمتي.

كانت الفتاة تقف رافعةً فستانها، مبعدةً ساقيها، ولباسها الداخلي العالق بين ركبتيها مبقّع بالدماء. عاودتْ الصراخ المذعور، فتدافع الرجال قبل النساء لرؤية ما يجري. وقد رأوا. الجميع من دون استثناء.

صرخت وهي تظنّ أنّها أُصيبت بقذيفة، لكنّ جدّتي تفحّصت جسدها وطمأنتها.

هدّأت جدّتي لاجئي المطبخ بكلمات مبهمة لا يفهمها إلّا

Twitter: @ketab_n

الراشدون، أقفلت باب الحمّام وانفردت بالفتاة التي حوّل الرعب ملامح وجهها الطفوليّة إلى تجاعيد وجه أضناه التحديق إلى الشمس.

خرجت جدّتي وهي تمسك الفتاة. أجلستها مكرّرة عبارات الطمأنة، وسقتها من «طاسة الرعبة»: «ما في شي عيني.. بسيطة.. بسيطة.. كلّ البنات هيك.. ما بيساير».

أشفقتُ لحال الفتاة، ولفضيحتها وسط هذا الحشد، ولكنّني لم أحتمل الجلوس معها، ولم أطق رائحة دماء حيضها الأوّل، فخرجتُ أبحث عن هواء جديد ولو كان مشبعًا بالبارود.

تلك كانت واحدة من الفتيات اللواتي اعتبرتهنّ أسوأ حظًّا منّي. لقد شهد غرباء كثيرون من نساء ورجال حادث بلوغها الذي يجب أن يكون أكثر أسرار الإناث قدسيّة. كما أنّها أبكرت دخول عالم النساء، وستمنعها أمّها من اللعب مع رفيقاتها، ومن المرور أمام الأولاد الذكور. خطف الرعب طفولتها. جعلَتها القذائف الممطرة فوق رأسها تنزف من دون أن تصيبها رصاصة.

تمنّيت أن أنساها، وأن تختفي كما ظهرت، وقد اختفت فعلاً. اختفت سنتين كاملتين.

حين هدأت جبهات القتال وقيل إنّ حرب الجبل انتهت، وعاد كلّ منا إلى عمله وحياته، ظهرَت. صارت، للمفارقة، أكثر فتاة ألتقيها حين أخرج من الحيّ.

أصبحتُ ألتقيها مرّة على الأقلّ في اليوم، في الشارع أو في باصات وسيّاراتْ الأجرة من دون أن نتحادث مرّة أو أسأل أحدًا

Twitter: @ketab_n

عنها وعن اسمها. وهي لم تكن تنظر إليّ، كانت تملك نعمة التجاهل، إذ لم تقع عينها على عيني قطّ، بل إنّني حاولت تجاهلها لاحقًا مطمئنةً نفسي إلى أنّها لا تراني.

مرّة، كنّا معًا في تاكسي، وكانت كعادتها تأخذ المقعد الأوّل، وتدفع عن راكبين لسمنتها وخجلها من أن ينحشر أحدٌ بأرطال الدهون المتدلّية منها. حين نزلت همست المرأة الجالسة قربي لابنتها بكلمة وهي تحبس ضحكتها الساخرة: «غزالة»!!!

كانت تسخر منها وتصفها بوصف نقيض لتُضحك ابنتها.

أسفتُ لحالها، ثم لحالي. أنا أيضًا حين أغادر التاكسي سيسخر ركّابه وسائقه منّي. من حاجبيّ! من دمامتي! من ارتباكي داخل ملابسي البخسة! عندهم خيارات عدّة.

ثم اختفت الفتاة السمينة تمامًا.

فرحتُ، لأنّني طويتُ ذكراها، ونسيتها عقدًا كاملاً.

إلى أن مررتُ ذات يوم جمعة بشاهد قبر جديد، وقرأتُ اسم المرحومة «غزالة محمّد بديع» المواليد ١٩٧٥. شعرتُ بأنّها هي، وبأنّها ادّعت الخرس خجلاً من اسمها، وقد تكون تلك الليلة هربت من أهلها إثر شجار حول اسمها وسمنتها، وأنّها الآن ترقد تحت هذا الشاهد وتبكي ذعرها وحيدة، من دون أن تجد من يناولها «طاسة رعبة» وقطرة ماء.

صرتُ أروي قبرها بين حين وآخر. حتى التقيتُ امرأة تنتحب فوقه فسألتها عن الفقيدة.

Twitter: @ketab_n

أخبرتني حكايتها.

صُدمتُ. تلك المرأة في التاكسي لم تكن تطلق عليها لقبًا ساخرًا لتُضحك ابنتها، بل كانت تسمّيها باسمها.

غزالة.

الغزالة التي رأيتُ أولى قطرات دمها ظلّت تسمن حتى سفك السكّري كلّ دمائها.

لقد كان اسمها قاتلها. تمكّن اليأس منها، بينما الناس ينادونها غزالة وهي تسمن وتسمن.

اختفت من الشوارع والمواصلات العامّة لتسكن في الطريق إلى قبر جدّي وخالي، قبل أن تنضمّ جدّتي إليهما. الطريق الذي سأسلكه كلّ عيد وكلّ يوم جمعة، حتى يذوب عمري قطرة قطرة وأنطفئ في نهايته.

* * *

Twitter: @ketab_n

أتوتّر حين أعدّ الساعات المتبقّية. خمس ساعات. كيف أمسك نفسي في خلالها؟ كيف أجعلها ساعات سعيدة وهادئة؟

أنظر إلى دفتري لأتيقّن بموعد الكوافير. طالما كانت علاقتي سيّئة مع الساعات وعقاربها، ومع الأرقام التي لا أميّزها إلّا بعد جهد.

الرابعة. نعم هذا ما طلبته. العودة في الخامسة إلى البيت لوضع اللمسات الأخيرة على المأدبة وارتداء فستاني وانتعال صندلي العالي. حتى الرابعة عليّ إنجاز الكثير، لكنّني أشعر بأنّني نسيت كيف أطهو! كشعور طالبة في انتظار ورقة الأسئلة في الامتحانات.

هل سيسير كلّ شيء كما خطّطت، كما كتبت في مفكّرتي كي لا أخطئ الخطوات وأنسى بعضها أو يسرقني الوقت، كتبت

Twitter: @ketab_n

الساعة على يمين الورقة وقربها ما عليّ فعله، ٤٨ ساعة لليومين وقد انقضت ثلاثة أرباعها، آخر رقم هو السابعة من مساء اليوم. لم أدوّن بعده أيّ رقم. ماذا سأفعل الثامنة والتاسعة والعاشرة ـ بعدرحيلك ـ لو سلّمنا أنّك أتيت. لن يستمرّ العشاء أكثر من ساعتين. وبعد الساعتين سأكون أنظّف الصحون وأفكّر في الغد؟ الاختيار بين العودة إلى الضيعة أو البقاء هنا، أو ربّما الذهاب إلى الشاطئ مثل آلاف الناس حولي، والمرأة النحيلة واحدة منهم.

كيف أضمن أنّني هذه المرّة سأتمّ الطهو على ما يرام، ولن يحدث خطأ ما؟ كيف أضمن أن تكون المقادير صحيحة كالعادة؟ أنا التي لا أستخدم المقاييس والأوزان، وأتبع ملمس أصابعي في إضافة رشّة من هنا ورشّة هناك. لا أزن الأمور بأرقام، بل أترك أصابعي ويديّ وعينيّ تفعل وتخمّن، الملح والبهارات وحتى المياه والسوائل أقدّرها بوزنها وأنا أحملها.

لم أستطع يومًا إعطاء مقادير طبخة أُجيد إعدادها. رأت النسوة في هذا لؤمًا ورغبة في احتكار سرّ الطبخة عنهنّ، لكنّني كنت أحاول شرح الأمر لهنّ كما أشعر به، وليس كما تعلّمته، رشّة خفيفة ورشّة كبيرة ومقدار كفّ من الطحين وكفّين من الكزبرة... هل كان الأمر لينجح لو كانت كفوفهنّ ككفّي، وأصابعهنّ، تحديدًا السبّابة والإبهام والخنصر كأصابعي؟ الأكيد أنّني لم أكن لئيمة، بل جاهلة بالمقادير والأرقام.

في بيت أبي لم تكن عيْشة تطهو، كانت تقضي وقتها في

Twitter: @ketab_n

الدكّان. والدة أبي كانت تتولّى أمر الطهو، وترسل من بيتها في الطبقة الأولى إلى بيتنا في الطبقة الثانية، بينما عيْشة في الدكّان أسفل العمارة تشمّ الروائح المنبعثة من مطبخ حماتها وتخمّن ماذا تطهو، لأنّ الاتّصال بين المرأتين كان شبه معدوم.

في سنواتي الأولى كانت تبقيني معها في الدكّان. كان رطبًا وعفنًا، لأنّه لا يملك منورًا وتهوئة سوى بابه، ولم تكن تغلق الباب في الشتاء والبرد خشية العتمة، لذلك كنت أمرض كثيرًا ولم تكن تسعى لعلاجي لأنّها، كما تُباهي أمام النسوة، لم تدخل بيتها حبّةُ بندول، وهي تترك أولادها يتعافون وحدهم ويكسبون المناعة.

كان دكّانها أوطأ من الطريق. عليك الانحناء والتروّي وأن تتدلف من الباب الواطئ وتنزل الدرجتين المتفسّختين. لم تنجُ تلك الغرفة الكئيبة من السيول إلّا بمعجزة. كنت أشعر بالسقف واطئًا، وأنّه سيطبق على قلبي بمؤامرة من عيْشة نفسها. إنّ كلّ ما في تلك المرأة، حتى الجدران التي تعيش بينها جلّ وقتها، تريد التخلّص منّي.

كانت عيْشة قد حملت بي بالخطأ. لكنّها لم تفعل شيئًا لتصحّح ذلك.

لم تذهب إلى شيخ ما، كما فعلت حين حملت بزلفة، ولم تحاول إجهاضي كما حدث مع ذلك الجنين الذي لم تعرف هويّته.

كذلك أقلعت عن المعتقدات النباتيّة التي لم تفلح مع

Twitter: @ketab_n

الولادات الخمس السابقة، كأكل الملفوف والامتناع عن الخسّ، وتفضيل الأكل المالح على الحلو...

وقد حاولت امرأة اصطحابها إلى شيخ «واصل»، لكنّ تجربتها مع شيخة سابقة أقنعتها بنعمة البقاء في الدكّان.

حين حملتْ بزلفة قصدتْ البقاع مع سلفتها العاقر نبيهة. دفعت كلّ منهما الكثير مقابل تميمتين صغيرتين.

وقد كانت تعويذة الشيخة تلك غريبة، إذ أعطتهما التميمتين وطلبت من عيْشة أن تبول على تميمتها، أن يبول زوج نبيهة على تميمتها كي تحمل. لكنّ نبيهة قالت مرتبكة إنّ زوجها لا يعرف بهذا الأمر لأنّه لا يملك المال، وهي اقترضت من أخيها لتأتي إلى هنا... فتعاطفت الشيخة مع مأزق نبيهة، وسمحت لها بأن تبول هي بدل زوجها، شرط أن تنوي بالقول: نويت أن أبول بدل زوجي فلانًا بن فلانة.

حين عادت المرأتان من المشوار البعيد والمرهِق، شعرتْ عيْشة، لسبب ما، بأنهما بدّلتا التميمتين، وأنّ التي مع نبيهة لها والعكس. دخلت الريبة قلب نبيهة، فبادلت تميمتها بتميمة عيْشة، وقامتا بما طلبته الشيخة وهما متشكّكتان في أمر المبادلة تلك.

حكت لي نبيهة حكاية «مشوار البقاع»، وكيف كانت عيْشة متيقّنة في أثناء حملها بي بأنّها ستنجب ولدًا. فهمتُ لماذا لم تصدّق عيْشة أنّها أنجبت بنتًا وليس ولدًا. سألتْ النسوة: إجا جمال؟ إجا جمال؟ كانت ستسمّيه جمالاً على اسم الزعيم المصري الذي توفّي أثناء حملها، والذي كانت صورته معلّقة في

Twitter: @ketab_n

دكّان زوجها وحميها من قبله.

وبذكر عبد الناصر، يحضر رجل آخر سكن كلّ بيت من بيوت الحيّ وربّما القرية، هو عبد الحليم.

لعلّه الوحيد الذي احتلّ قلوب الأجيال المتعاقبة. كلّ جيل دخل المراهقة متأبّطًا ذراع عبد الحليم وأغانيه. كان من الصعب تقبّل دخول منافسين له على الخطّ. والد سلام حطّم كاسيتات مدحت صالح، لأنّ أحدًا برأيه لا يستحقّ أن تشتري ابنته كاسيته إلّا عبد الحليم. لكنّ الجيل الأبوي انهزم مع اجتياح عمرو دياب (وأمثاله) لحياة أولادهم. كان ذاك الشابّ، القافز كالقرد على المسرح، عاصفةً هوجاء من الصعب التصدّي لها، وكان الآباء قد هرموا بدورهم، فانسحبوا من المعركة لصالح لولاكي وميّال ميّال...

عالم الذكور كان كسرداب تحت الأرض. والحكاية لم تتوقّف عند المقهى، بل تطوّر تلاحقًا في خليّتهم الأغزر: مدرسة البنين.

كانت لهم مدرستهم، وتُعرف بمدرسة الصبيان، ومدرستنا مدرسة البنات. وحين لاحظ المدرّسون أنّ الذكور يتّجهون إلى مدخل مدرسة البنات وجوارها ليروهنّ في أثناء خروجهنّ، حاولوا ضبط الأمر وتأخير خروج الصبيان ربع ساعة عن وقت خروج البنات.

لكنّ هذا لم ينفع. كانت البنات تتلكّأن والأولاد يفرّون قبل الوقت.

Twitter: @ketab_n

كنت أرى التلميذات الكبيرات ينتحين زوايا وأماكن مظلمة (مطلع الدرج أو بيت مهجور...) ويتحدّثن إلى صبيان أو رجال يدسّون أشياء في أيدي بعضهم بعضًا وفي جيوبهم، رسائل وهدايا أشرطة كاسيت، في خلال الفرص لا تكون زحمة كما عند نهاية الدوام أو «الفلّة»، وفي هذه الفرص تربّص حمّودة لجيهان وتحرّش بها، وأعطى فتى الفرّان أختي سعدى كاسيت هاني شاكر، التي لم تتوقّف عن تشغيله لأيّام، حتى إنّها كانت تغنّي في منامها: أصاحب مين؟ ويا ريتك معايا... وكذلك تمزّق مريول أختي سعديّة، ولم تكن ترتدي بلوزة تحته، فظهر جزء من بطنها وسرّتها لجمال ابن الجزّار، فصار ينتظرها كلّ يوم في الموعد نفسه، ثم التحق بالجيش لأجل أن يخطبها، الحادثة التي تُعرف في بيت عيْشة بـ «أوّل فرحة».

«الفلّة» كانت مهرجانًا. زحمة وصراخ وضجّة وبشر كثيرون وسيّارات وباعة جوّالون، كعك وغزل البنات ومكسّرات وعدّة زينة... وشبّان ينتهزون الفرصة ليصطادوا غمزة أو نظرة أو رسالة إن أمكن. يقفون فوق سور المدرسة ليراقبوا الفتيات.

بدورهنّ، كنّ يرتبكن لمجرّد معرفتهنّ بوجود الجنس الآخر يراقبهنّ، لذلك كنّ يُخرجن أقلام الكحل وأحمر الشفاه قبل خروجهنّ، وكثيرات يرفعن تنانيرهنّ لتصير قصيرة، وأخريات يخلعن المراويل لتتنشّق أفخاذهنّ، المحشورة في الجينزات الضيّقة، أنفاس الذكورة الحارّة، التي تُشبع الهواء المحيط بالمدرسة.

Twitter: @ketab_n

لم أترفّع عن تصرّفاتهنّ، لكنّي لم أفهم. لمَ عليهنّ مكابدة أيّ عناء لأجل رجل؟

ألم يرين كيف تفعل الديوك؟ تنتقل من دجاجة إلى أخرى على مدار اليوم، وتدير ظهرها للفراخ كأنّها لا ترتبط بها بأيّ صلة.

ألم يرين ذكور القطط؟ تحديدًا في الشتاء، موسم التزاوج. تتعارك حتى النزف، وتقتلع بعضها عيون البعض الآخر لأجل التزاوج مع أنثى. تصبح أصواتها كالزئير، تعود إلى أصلها المتوحّش القاتل، وتنسى تاريخًا طويلاً من تدجين البشر لها وترويضها. يتخطّى الأمر أيّ مخيّلة إجراميّة بعد التزاوج، حين تفترس القطط جراءها لأجل معاودة التزاوج مع الأمّ الثكلى.

كانت جدّتي تهرّب الجراء الحديثة الولادة من مكان إلى آخر في نهايات الشتاء وبدايات الربيع.

مرّةً، قالت لها أمّ نجيب غير موافقة: «اتركيه ياكلهن، لو ماهيك كانت البسينات فوقنا وتحتنا».

لم أبُح لأحد عن السعادة التي كانت تغمرني حين تختار جدّتي ديكًا لتذبحه، وتعفو عن الدجاجات. لم نذبح يومًا دجاجة. لم نتخلّ عن واحدة إلّا حين تنتهي سنوات عمرها. يكون الأسفُ أكبر من أن يوصف. تخبرني جدّتي بصوت مرتعش: «ماتت الدجاجة الرصاصيّة»، فيشلّ الحزن أطرافي.

حاولتُ مرّةً إنعاش دجاجة محتضرة. سقيتُها قطراتٍ من «المازهر»، كما نفعل لإنعاش المغمى عليهم. ولكنّي لم أنجح.

Twitter: @ketab_n

لم تُبدِ تلك الدجاجة أيّ رغبة في الحياة.

في معظم المواقف الصعبة كنت ألجأ إلى ماء زهر، تميمتي الأعزّ والأنجع.

بعد وفاة جدّتي بأيّام، وأنا أغادر البيت قاصدةً الاستهلاكيّة، أقفلتُ الباب بقوّة كعادتي، فشعرتُ بشيء ينهمر خلفي.

التفتُّ، فرأيت زهور النارنج تفترش الأرض المحيطة بجذع الشجرة. لم أصدّق أنّ خبطة الباب هي السبب، بل هي تساقطت يومًا بعد آخر من دون أن ألحظها، وأرادت هذه الصبيحة أن تذكّرني بموعد تقطير «المازهر».

كدتُ أتابع خطواتي، لكنّني قلت في نفسي: ما كانت جدّتي وهي حيّة أن تترك الزهور تذبل تحت أمّها! ما كان من العدل أن تُزهق رائحتها الجميلة هباءً!

لذا تركتُ حقيبتي، وركعت تحت الشجرة أجمع الزهور في كيس مخدّةٍ كان منشورًا على حبل الغسيل.

رحتُ أعتذر منها بصمت، برجفة أصابعي النادمة.

«المازهر» هو روح الزهرة. نحن نقطفها ونمزّق أوراقها وننقعها في الماء الحارّ، ثمّ نتركها تغلي، فتبكي ألمًا. تختزن دموعُها عصارةَ روحها.

أفكّر في شيء وأنا أحرس «الكركة»[1] من عراك القطط:

(١) آلة تقطير تقليديّة.

Twitter: @ketab_n

زهور النارنج الجميلة تغلي على النار، ومن هنا ربّما استحقّت اسمها: نار ـ نج، وفي بحر النار تستنجد من الغرق والاحتراق والغليان، لكنّ أحدًا لا يكترث، قطرات قليلة من بخارها تنجو وتصبح عطرًا مكثّفًا. أفكّر أنّ أصل الكلمة هي مزج لكلمتي: نار ونجاة.

تروح تقطر قطرةً قطرة، بتؤدة وإيقاع منتظم. نجمعها في قوارير، نخزّنها فترةً قبل أن نبيعها.

تواسينا في الجنائز الحاشدة. نرشّ روح النارنج على المفجوعين والمغمى عليهم. تعالج المرضى النفسيين والمكتئبين واليائسين... تُنعش الحلويات أيضًا، وتُشفي مغص النفِسات والمرضعات.

ليس قليلاً على روح زهرة فوّاحة كزهرة النارنج أن تفعل هذا.

أضع قطرات «مازهر» معدودة في خليط حلوى «عيش السرايا». نقعتُ «التوست» الجافّ بالعسل، وفوقه سأضيف طبقة القشدة التي سأعدّها من الحليب والنشاء و«الماورد» و«المازهر». أمّا اللمسة الأخيرة فهي تزيين الطبق بمسحوق الفستق الحلبيّ وحبّات اللوز، وبعض جوز الهند. لكنّني سأرتجل اليوم، وأضع طبقةً من شرائح الفاكهة في الوسط.

هل الارتجال في مكانه؟

أتردّد. لم أكن هكذا في المطبخ أبدًا. عالج الناس أنفسهم

Twitter: @ketab_n

بالموسيقى والعقاقير والأعشاب وحتى الوهم، وأنا شفيت نفسي بالطبخ.

في المطبخ فقط كنت أستردّ ثقتي بنفسي وأتفنّن، حتى عندما أكتب إليك لا أكون سعيدة كما عندما أطبخ، والفارق واضح، ما أكتبه ينتهي في سلّة المهملات، بينما ينتهي ما أطهوه في الدماغ.

طعم تلك المأكولات يبقى تحت أضراس متذوّقيها، وفي ذاكرتهم أيضًا.

كم مرّةً قصدنا الزوّار لأجل تذوّق أطباقي! كم مرّة أملتُ أن تصلك أخبار براعتي حين تزور الحيّ!!

وصلت الأخبار إلى بعض معلّماتي السابقات، إلّا أنّهنّ لم يصدّقن. قلن إنّني فتاة غبيّة لا يمكن أن أتقن شيئًا.

أعرف أنّك لن تصدّقهنّ، ففي المطبخ الأرقام غير مهمّة، ترتيب الحروف في الكلمة غير مجدٍ، المهمّ هو معنى الكلمة والصورة والمذاق والرائحة التي تتكوّن حين تفكّر في تلك الكلمة أو تسمعها.

ما فائدة كتابة كلمة ريحان إن لم تشمّ رائحته حين تقول الكلمة أو تكتبها، إن لم تتذكّر أوراقه في صباحات الأعياد على المقابر والنساء بمناديلهنّ البيضاء وفساتينهنّ السوداء، يقدّمن أجمل وأنفذ نبات لعظام فقيدهنّ تحت التراب؟

ما الفرق بين أن تكتب كلمة خميرة، إذا لم تكن تعرف كيف تحدث فقاقيع سمراء حين تتمازج الخميرة مع الطحين والماء، ثم

Twitter: @ketab_n

تسكن في العجين، وتروح تكبر وتتّسع وتنتفخ شوقًا إلى النار القادمة، وتجعل قطعة العجين الضئيلة الجافّة قرصًا مباركًا منتفخًا بوعود الشبع واللّذّة؟

ما حاجتك إلى استخدام الكيلو والغرام ولديك كفّ كميزانك؟

لا أحتاج إلى دروس الحساب والعلوم ولا حتى التربية والتاريخ هنا، في هذا المكان الصغير المنعزل عن البشر. أنا هنا لا أخجل من قبحي، فلا أحد يراني، لكنّ صورة جميلة ستُرسم في الطبق الذي سأسكب فيه ما أطهوه.

أتخيّل أنّني هناك، حيث لا مرايا أو نوافذ زجاجيّة، جميلةً كبنت الغول والستّ بدور والحوريّة وستّ الحسن... إنّهن أنا، وأنت تقترب بطيفك من خلف ظهري لتطلّ على ما أعدّه في المطبخ، وتسألني أسئلةً مثل:

لماذا وضعتُ قالب الجبن في الثلّاجة قبل برشه؟ لكي يسهل برشه، الدهون داخله تتجمّد فتصير قاسية.

ولماذا أبالغ في إضافة قطع البندورة للسَلطة؟ فأخبرك أنّني أعدّ طبق بطاطا حرّة، ولأنّ البطاطا تسبّب الغصّ في الحلق، فإنّ البندورة خير من يسهّل البلع في هذه الحالة.

وتسألني لماذا لا أقطّع النعناع مع البقدونس! فأخبرك أنّ النعناع رقيق جدًّا وسريع التأثّر بالهواء، لذلك يصير لونه أسود حين نخرطه بالسكّين، وأنا أبقيه للّمسة الأخيرة كي يبقى أخضر في الطبق...

Twitter: @ketab_n

وتسألني عن الحبّ! فأقول لك إنّه أن تطهو بكلّ حواسّك وخيالك، لا بعقلك والموازين والمقادير، فكم من امرأة اتّبعت مقادير كتب الطبخ ولم تفلح في إسعاد من تحبّ، بل ربّما خسرتهم بإهمال قلبها والإنصات إلى دفتر غبيّ.

أكره من يعتبرون الطهو مجرّد سخافة، ولا يرون كم أنّه فنّ! لا يعرفون أنّ أسراره ليست سهلة، وأنّ مزج مكوّنات بعينها يعطي قصائد أحيانًا، وملاحم أحيانًا، وأدبًا رديئًا أحيانًا.

حين أتحدّث مع عمّال الاستهلاكيّة عن الطبخ يتململ البعض ويعتبرون النساء تافهات، ولا حديث لهنّ إلّا الطبخ. من يطبخن لأجل إشباع الجوع فقط هنّ هكذا، أمّا من يطبخ لأجل أن يُشفى، ولأجل أن يفرح، ولأجل أن يُخرج حزنه، ولأجل أن يحبّ، ولأجل أن يمحو إساءة... من يفعل هذا لا يطهو فقط، بل يحيا حياة بديلة ليبقى ثابتًا على قدميه، برغم اللكمات التي تنهال عليه.

من قال إنّنا نأكل لنعيش ولا نعيش لنأكل؟! كم هو سطحيّ ومدّعٍ لمثاليّة فجّة! لمَ لا نفعل الأمرين معًا؟ نأكل ونعيش. لماذا يرونَ الأكل شيئًا أدنى من الحياة، بينما هو أحد روافدها، كما الحبّ والأمومة والصداقة والفنّ والطبّ والعلوم والموسيقى؟

* * *

Twitter: @ketab_n

هذه الدنيا كتاب أنت فيه الفكر / هذه الدنيا ليال أنت فيهاالعمر / هذه الدنيا عيون أنت فيها البصر / هذه الدنيا سماء أنت فيها القمر / هكذا أحتمل العمر نعيمًا وعذابًا...

أمّ كلثوم تتحرّق في كاسيت عمره من عمري، فقد غنّت الأغنية عام ٧١، وأنا وُلدت أواخر العام سبعين. وسأبلغ بعد شهور الثلاثين. لكنّني، إذا بقيت حيّة، سأدخل العقد الثالث وأنا أحمل لمسة مصافحتك، وبصمة وجهك في بصري وقلبي.

أمّ كلثوم تحترق، قلبها يشتعل والشارع أيضًا، الحرارة المرتفعة تجعله مقفرًا كصحراء تعشّش في رمالها الأفاعي، وهجيرها يُذبل الشجر المنحني على ألمه.

يختفي صوت أمّ كلثوم في المكان المعتاد والوقت المعتاد. أعرف جيّدًا السبب. سبق أن انقطع الشريط، فحللتُ براغيه

Twitter: @ketab_n

وفككته، ثم ألصقت الشريط بطلاء الأظافر، وهذه حيلة يعرفها جيل الكاسيت فقط.

لكنّ سومة لم تكمل الأغنية. ذهبتُ أتفقّد المسجّل والكاسيت، فوجدتُ الشريط مقطوعًا حيث بقايا طلاء الأظافر. أعرف ما هذا، إشارة سيّئة.

عقد ونصف العقد وأنا أسمع الكاسيت، لم ينقطع منذ ألصقته إلّا اليوم!

قلبي يخبرني أنّك لن تأتي.

أفكّر في هنة أغفلتها. كثيرون يتخلّفون عن الدعوات والمقابلات، تحديدًا مع أشخاص لا يعرفونهم. ما الذي سيحمّسك للمجيء، برغم الحرّ والاشتغال وسفرك في الغد الباكر؟

أخطأتُ خطأ كبيرًا لأنّني لم أُعطِك مغريات للقدوم، لم أخبرك من أنا!

لكنّني لا أريد إخبارك. هذا سيحرق بصلتي!

ليتني أعطيتك إشارة ما، لغزًا غامضًا، حافزًا ما... ولكن كيف أفعل الآن، قبل ساعات من الموعد الذي تتوقّف عليه حياتي؟

كيف؟ ماذا أخبرك كي أجبرك على المجيء؟

الخطّة ألف: أنا مريضة وأنت الطبيب الوحيد الذي أعرفه

Twitter: @ketab_n

هنا، فقد انتقلت توًّا إلى بيروت، وأنا وحدي ولا أقارب أو أصدقاء لي أرجوك ساعدني.

قد تقول لي: اطلبي الإسعاف.

خطّة باء: أنا من بلدتك نفسها، وقريبة من أقرب الناس إليك، وأريد أن أحدّثك في أمر مهمّ.

ولكنّك تكره كلّما يعيدك إلى الماضي، كما نقل رفيقك حسان بعد شجاركما الشهير، وكما راح يشيع في كلّ مكان لتشويه صورتك والانتقام من نجاحك كما أظنّ. أيّ حديث عن الماضي لن يسعدك، بل سينهي أيّ أمل في مجيئك.

خطّة جيم: أخبرك الحقيقة بتجرّد وتبسيط. أنا أحبّك منذ الطفولة، وأعيش لأجل لقائنا الذي طالما كان مستحيلاً، فهل تحقّق المستحيل وتأتي وإن لنصف ساعة؟

ستعتبرني مجنونة، وستكتشف أنّني كذبت في اتّصالي الأوّل، وادّعيت أنّني باحثة، وأجري بحثًا أكاديميًّا عن حياة اللبنانيين في روسيا تحديدًا. خطّة ساقطة، كسابقتيها.

يكاد السمك يحترق. أنقذ نصفه والنصف الآخر أجده محمّصًا جدًّا، فقد ماءه وقدرته على تزيين طبق الصيّاديّة.

بدأ التعثّر وسوء الحظّ اللذان توقّعتهما. أفكّر في أن أحرق نفسي وأستدعي كلّ نجدتي.

أقشّر البصل ويأتي في موعده كالعادة وكلّما احتجت إليه، بكيت لأنفّس توتّري وحيرتي وأقلب حظّي ربّما. «راح يمشي

Twitter: @ketab_n

الحال»، أردّد بشكل ببغاوي علّني أصدّق جملتي.

أُسقِط البصل في الزيت الحارّ الذي قليت فيه السمك، وهذا سرّ الصيّاديّة الخطير، والذي يكون مصير من يجهله الفشل التامّ.

برغم حرصي، تتسلّل رائحة السمك إلى الشقّة. ما العمل الآن؟ أوّل ما يخطر لي هو طهو حلوى بالكثير من الفانيلّا. أجمل البيوت هي تلك التي تفوح منها رائحة الفانيلّا.

لا يغيب عن بالي بيت أمّ بديع ـ أمّ الذكور السبعة ـ تلك كانت بطاقة تعريفها الأشهر في القرية. كانت تضع خزانة الأحذية عند مدخل منزلها. حين تفتح لي الباب تصطادني رائحة أحذية أبنائها! كوتشوك ونفط وصندل وعرق أقدامِ ذكور.

كنت أكره أن توكّلني جدّتي بتوصيل شيء لأمّ بديع. أحبس أنفاسي وأنا أعبر الممرّ الطويل بين المدخل والمطبخ، برغم أنّ المسافة كانت خمس خطوات لا أكثر. خمس خطوات مشبعة برائحة أحذية الذكور الذين لا أحبّهم في أنظف أحوالهم!

لكن، ذات يوم، بينما كنتُ أتّجه بالهندباء التي جمعتْها جدّتي لأمّ بديع نحو المطبخ، شعرتُ برغبة في التوقّف.

كانت خزانة الأحذية على الشرفة تتشمّس، وكانت أمّ بديع تطهو شيئًا له رائحة أحلامي في ليالي الصيف.

غفرتُ لأمّ بديع وأبنائها السبعة كلّ لحظة ضيق عشتُها في منزلهم.

بقيتُ أسمّيها «فانيليا» كما لفظَتْها أمّ بديع، حتى عملتُ في

Twitter: @ketab_n

الاستهلاكيّة وعرفتُ أنّها «الفانيلّا».

أيّتها الفانيلّا الرقيقة أسعفيني!

ماذا أخبره ليأتي؟ أأكتب إليه رسالة هاتفيّة مثل: لديّ سرّ يهمّك. لاتفوّت الموعد.

أم: أرجوك! اعتذر كثيرون من ضيوف بحثي وأنت أملي الأخير. لا تتخلّف عن الموعد فحياتي المهنيّة بين يديكَ.

متكلّف وغير واقعي.

أو: أنا يتيمة وأشعر بالحزن الليلة.

أو أو... بقيتُ أسأل نفسي وأنا أنزع الحسك.

* * *

Twitter: @ketab_n

أتعبتني الأفكار ففتحتُ التلفاز في استراحة قصيرة.

لا تعجبني برامج الطبخ التلفزيونيّة. إنّهم يقدّمون الأطباق كسلعة، ويروّجون للطهاة، ويجعلون بعضهم نجومًا يقيمون المهرجانات وحفلات التوقيع لكتبهم، التي لا تضمّ أيّ معلومة عن حقيقة الطبخ وما يخفيه من قصص حبّ وكراهية وشغف وحرمان...

لا يعرفون مثلاً لماذا اعتمد أهل الأرياف على البرغل، لكنّني أعرف.

لو أنّني أدير أحد هذه البرامج لحكيت حكاية فلّاح يشقى طيلة النهار، ويتصبّب عرقًا، ويحتاج إلى قوت فعّال، إلى بناء جسمه كأساس البيوت، بالباطون. البرغل كان أسمنت الجسد. هذه تسميتي، أمّا الفلّاحون فنعتوه باسم آخر: «مسامير الرُكب».

Twitter: @ketab_n

وحين اجتاح الأرزّ بلادنا، قادمًا من بلاد بعيدة، قيل: العزّ للرزّ والبرغل شنق حالو.

الدليل على إعدام البرغل هو التبّولة. كان البرغل عماد هذا الطبق. الكثير من البرغل يُزيَّن بالبندورة والبقدونس والبصل الأخضر. اليوم، لم يبق من ذاك الكثير سوى نثار. رشّة برغل خفيفة فوق أشهر سلطة سياحيّة، لم تكن في أساسها سلَطة ولا اهتمّت بالسائحين.

ركبتا عيْشة اللتان كادتا يومًا تخنقانني وريثتا الهوس بالبرغل.

لا أذكر متى صارت عيْشة ضخمة؟ هل سمنت فجأة؟ أم أنا التي لم تلاحظ؟ أنا التي تجاهلت كلّ شيء يخصّها. طولها وسمنتها وجلوسها في الدكّان أمورٌ جعلتها تبدو لي الصورة الأنسب لمارد الحكايات المرعبة.

رأيتها بعد زمن من معركتنا تلك. كانت تجلس منحنيةً على بطنها وجذعها. كتفاها كبيرتان وثقيلتان، وحين حاولتْ الوقوف عجزتْ عن فرد عمودها الفقري كما يجب. بدت أشبه بخالها، تتدلّى يداها تحت جذعها.

حين كنتُ أراها ـ مصادفة ـ كنتُ أسائل نفسي كيف تتصرّف بهامتها هذه؟ كيف تتليّف وهي تستحمّ؟ كيف تأخذ الخيّاطة قياسها؟ كيف تصعد في التاكسي حين تذهب إلى صيدا؟ أين تذهب بجسمها الضخم في الليل حين تستلقي على الفراش؟ وأخواتي قبل أن يتزوّجن هل فكّرن هكذا؟ هل فكّرن في أنّه من الجيّد أن يتزوّجن بسرعة كي يصير ليلهنّ أرحب؟

Twitter: @ketab_n

كلّ هذا انتهى حين راح المرض يذوّب شحمها ولحمها.

تمنّيت أن يصبح نومي أسهل أو أرحم. ولكنّي عشتُ كوابيس حيّة أكثر من تلك التي رأيتها في منامي، لذلك لا أميّز بين الواقع والمنام، ولا أهتمّ كثيرًا بالتمييز والفصل بينهما. الحقّ أنّني لا أهتمّ في أن أعيش صحوًا متواصلاً أو منامًا طويلاً... الأمر سيّان، والألم واحد. ما يؤلمني في الحالتين له الأثر نفسه، ويترك النُدب نفسها والذكريات نفسها.

أحيانًا، حين يوقظني الكابوس لم أكن أجد نفسي في الفراش، بل في قاعة كبيرة مخمليّة المقاعد، محاطة بالستائر، تفوح منها روائح عطرة. وكنت أسمع أصوات أجسادٍ تغادر وملابس تلامس الأفخاذ والسيقان والأذرع. لا ألتفت. أنتظر حتى يسكن كلّ شيء.

يرحل الجميع، لكنّني أبقى في انتظار شيء لا أعرفه.

في انتظار أن يكون هذا حقيقة، وليس حلم يقظة.

* * *

Twitter: @ketab_n

يرنّ الموبايل.

* آلو.

* آلو.. مرحبًا.

* آ..

* ألو.. عم تسمعيني؟ آنسة تيماء صفديّة!

كدت أقول لا، فقد غاب عنّي الاسم الذي اخترعتُه لنفسي.

اخترتُ عائلة صيداويّة لأنّي أتقنتُ لهجة أهل صيدا من عملي في مصنع المرتديلّا.

* نعـ... نعم...

* كيف ك؟

Twitter: @ketab_n

* م.. منيحة..

* كويّس، أنا..

توقّعتُ أن تعتذر.

* آسف، بس بخصوص مقابلة اليوم.. كان بدّي..

ينقطع الخطّ، أو ربّما لارتباكي أقفله بالخطأ. يُطبق الحزن على قلبي. ألم في صدري. ملايين الزهور تغلي في حمم بركان.

لا أعرف كيف أتّصل بك. تربكني أرقام وأزرار هذه الآلة الغبيّة.

يرنّ الهاتف مجدّدًا.

* انقطع الخطّ.. الإرسال تعبان.. بس بسرعة.. بخصوص اليوم.. أيّ ساعة تحديدًا الموعد؟ نسيت، سبعة أو ستّة؟؟

أبتسم.

* ستّة.. آآ.. لا سبعة.. سبعة.. سبعة.

* امم.. بصراحة ما بقدر الساعة سبعة.. ممكن نخلّيها ستّة؟ لأنّي سبعة ونصّ عندي شغل ضروري وبكرة الصبح راجع ع موسكو.

* (بفتور).. ستّة. بـ.. بـ.. دّك العنوان؟

* كمان يا ريت، كأنّك قارية أفكاري!

Twitter: @ketab_n

فعلاً قرأت أفكارك، لكن تلك القديمة. ولا أعرف ما عساها صارت الآن؟

ولكن!! كيف قبلتُ معك تقريب الموعد؟ لن أكون جاهزة الساعة السادسة. وفق جدولي الدقيق لن أكون جاهزة!

نقصت ساعة من حسابي وعليّ تعويضها.

* * *

Twitter: @ketab_n

قال الشرطيّ: روحي شمال.

شكرتُه ومضيت. لم أوحِ له بأنّني سأستغرق وقتًا لأميّز اليسار من اليمين.

وقفتُ عند الناصية أبحثُ عن اليسار كي أصل إلى مصفّف الشعر اللعين.

رأيتُ في الإعلان كيف يحوّل القبيحات إلى جميلات، «بيفور أند آفتر». ساحر مكلف، لكنّني لا أبالي بما سأدفعه لأجل لقاء العمر. حلمي الكبير أن تراني جميلة، برغم شكّي في أن تعثر على جمال في روح لا تؤمن بامتلاكه.

هذه اليد التي أمسكُ بها السكّين، إذًا هذه هي اليمنى.

Twitter: @ketab_n

أقبض على أصابعي كأنّني أقبض على السكّين وأقطع بها الهواء. نعم هي. إذًا الثانية الخاوية مفرودة الأصابع هي اليسرى. عليّ الانعطاف في هذه الجهة.

* * *

Twitter: @ketab_n

«شعرك قويّ مش خشن.. ما تخافي راح يطلع بيجنّن.. راح نعملو كيرلي، شو رأيك؟».

لم ترقني الفكرة، فأنا أريد شعرًا أملس، لكنّ المصفّف ذكّرني بشيء حين أضاف: «راح يطلع متل شعر الحوريّات»، وسمّى بالله لأنّ شعري طويل وغزير. هل سيحوّلني هذا الساحر إلى حوريّة فعلاً، كما حلمتُ وكما فعلتْ العرّافة بسندريلّا؟

هل يعجبكَ الشعر المتماوج وتغريك خصور الحوريّات وأردافهنّ؟ هل الفستان الذي اخترته ضيّقًا عند خصره وردفيه سيثير ذكرياتك مع قصص جدّتك الخرافيّة؟ أم أنت لا تذكر ذاك الماضي الذي فررت منه بكلّ وعيك وإرادتك، تاركًا وراءك أكثر من قلب مكسور.

كيف سأُفهِمك أنّ الجروح تورّث، والقبحَ الذي تلفظه يتحوّل

Twitter: @ketab_n

ترياقًا لجروح أخرى؟

تمدّدتُ على كرسي طويل في غرفة التجميل.

شعرتُ بالبرد. التكييف قويّ لضرورات نجاح الماكياج، كما شرحت إيڤون، ما يعني أنّني سأصل غولة إلى البيت بعد أن تذوب ألوان الماكياج وينفش الشعر «الكيرلي»!

أغمضتُ عينيَّ لأحلم أنّني سأخرج من هنا امرأة جميلة. امرأة أخرى. لكن، من قال إنّك تحبّ كثيرًا المرأة الجميلة؟ ألم تترك خطيبتك الجميلة؟ ألم تتزوّج روسيّة متواضعة الجمال، سخر رفاقك من ذوقك حين أحضرتها إلى القرية ذات زيارة؟

مَن تلك المرأة التي تنظر إليّ؟

بعد ثوانٍ اكتشفتُ أنّني أمام مرآة عملاقة، وأنّ تلك التي في المرآة هي أنا؟

قالت إيڤون إنّه ليس سحرًا، بل إظهارًا لتفاصيل كانت مخفيّة. وقال المصفّف إنّ قصّ الشعر الطويل إلى طبقات يعطي هذا الشكل الغزير والجميل والحرّ. نفض بعض الخصل معجبًا بصنيعه.

* * *

Twitter: @ketab_n

صعدتُ في أوّل تاكسي توقّف لي.

كنتُ أفكّر فقط في الساعات القليلة التي تفصلني عن موعد قدومك، قرّرت ألّا أفكّر في فرضيّة عدم مجيئك، لأنّها كانت تُشعرني بالشلل.

الشوارع تمرّ من خلف نافذة السيّارة المكيّفة، تلهث وتتأوّه من ثقل الحرّ وبطئه، وحده قلبي داخل صدري يركض، يستبق الدقائق كي يصل إلى لحظة قدومك. أغنية مريحة تنبعث من راديو التاكسي. لم أفهم منها كلمة، أو لعلّي لم أتذكّر كلماتها لشدّة توتّري.

* * *

Twitter: @ketab_n

أنزلني التاكسي.

لزمتني دقائق ثلاث كي أفهم أنّني في الشارع الخطأ. إنّه يشبه الشارع الذي أُقيم فيه منذ يومين، لكنّه ليس هو. قد يكون مقابلاً له أو امتدادًا له، لكنّه ليس هو.

درتُ حول نفسي وحول العمارات والمتاجر والسيّارات الكثيرة.

كان رجل يدفع عربة خضر ذابلة. أحسستُ أنّني مثل خضره. سألته عن شارع «أرمينيا» فتجاهلني، ليس لأنّه لا يعرف بل لأنّه لا يقوى على الكلام.

تركني ومضى، ووقعتْ من عربته ورقة خسّ ذابلة الحافّات، فسمعتُ لارتطامها بالأرض صوت جثّة تُرمى من سيّارة مسرعة.

نظرتُ إلى الساعة.

Twitter: @ketab_n

السادسة ودقيقة.

أنت الآن عند باب الشقّة، تقرع الجرس ولا أحد يفتح.

لا أحد يفتح لأنّني عالقة في شارع ما، ولا أعرف كيف أصل إلى ما يفترض أن يكون شقّتي.

كيف فكّرت في كلّ شيء إلّا هذا.

بدأتُ أرتجف توتّرًا وحنقًا على نفسي وغباوتي. ثم حاولتُ ضبط نفسي والتركيز. استعدتُ خروجي من البيت. تحديد طريق الذهاب سيرشدني إلى طريق العودة.

خرجتُ من الشقّة وعند باب العمارة أوقفتُ تاكسي. اتّجه بي إلى ناصية الشارع ثم إلى شارع آخر ثم ثالث ثم... لا... لاأذكر.

نظرتُ إلى السماء أطلب عونها.

ثم قرّرت أن أمشي في أيّ اتّجاه، علّني أجد العمارة الصفراء المقابلة لبنايتي، لأنّني لم أستطع تذكّر لون عمارتي وشكلها.

والسبب بسيط. كنتُ داخلها، ولم أتمكّن من رؤيتها. لم يخطر لي مرّةً أن أنظر إليها وأنا داخلة أو خارجة منها، أن أرفع رأسي وأنظر، لأنّني كنت أنظر فقط إلى حيث تدوس قدماي خشية أن أقع.

درتُ حول نفسي، وطفرت دمعة من عيني رغمًا عنّي.

Twitter: @ketab_n

عدتُ ورأيت ورقة الخسّ، كانت بنّيّة بالكامل. الحرّ كان يمنعني من التفكير، كما يمنع الناس من التجوال. ثم رأيت وجهًا مبتسمًا يتقدّم نحوي. قامة رشيقة وأليفة كأنّني أمضيت سنوات ألتقيها في الشارع نفسه.

تقدّم واتّسعت ابتسامته. وأحسستُ بيده تستعدّ لتمتدّ نحوي وذراعه ليناديني، لكنّه مضى من أمامي ولم يرني.

خلّفني مذهولةً أتذوّق ملوحة دمعتي التي جفّت فوق شفتي.

نثرة ملح. أتت في وقتها. كنتُ أحتاجها للتوازن. كما أفعل حين أحضّر الحلويات وأضيف القليل من الملح إلى السكّر، لأخلق التضادّ والتوازن في آن.

تسمّرت في مكاني كمسمار صدئ عنيد يرفض أن يفكّر أحد في اقتلاعه.

لكنّني رأيت الرأس المخطّط بالشيب يتلفّت حوله كأنّه يبحث عن عنوان ما. تبعته حتى قادني إلى العمارة الضالّة.

سبقتُه وطلبتُ المصعد. صعدنا وأُغلق الباب.

تجمّد قلبي كثمرة في قطعة جليد. لم أرفع بصري. أطرقتُ. نظرتُ إلى قدميّ وطلاء الفرنشو إلى حذائه.

يا ربّي! في أيّ ورطة أنا؟! أنفاسه كلّها في رئتيَّ. حرارة نبضه، رائحة دخان غريبة لا تشبه أيّ دخان شممته، لا أثر لعطره الأوّل.

Twitter: @ketab_n

ماذا أفعل؟

إنّه هنا. لا تفصلنا سوى خطوة. إنّه أقرب ممّا حلمت يومًا.

أأحتضنه؟ أأضربه؟ أم أقع ليلتقطني؟؟

لكنّني فعلتُ ما لم يكن ليتوقّعه. دندنتُ في قلبي ما سمعته توًّا في سيّارة الأجرة، لألهي نفسي عن ارتباكها وخجلها وتوتّرها.

«لا في ماضي حأقول لك كان، ولا فاكرو ولا نسيتو، ولا مرّة جمعنا مكان، عشان تدرى اللي قاسيتو.. يا ريت أخطر على قلبك ولو تكرهني وأحبّك..».

هنا فقط انتبهت لمعنى الكلمات.. ولأنّها الأغنية الضالّة.

إنّها أغنيتي لك. وقد عثرت عليكما معًا في مصعد ضيّق ينفد منه الأوكسجين والرحمة.

أمسكُ جسدي من الإغماء بصعوبة.

الطابق الخامس.

باب الشقّة التي تفوح منها رائحة الصيّاديّة والفانيلّا في ثنائيّة متناثرة.

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثـــالـث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رقعةٌ واحدة من السماء تنظر إلى الفتاة ذات الشعر «الكيرلي»، ولكن ليس لوقت طويل. امتدّت غيمةٌ لئيمة وحجبت السماء عن وجهها الموشك على البكاء.

تحوّلت النسائم التي كانت تحرّك ستائر العمارة المقابلة إلى رياح، ففهمَتْ أنّ الغيمة لا تقصدها هي، بل المدينة كلّها.

تلك الهنيهة حرمتها رغبة مراقبة تيم وهو يغادر الشارع. ربّما لأنّها لم تكن رغبة ملحّة وحقيقيّة. تركَته يمضي بسلام، شاكرة له الهواء الذي حرّكه وهو يرحل. مرتاحة للفراغ الذي خلّفه.

أغمضت عينيها ثواني قليلة، وحين فتَحَتهما لم تره في الشارع. شعرَت بأنّه لم يأتِ قطّ.

من يؤكّد أنّه كان هنا؟

حتى هي لا يمكنها الجزم بهذا.

Twitter: @ketab_n

لم يجلب شيئًا ولم يأخذ شيئًا، وإن كان طبقه وملعقته مستعملين، فربّما هي من استعملهما.

صفعتها قطرة ماء. صفعة ثانية وثالثة و...

لم تصدّق أنّه المطر. كأنّها أيضًا لم تره سابقًا أو تعلم بوجوده!

أخرجتْ يدها من النافذة، والتقطت القطرات الكبيرة التي تشظّت فوق مسامّها الحزينة.

رأت الناس يخرجون إلى الشارع، وأيادي مختلفة الأحجام والألوان تخرج من النوافذ... كبارًا وأطفالاً وشيوخًا يطلّون من الشرفات، عدا المتعرّية.

سارعتْ إلى الخزانة، ومن دون تفكير أخذتْ الفستان التوتيّ ولبسته. شعرت بأنّها تريد أن تحتفل.

انتعلتْ الصندل الأبيض... ثم خرجت.

لم تكترث لأحد. مضت ثقيلة الخطى، لكنّها بعد خطوات، شعرت برغم المطر الذي بلّلها بأنّها أصبحت أخفّ وأخفّ... لذلك صمّمت على أن تتابع المشي وتتوه مجدّدًا، فلا شيء ينتظرها، ولا أحد تنتظره.

لاحقتْها بعضٌ من جُمل تيم، فأسرعتْ الخُطى، تريد الفرار منها.

تريد بقوّة أن تصدّق أنّه لم يأتِ.

* * *

Twitter: @ketab_n

عادت يدها تنزف. أحمر زاهيًا برّده المطر.

فكّت الضماد وراقبت الجرح وهي تمشي. تذكّرتْ حين أطبق حبيب عمرها ـ من دون قصد ـ الباب على يدها وصاحت تلك الصيحة الدفينة. ذُعر وتراجع وقال متلعثمًا إنّه سيغادر.

استبقتْه بيدها السليمة وقالت إنّها بخير، بينما كانت تحاول انتشال روحها من أحشائها.

هل كان يعني الرحيل فعلاً؟ أم هي لحظة ارتباك وخوف؟ هل خاف عليها أم على نفسه أم شعر بالذنب اتّجاهها؟

هدأ المطر، فجلستْ فوق مقعد في مدخل مبنى إحدى الكلّيّات الجامعيّة.

كانت تحلم أن ترتاد الجامعة. لكن ـ بالحديث عن الأحلام ـ لمَ عليها أن تحزن وقد تحقّق أكبر أحلامها بلقاء اليوم؟

Twitter: @ketab_n

جرح يدها دليل قاطع على أنّه أتى.

رائحة التراب عفنة مثقلة بالغبار. تشبه طعم اللقمة التي كانت تبتلعها حين قال إنّه كان يوجد قرب هذه العمارة مضمار سبق، وإنّ كثيرين من أهل قريته كانوا يدمنون هذه الألعاب، حتى إنّ أحدهم كان يُدعى «السحبة» وهي نوع من المقامرة الخفيفة، وأنّ هذا الرجل انتحر.

انتحر؟؟ هل قال إنّ والدها انتحر؟ لم تجرؤ على سؤاله. ازرقّت عروقها.

لماذا طيلة تلك السنوات لم تعرف؟ لم يذكر أحد أمامها؟ لم يزلق لسان أحد من مئات الثرثارين حولها؟

هل تُغيّر طريقة الموت شعورنا اتّجاه المقتول. إنْ قتلَهُ الموتُ أم قتل هو نفسه... ما الفارق؟

فوق هذا المقعد الغريب، يقطر ماء السماء من أطراف شعرها الطويل، يدهمها الحزن. تبكي والدها كأنّ دماءه لا تزال حارّة تحت التراب. تبكي الحنق الذي ابتلعته منذ ساعة، ولم تقدر على الإفصاح عنه.

حين هرعتْ إلى المطبخ وفتحت الثلّاجة لتبرّد وجهها المحتقن، الذي انقلب إلى جمرة متّقدة، بينما كانت أصابعها كقطع الثلج التي في الداخل.

لم تكن ترى مكان الحلوى، ولم تبحث عن الصحون والفاكهة، لكنّها رأت الساقية والوادي، ورأت نفسها تهوي خفيفة

Twitter: @ketab_n

بفستان كتّان فضفاض وعصفورها يبتعد صوب البحر.

تنظر إلى الحلوى ببؤس، كيف أنّها صنعتها بتأنٍّ وقلق، كحال كلّ ما أعدّته.

تكاد تسأله: «ماذا فعلتَ برسالتي؟»، لكنّها تؤجّل السؤال، كأنّها تتوقّع أن يذكر الرسالة عرَضًا، كما ذكر أمورًا أخرى، في الدردشة البحثيّة التي أعدّتها له، والتي تطرّق فيها إلى ذكرياته الشخصيّة.

الرسالة؟ نعم تلك الرسالة لم ينسها برغم أنّه لم يحتفظ بها لأكثر من دقائق.

هناك أشياء تبدو ثمينة على قلب من أرسلها، مكتوبة بصدق كبير، فيصعب علينا التصرّف بها.

لم يقدر أن يحتفظ بها. تخلّى عنها كما تخلّى عن عشيقاته.

لم تكن مجرّد رسالة يحاول التخلّص منها. بل تهمة حقيقيّة قد تؤجّج نيران زوجته.

امتلكت زوجته حاسّة سادسة في ما يتعلّق بقلبه. كانت تعرف متى هو موشك على علاقة عابرة، أو في خضمّ علاقة عميقة، حبّ مزيّف أو آخر حقيقي. كانت تخمّن حتى الأماكن التي قد يدعو صديقاته إليها. لذا لم يحتفظ بشيء يتعلّق بامرأة يومًا.

كان يتخلّص من كلّ شيء، حتى الذكريات. لكن، تلك الرسالة، لم يجرؤ على تمزيقها أو إحراقها أو الاحتفاظ بها.

Twitter: @ketab_n

وضعها فوق المقعد المجاور له في السيّارة ومضى من دون خطّة. قاد سيّارته في الشوارع، كمن يتنقّل بجثّة خنقها توًّا، ويبحث الأمن القوميّ عنها.

استقرَّ على تركها وسط أعشاب خضراء في غابة.

عرف أنّ جامعيّ القمامة لن يروها ولن يجدها متطفّل. ستسقط عليها الثلوج والأمطار، وتبلى وحدها من دون ألم أو إهانة.

قبل أن يغادر، تساقط مطر صيفيّ غير مفاجئ، وفاحت رائحة نارنج صادمة. تلفّت حوله باحثًا عن مصدرها، عن شجرة نارنج في الجوار. لمس الحبر الذائب على المغلّف وشمّه. كانت له رائحة «المازهر» التي كاد أن ينساها.

حامت في ذاكرته صور نساء عديدات، بينهنّ فاطمة، لكنّ معرفته بقدراتها الكتابيّة أبعدتها من دائرة الحسبان. فاطمة الجميلة لم ترتكب أيّ خطأ سوى أنّها بغباوتها الفطريّة كانت ستربطه كثور في ساقية قريته، ولن يحقّق أبدًا ما حلم به دومًا وأخفاه بحرص: السينما.

عاد ذاك اليوم مبلّلاً إلى مكتبه الصغير في التلفزيون.

مُثارًا وهادرًا راح يكتب ما سيكون نصّ أوّل فيلم تسجيلي له. كتب بخطّ شبه مقروء، لأنّ أفكاره كانت تسبق أصابعه، وكان يريد اللحاق بها قبل أن تفرّ، كما حدث معه طيلة سنوات.

كان يمكن لمن يجيد العربيّة أن يميّز في تلك الأوراق، التي

Twitter: @ketab_n

تفوح برائحة عرق يديه وبقايا المازهر وأعشاب الغابة الرطبة، أنّ الفيلم الذي طالما انتظر أن تلهمه السماء بفكرته هو عن شجرة النارنج.

كتب وهو يستعيد كلّ شيء عن تلك الشجرة، واكتشف أنّ معلومات كثيرة كانت تختبئ في ذاكرته، ولم يحتج إلّا إلى هذه الرسالة كي يُخرجها.

لقد كانت هناك دائمًا، في غرفته المختبئة في الحديقة. كانت تتضوّع من بين كتبه وأوراقه، تسكن في مخمل مقعده، ولا تأتي من الحديقة، كما ظنّ بشكل عفوي لم يستدعِ تفكيره وتحليله. الآن يحلّل: كان يزور الغرفة في الصيف، وليس في الصيف زهور نارنج، فكيف أتت الرائحة إلى غرفته المغلقة إذًا؟

أخرج من جيوبه وأدراجه جميع القصاصات التي كان يعدها أن يخرجها إلى النور ذات يوم.

هذا اليوم قد أتى.

وجد الكثير عن الشجرة التي ناضلت كثيرًا كي تعيش وتصمد لليوم، حتى حين عاقبوها بقيظ الصحاري والبوادي، عاشت.

تشير المراجع إلى أنّ الشجرة ظهرت في الصين، وهي مذكورة في الكتب الصينيّة الأولى.

لكنّ قلبه يرفض هذه الفرضيّة التاريخيّة.

قرأ الأمر كالتالي: لم تظهر أوّلاً في الصين، ولكنّ الصين كانت أوّل من عرف الورق وبالتالي التدوين الورقي الذي كان من

Twitter: @ketab_n

السهل تداوله. يمكن لمن يملك أوّليّة التدوين أن ينسب إلى نفسه الانتصارات والنفائس.

شجرة بمثل تلك الصلابة والعناد والحيويّة كان لا بدّ من أن تتوزّع في العديد من بقاع الأرض. رائحة زهورها القويّة كانت تجذب الكثير من الحشرات، التي بينما تظنّ أنّها ولدت لتأكل رحيق الأزهار، كانت تقوم بأحد أهمّ الأدوار في التاريخ الكوني: تلقيح المملكة النباتيّة. كيف كان لها أن تظنّ أنّ الزهور ساذجة كي تدلّها إلى رحيقها اللذيذ بتلك الرائحة النفّاذة من دون مقابل؟ لم تكن أشجار النارنج تكترث لجوع الحشرات، بل كانت تريد أن تنتصر في معركة البقاء.

في قصاصة وجد كلمات متفرّقة أشبه بأحجية:

رنج = ألم

نا = مجهول

نا + رنج = مجهول ألم

نار + رنج: مجموعة غير نهائيّة

فهم أنّه دوّن ذات يوم بعيد ما تعنيه الكلمة بالفارسيّة والصينيّة والتركيّة... لكن تلك الكلمات لم تعنِ شيئًا.

كتب الفيلم، «دموع النارنج». أخرجه وعرضه.

كان ولادته الحقيقيّة.

استهلّ فيلمه بالمقدّمة التالية:

Twitter: @ketab_n

تقول الأسطورة التي وجدتُها بين أشواك الصبّار والبطم إنّ البرتقال طالما ولد مُرًّا، حتى وقعت إلٰهة في عشق ألوانه وعطره، فجعلته حلوًا لتأكله. لكنّ بعضه تمرّد أو استعصى على الحبّ، ولم يتخلّ إلى اليوم عن مرارته.

كان الفيلم ساحرًا، إلى حدّ جعل كثيرين من الأجانب يصدّقون أنّ هناك فعلاً أسطورة شرقيّة بهذا المعنى.

بينما كان يرصد ولادة الشجرة وتحوّل زهورها إلى دموع عطرة كانت أقبية قلبه تُضاء، وكان يخطّ تاريخه هو. هو تلك الغرسة التي بحثَت عن خلاء مناسب، عن صمت كافٍ كي يسمع كلّ حرف في أفكاره الخفيضة الهامسة. صومعة وسط الثلج أو وسط الصحراء، لا يهمّ، مجرّد فرق ألوان، والسجن واحد.

بعد «دموع النارنج»، أخرج العديد من الأفلام الوثائقيّة القصيرة ضمن مشروع التلفزيون الروسي لاستكشاف العالم العربي. تنقّل بين المدن العربيّة، وكانت بيروت دائمًا على القائمة، للعمل أو الترانزيت.

كان عليه إنجاز فيلم عن أمّ كلثوم. خلال البحث عن أغانيها اكتشف أنّ السرّ وراء أغنية «أغدًا ألقاك»، كما توقّع وتوقّع مثله كثيرون. الحكاية ببساطة كانت حين وافقت «الستّ» استراتيجيّة عبد الوهاب في أن تغنّي لشعراء من جنسيّات عربيّة مختلفة، وحين بحث عن قصيدة لشاعر سوداني، أعجبته قصيدة للشاعر الهادي آدم، اسمها «أغدًا ألقاك».

لم تغنّها إذًا لرجل تنتظره، وهذا كاد يُحزن من تلقّت

Twitter: @ketab_n

المعلومة، حول مائدة يفوح بخار أطباقها اشتهاءً وعشقًا، إلّا أنّ المخرج الذي كان يمضغ الفول الأخضر المبهّر بالكزبرة الطازجة قال: «لم تغنّها لرجل تنتظره، بل لنساء سينتظرن رجالاً».

أخبرها أنّ لعبة الانتظار طالما استهوته. ولكن حين بات يسافر كثيرًا، ويقضي ساعات من عمره في انتظار الطائرات والقطارات، صار الانتظار يؤلم أحشاءه. شيء يشبه الجوع، قال لها. لم يفهم لمَاذا برقت عيناها.

لقد خمّنت أنّه في ساعات الانتظار تلك راح يتأمّل ويتذكّر ويتخيّل، وأنّه لا شكّ تذكّر رسالتها وبقايا الزهور والعطور التي تركَتها في غرفته، وأنّ هذا يشعره بجوع لحبّ مجهول، لكنّه قريب من عينين مطفأتين.

لهذا برقت عيناها، لأنّ ألم أحشائه قد يكون ألم الحبّ.

لم يفهم، لكنّه كان فعلاً يبحث عن حبّ مجهول، كضرير يمدّ يديه أمامه ويرفع ذقنه، برغم معرفته أنّه يمشي في العراء.

أراد أن يكون بطلُ فيلمه الروائي الأوّل ضريرًا، لكنّ شيئًا مهمًّا دمّر المشروع. حاول أن يعيش كضرير بضعة أيّام، ولكنّه أخفق.

* * *

Twitter: @ketab_n

لم يتعمّد استجوابها، ولكنّه ارتاب بوجود الطعام في مكان يفترض أن يكون للعمل والأبحاث.

قدّمت التبريرات. ارتبكتْ أكثر ممّا توقّعت هي. ارتبكت إلى درجة جعلتها تقول كلمة أنجتها من ارتكاب المزيد من الأخطاء، كلمة دفعته إلى مقاطعتها.

أشار بيده لها أن «تمهّلي»، أغمض عينيه وراح يردّد الكلمة كأنّه يحلّق بها.

لم يكن قد سمع تلك الكلمة منذ سنوات: «أمساني».

لم تفكّر سابقًا في ماهيّة تلك الكلمة، لكنّه فكّكها ليعيد ترتيبها بوضوح: أمس الثاني. يومٌ أبعد بقليل عن أمس الأوّل. الأمس الأبعد بقليلٍ من الماضي. والأمس الأقرب بقليل من الحاضر.

Twitter: @ketab_n

تلك الكلمة المفقودة التي بحث عنها سنوات لجملة في سيناريو كان يكتبه، وبقي يهجس بطيفها، حتى بعدما صارت مسوّدة السيناريو مجرّد حلم لا أمل في تحقيقه.

«أمساني»، قال مبتسمًا، وتلك كانت أوّل ابتسامة حقيقيّة له منذ دخل الشقّة.

الابتسامة الثانية التي تراها هي وجهًا لوجه، الفارق بين الاثنتين أنّ الأولى كانت أقرب وأكثر نضارةً، من دون تجاعيد، وأكثر من عقدين من الزمن، أي معظم عمرها.

* * *

Twitter: @ketab_n

خابت ظنونها. «المغربيّة» ليست وجبته المفضّلة، بل «المقلوبة».

لم يقل هذا صراحة، لكنّه في معرض حديثه عن مشروع فيلمه الروائي الوحيد، قال إنّه قلّد طريقة ذكيّة اتّبعتها النسوة في طهو طبق مذهل: وضعُ المكوّنات الثمينة والشهيّة أسفل الطنجرة حتى تكون أوّل ما يتحرّر من الأسر حين يقلبنها رأسًا على عقب. عبقريّة، عبقريّة، كرّر.

وهي ردّدت في قلبها: غبيّة.. غبيّة!! كيف نسيتْ المقلوبة؟ لماذا لم تكن على لائحتها؟

هو أيضًا مشى تحت المطر، وتساقط مطر آخر في رأسه بينما كان يستعيد لقاءه تلك الفتاة الغريبة. مطر غزير، حتى إنّ أعشابًا طريّة نَمَت في ذاكرته.

Twitter: @ketab_n

استعاد مشهد إغلاق الباب على يدها وتساءل: ألا يعرف تلك النظرة المتألّمة؟ ألم يسعفها مرّة؟ ألم يتنشّق رائحة مسامّها الممزوجة بماء الزهر؟ بلى فعل. ولكنّه لم يذكر أين ومتى. كان محرجًا من خطئه. سارع إلى إسعافها وهو يعتذر ويقول إنّه سيغادر.

حين كبتت صرختها انتفض شعرها خلف أذنيها، فرأى ندبةً مثيرة، كأنّها شفة سفلى تستعدّ لتتلقّى قبلتها الأولى. يعرف تلك الندبة أيضًا. نعم يعرفها.

* * *

Twitter: @ketab_n

نقاط مطر خفيفة تفرّقت من غيوم عالية، كالدموع الصامتة التي ذرفتها وهي ترمي في سلّة القمامة، حلوى «عيش السرايا» مستعيدةً جملته الرافضة: «لا، شكرًا.. أنا ما بحبّ الحلويات».

لم تكرهه. كان حول المائدة التي جمعتهما حبّ يفيض عن سعة قلبها، لكنّه طالما سجنته وهي تظنّ أنّها تدّخره إلى لحظة كهذه. كان يمكنها توزيع حبّها على أشخاص يشغلون قُطر تلك المائدة. تمامًا كما يفور حساء نُسي يغلي فوق النار. كما يحدث في العائلات المحبّة، حين تقع الأخوات في حبّ من اختارته إحداهنّ حبيبًا، ويكون حبّها له عظيمًا إلى درجة أنّه يفيض عنها، وينتقل كالعدوى إلى أخواتها المخلصات.

سار الأمر على نحو خاطئ.

كما في الحبّ، هناك دائمًا شيء ناقص. كما في التخطيط

Twitter: @ketab_n

للغدّ، هناك مساحة للخطأ. كما في صناعة العطور، هناك قدر صغير من القذارة. كذلك في الطهو، هناك خلل بسيط في المقادير، في مدّة الطهو، أو سرعته...

الأمر الذي لم تحسب حسابه أن يكون الرجل الذي أولمت له متخمًا.

حين جلس محايدًا أمام الطعام، بدا ألّا معنى لأيّ شيء، أنّ المذاقات نفسها فقدت ذاكرتها وتاريخها.

في حديقة الكلّيّة عاودها صوت الأرجوحة الصدئة.

خافت من تسلّط الأوهام عليها حتى في عزّ النهار.

قد يكون البرد السبب. كلّما شعرت بالبرد سمعت الصوت.

كانت مبلّلة بالكامل، ففكّرت في العودة إلى الشقّة. رائحة الضيف زالت الآن، وأيّ صدى لكلامه اختفى.

تقدّمت خطوات من البوّابة المُشرّعة، ورأت قبالتها مدخل عمارة أنيقة. وهناك ارتفع صوت الأرجوحة. وقبل أن تتخطّى المدخل، رأت فتاة تتأرجح في أرجوحة معلّقة بشجرة. كانت تمدّ لسانها الصغير لتلتقط قطرات المطر المتطايرة من اهتزاز الأغصان.

كانت تشبه الفتاة في الحلم، لكنّها أكثر حيويّة ووضوحًا.

اقتربتْ لتتيقّن أنّها ليست سرابًا. قبل أن تعرف ماذا عليها أن تفعل أو تقول، ارتفع صوتٌ نسائي ينادي: «يارا». توقّفت

Twitter: @ketab_n

الأرجوحة وغادرت الفتاة.

لو حدث خطأ جغرافي بسيط لحظة سقوط رأسها من رحم أمّها، وسقطت في هذه النقطة من المدينة، لكان اسمها يارا، ولكانت تنتعل حذاءً وجاربين بربطتين من الساتان، ولما التقت تيم أو علمت بوجوده، ولعرفت مدرّساتُها أنّها تُعاني من ديسليكسيا بسيطة، يمكن تداركها وعلاجها (كما أخبرها تيم)، لتُكمل تعليمها وترتاد الجامعة وكلّيّة الطبّ ربّما، أو تسافر إلى روسيا وتتنزّه بين غاباتها... ثم، وهي جالسة فوق مقعد من خشب تلك الغابة، تطير ورقة نحوها وتلتصق بجسدها، تكون بالمصادفة رسالة حبّ لا يريدها أحد، لا مرسلها ولا متلقّيها.

* * *

Twitter: @ketab_n

لا جدوى من أن تتمنّى تغيير الماضي، لكن، قد يمكنها صنع القادم من الأيّام؟

لماذا لا تكون لها طفلة، تُلبسها الجوارب والفساتين الناعمة وتسرّح شعرها بحنان وتصحبها في نزهة إلى حدائق الألعاب، ثم، في الليل، تحكي لها حكاياتٍ تخترع لها نهايات سعيدة.

الآن تفهم لماذا يبدو إنجاب الأطفال طموحًا عظيمًا، والثمن الوحيد الذي يساوي تحمّل معاشرة رجل.

تمشي غير خائفة من أن تضيع. مهما ضاعت ستبقى تدور حول نفسها. هذا ما حدث دائمًا.

يمرّ شابّ على درّاجة ناريّة ويرشقها بصفّارة إعجاب.

لا تهتمّ إن كان فتى المكيّفات أم غيره، المهمّ أنّ الفستان التوتي كان ليعجبك لمن رآه، جافًّا أو مبتلًّا.

Twitter: @ketab_n

ساعتان كافيتان لتجمع كلّ أثر لها.

تجد العمارة بالمصادفة. تفصلها عنها ناصية ورصيفان وشارع.

تفكّر أنّ ضيفها يستعدّ الآن للسفر، ولا أحد يناديه «الحكيم»، لأنّه لم يكمل اختصاص الطبّ، وأنّه آثر العمل في التلفزيون، مخرجًا لأفلام تسجيليّة، يحشون بها أوقات البثّ الميت، أفلام لا تنقذ قلب إنسان، ولا تكتب حياة جديدة لجسدٍيحتضر.

لكنّه، كان لا يزال هناك، أمام بقعة ماء لها شكل عين دامعة، واقفًا يبحث في وُحُول ذاكرته.

الأطباق التي فارقها للتوّ لها طعم طفولته ومراهقته، طُهيت بالكثير من التأنّي والدقّة، وفوق شموع النذور. روائحها تأتي من زقاق كانت تلعب فيه طفلةٌ بشعر قصير مشعّث وعينين مذعورتين.

* * *

Twitter: @ketab_n

عليها أن تقطع الشارع.

تهزّ جسدَها رعشةُ الخوف نفسها التي تعتريها حين تقطع أوتوستراد الاستهلاكيّة. كم مرّة شعرت بأنّها لن تنجو ولن تصل!

الظلام مفزع. لكنّها تقفز بخفّة وزهو، كأنّها فقدت نصف وزنها.

تصل إلى باب العمارة وقبل أن تدلف، يرتفع صوتُ نيم مناديًا.

ينفجر اسمها أشلاءِ في السماء المبلّلة: مي...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

في شقّةٍ في بيروت تقوم الشابّةُ المشرفةُ على الثلاثين بإعداد وليمة من الطبخات الريفيّة اللبنانيّة، بعد فرارها الغامض من قريتها.
ببراعة فائقة، تودِع كلَّ قِدرٍ ومكوّنٍ شوقَها وشغفَها بالرجل القادم بعد ساعات قليلة لتناول العشاء. أثناء الطهو تحكي حكايةَ عمرها وما يتخلّلها من حكايات نسوة عاشت بينهنّ، أبرزُهنّ جدّتها وخالتها. وتروي على نار هادئةٍ تارةً، ومجنونةٍ تارةً أخرى، قصّةَ حبّها للرجل الذي عشقتْه منذ الطفولة، رغم الألم الذي سبّبه لأسرتها، ورغم أنّها لم تلتقِ به سوى مرّة.
حبٌّ مستحيل، ورجلٌ لا يُنال، وموعدٌ تأخّرَ عقودًا، وأطباقٌ شهيّةٌ طالما كانت طريقة صامتة لتعبير أجيال من النساء، أسيراتِ البيوت، عن حبّهنّ المحظور...

بسمة الخطيب كاتبة من لبنان. درست الصحافةَ وامتهنْتها حتى اليوم. عملتْ في الإنتاج التلفزيونيّ، وكتبت السيناريو. صدرتْ لها عن دار الآداب مجموعةٌ قصصيّةٌ بعنوان "شرفة بعيدة تنتظر".

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-470-6